عباس الجراري

مع المعاصرين

أسماء و آثار في الذاكرة والقلب

الجزء الأول

منشورات النادي الجراري * 7 *

مع المعاصرين

اسماء و آثار في الذاكرة والقلب

كلمة شكر وعرفان

إلـى حميــــدة

زوجتي ورفيقة عمري لما بذلت من جهد في إخراج هذا الكتاب وتصحيح تجارب طبعه، ولما تعانيه دائما معي في هذا المضمار الصعب.

عباس

عباس الجراري

مع المعاصرين

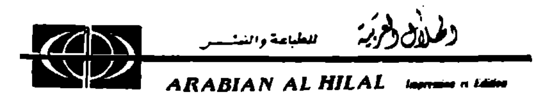
أسماء وآثار في الذاكرة والقلب

الجزء الأول

منشورات النادي الجراري * 7 *

الإيداع القانوني: 95-1148

الطبعة الأولى
جمادى الثانية 1416هـ
نونبر 1995م
الرباط - المغرب



الرباط، 21 زنقة ديكارت حي الليمون تلفون : 99-60-70 فاكس : 707751

بسم الله الرحمن الرحيم

في تاريخ ثقافتنا العربية الإسلامية تقاليد دالة على مدى التقدير الذي كان متعارفا عليه بين حاملي هذه الثقافة، علماء وأدباء، مما يتجلى في كلمات التنويه التي كانوا يتبادلونها في المناسبات التي تقتضيها، وكذا في المراثي التي كان يؤبن بها من ينتقل إلى رحمة الله.

ولعلنا أن نشير في هذا الصدد إلى ما تضمه الفهارس والبرامج وكتب الرحلات والتراجم والطبقات، وما إليها مما حفظ به تراث الرجال، لاسيما ما يتعلق بحياتهم وأطوار هذه الحياة، وما أنتجوا أثناءها وخلفوا من إنتاج، مع ضبط - قدر الإمكان - للتواريخ، في إلحاح على تاريخ الوفاة.

وربما كان للمشارقة في هذا المجال ما لم يكن للمغاربة الذين شاع عنهم إهمال نبغائهم، وقلة العناية بتدوين أخبارهم وإذاعة إنتاجهم وصيانته، وعدم المبالاة بهم في حياتهم، إلى حد غدا متداولا بينهم أن «المرء مادام حيا يستهان به»، وأن «المعاصرة حجاب» وأنها «تمنع المناصرة». بل إن بعض من تدبروا هذه الملاحظة وعانوها، انتهوا - كما عند اليوسي - إلى أن الاعتناء بالأخبار والوقائع والمساند «ضعيف جدا في المغاربة، فغلب عليهم في باب العلم الاعتناء بالدراية دون الرواية، وفيما سوى ذلك لاهمة لهم». وكان قد سأل شيخه أبا عبد الله بن ناصر يوما عن السند فيما كان ياخذه عنه، فقال له: «إنا لم تكن لنا رواية في هذا، وما كنا نعتني بذلك»[1]

وعلى الرغم مما قد يكون في مثل هذه الأقوال من تأكيد للحقيقة

(1) المحاضرات ص 59 ط حجرية.

والواقع، أو ما قد يكون فيها من مبالغة، وعلى الرغم كذلك مما في التراث المغربي من مصادر حفظت غير قليل من تراجم العلماء والأدباء والمتصوفة والملوك وغيرهم، فإن الظاهرة قائمة لها شواهد وأعلام تثبت صدق تلكم الأقوال، وإن في غير إطلاق.

ويغلب على الظن أن وجود هذه الظاهرة مرتبط بالمدى الذي يكون للثقافة، إما في خط الازدهار أو الانهيار. ومن هنا لا تستغرب العناية التي تبدو في بعض المؤلفات، على نحو ما ذكر؛ كما لا يستغرب الإهمال الذي قد يلاحظ في هذا المضمار. وهو إهمال ذاع أمره في العهود المتأخرة، وانتقلت آثاره ورواسبه إلى المرحلة الحديثة والمعاصرة.

ويبدو أن شيئا من التغيير طرأ على هذا الواقع، مع بوادر النهضة التي عرفها المغرب منذ سنوات العشرين من هذا القرن، على نحو ما تبرزه التقاريظ التي كانت تكتب على بعض المدونات، وختمات كبار العلماء وما كان يقال في مناسبتها، وكذلك ماكان يتبادل في سياق المساجلات والإخوانيات، بالإضافة إلى رثاء من يتوفى منهم وما ارتبط بهذا الرثاء من إحياء ذكراهم وتأبينهم، وإن في حدود ضيقة، علما بأن بعض هذه التقاليد كان معروفا قبل هذه الفترة، وإن لم يكن شائعا. أما تكريم الأحياء، فلم تكن به عناية، وإن وقع بالنسبة للبعض.

وقد أخذ المغاربة في العقود الثلاثة الأخيرة يعنون بإقامة هذه المناسبات وتنظيمها والاحتفاء بها، مما غدا اليوم من قبيل المألوف.

وإذ أتيح لي أن أشارك في حفلات تكريم وذكريات تأبين، مما نظم لبعض الذين تربطني بهم صداقة أو أواصر فكرية، سواء من المغاربة أو المشارقة؛ فقد ارتأيت أن أجمع نماذج مما تسنى لي كتابته في هذا المجال. وهي تتراوح بين التعبير العاطفي والتحرير العلمي، وفق ما يقتضيه الحال - مضمونا وأسلوبا - وكذا وفق ما تعكسه شخصية المكرم أو المؤبن.

وإلى هذه الكلمات أضفت عروضا ألقيتها في الترحيب ببعض الزملاء في مؤسسات مجمعية، وأخرى ساهمت بها في ندوات نظمت لإحياء ذكرى علماء أكن لهم كبير التقدير، وإن كنت – بحكم السن – لم ألتق بهم.

وقد جعلتها في قسمين:

الأول: خاص بما قيل منها في مناسبات التكريم

الثاني: متعلق بما قيل منها في مناسبات التأبين.

وهي – جميعا – تلتقي في كونها تتناول معاصرين، ممن رسمت أسماؤهم وآثارهم في ذاكرتي والقلب. وفي النية إصدارها مضمومة في أسفار، يسعدني في هذا الجزء أن أقدم أولها، راجيا أن تحقق هدفها وتتم الفائدة منها على النحو المأمول.

والله الموفق.

الرباط في 20 جمادى الثانية 1416هـ

14 نونبر 1995م

عباس الجراري

القسم الأول

تقدير وتكريم

تكريم الشاعر اللبناني
أمين رشيد نخلة

* * *

كلمة كتبت لتلقى في المهرجان الذي دعا إليه مجلس الشوف الثقافي بتعاون مع عدد من الهيآت الفكرية والمؤسسات الثقافية، تكريما للأديب الشاعر أمين رشيد نخلة. وكان مقررا عقده بقصر اليونسكو في بيروت يوم فاتح أبريل 1973، ثم أجل للخامس عشر منه.
وبعد ذلك ألغي بسبب الحوادث بين الفدائيين والجيش اللبناني. وكان الكاتب مدعوا للمشاركة فيه باسم المغرب.

الحمد لله

فخامة رئيس الجمهورية

سيداتي أوانسي سادتي

يسعدني ويشرفني أن أحضر هذا المهرجان الرائع الذي يقيمه مجلس الشوف الموقر، بتعاون مع بعض الهيآت الفكرية والمؤسسات الثقافية، تكريما للشاعر اللبناني الأستاذ أمين رشيد نخلة.

وإنه لفخر لي عظيم أن أنقل إليكم في هذا الحفل البديع صوت المغرب مفعما بالحب الصافي والإخاء الخالص، تحية وتقديرا للأديب الكبير وللبلد الحبيب الذي أنجبه، لبنان ذي التاريخ الحافل والثقافة الأصيلة والتقاليد العريقة؛ لبنان الذي خدم العربية وفكرها وأدبها، ورفع لواء حرية التعبير عاليا خفاقا، في الوقت الذي فرض الصمت في أوطان أخرى كثيرة أو فرض الانقياد والخضوع للتوجيه.

ولابدع، فمن حق المغرب أن تكون له الصدارة في تقديم التهنئة للبنان، تقديرا لنضاله الفكري والأدبي الممثل في شخص شاعره أمين، لما يكن المغرب لهذا القطر ورجاله من ود صادق ورغبة ملحة في التعاون الشامل، من أجل التطور والتقدم، وفي سبيل مواجهة المصير الموحد الذي يجمع البلدين داخل إطار العروبة وقضاياها المشتركة.

نعم، إن من حق المغرب وواجبه كذلك أن يزجي كريم التحية وصادق التهنئة، ويشعر في ذلك باعتزاز بالغ. فعلاقاته بلبنان تضرب في أعماق

التاريخ، منذ جاء الفينيقيون يقيمون مراكز التجارة في شواطئه، وينشرون اللغة والتقاليد وكثيرا من مظاهر حياتهم الثقافية والحضارية. وقد تجلت هذه العلاقات وطيدة في العصر الحاضر، إذ كرع المغرب من ينبوع لبنان الفياض بعلومه وآدابه، واقتبس من أنواره وإشعاعاته ما يجعله يهتبل فرصة هذا اليوم الأغر، ليعترف له ويرد بعضا من ذلك، تحية وتقديرا وإعجابا، وأملا في مزيد من التبادل والتعاون.

سيدي الرئيس

حضرات السادة

إن في حياة كل أمة أياما تحتفل بها يخلدها التاريخ. وإن هذا اليوم الذي يكرم فيه لبنان أحد أبنائه، والذي يجسم أمامنا تاريخ جهاد طويل وحافل في مضمار الأدب والشعر، لهو يوم لتكريم رسالتهما والتذكير بها، ليس في لبنان فحسب، ولكن في الوطن العربي كله.

إننا - على الرغم من كل ما يقال - مازلنا نومن برسالة الشعر والأدب عامة، سواء من حيث تمثيله لضمير الأمة وكيانها وتعبيره عن حياتها وحيويتها، أو من حيث توجيهه لمصيرها وفتح آفاق المستقبل أمامها وتفجير طاقات النضال والتغيير المعتملة في جماهيرها لتمحو كل مظاهر التخلف وجميع آثار الاستعمار.

لقد انتهى العهد الذي كان يعتبر فيه الشعر عملية إلهامية صرفا، ومجرد انطباعات عفوية وأحاسيس ذاتية معروضة في تركيب فني جميل، تلقائي أو مصنع حسب إمكانات الشاعر.

إننا في حاجة أكثر من أي وقت مضى من تاريخنا لكي نخلق تشكيلا جديدا للإنسان والمجتمع في وطننا العربي. ولن يتسنى لنا ذلك إذا نحن لم نع ذاتنا ونع من خلالها الحياة. والشاعر أو الأديب عامة، بما له من حس مرهف ووجدان متجاوب، وبما له من نفاذ رؤيا وجسارة تجاوز وطاقة إبدا ع،

هو أقدر من غيره على الكشف عن ملامح الحياة وحقيقتها التي تنبثق تلقائيا، بعد أن يتأملها ويصهرها في نفسه ووعيه وفكره، ويعطيها من تجربته العاطفية والعقلية، في علاقة جدلية بينهما تجعله ينفعل مع قضايا الفكر والسياسة ويتخذ منها موقفا يتجاوب فيه مع مجتمعه، شريطة أن يكون هذا الموقف واضحا يعبر عنه في شعره ويفسره، بعيدا عن الغموض والتغليف، ولو كان ذلك بدعوى الجمال والفنية.

ولعلي هنا أن أقتبس من رأي الشاعر الكبير أمين نخلة قولة يعتبر فيها من السباقين إلى الدعوة للوضوح، وإن بدا في شعره مولعا باختيار كلماته وتنقيح أسلوبه. هذه القولة هي أن «أدنى الفن ما كانت فيه الجملة تفتش عن معناها، ومتى هزلت المعاني توكأت على غموض الألفاظ».

فاللغة وسيلة وليست غاية، ولا يمكن أن تكون إلا كذلك، إذ هي مجرد رموز ومصطلحات يتوسل الإنسان بها في التعبير عن أحاسيسه ومدركاته في الحياة. وليست هذه الرموز والمصطلحات شيئا غير ما نستعمل جميعا في حياتنا العادية ويتداوله مطلق الناس. وقد بالغ كتاب العرب وشعراؤهم – إن لم أقل أخطأوا – حين فرقوا تفريق التحريم بين لغة العلم والثقافة ولغة السوقة والعوام؛ أي بين لغة تصلح أن تستعمل للكتابة والشعر، ولغة لا تصلح إلا للتعامل اليومي. واستمروا في ذلك قرونا غدونا إثرها اليوم نحس هذا الفقر الذي تعانيه لغتنا. وهو فقر هائل ومصطنع في نفس الوقت، لأنه في إمكاننا أن نتجاوزه – أو بعضه – ونتغلب عليه، إذا نحن نزلنا من الأبراج العاجية إلى حيث يسير الناس، لنغني لغتنا بما يغني حياتنا المعاصرة من مختلف ألوان الثقافة والحضارة، حتى نستطيع أن نثير في جماهير أمتنا تعاطفا وتجاوبا مع ما نكتب. وما أحوجنا إلى هذا التعاطف والتجاوب، لأن في جماهيرنا – رغم تخلفها – قوة وقدرة وفعالية عبرت عنها جميعا في انتفاضاتها وفيما أنتجت من تراث. ولكنها طاقات للأسف مكبوتة ودفينة تحتاج إلى من يوعي بها ويوقظها وينميها، ويعترف بها إن أتيح لها

الظهور. وهنا كذلك أراني ألتقي مع أديبنا الكبير الذي أعطى الشعر العامي بعضا من عنايته، على حد ما تكشف المقدمة الغنية التي مهد بها لديوان المعنى لأبيه.

إن الشاعر بفنيته وثقافته قادر – وذلك مطلوب منه – أن يطوع اللغة أية لغة، لا فرق بين معربها وملحونها، ويبدع منها وفيها تشكيلات يشحنها بدلالات جديدة يفرغ فيها من ذاته ويسكب فيها من عقله ما يقويها، وأن ينظم بينها وهذه الدلالات في تناغم يضفي عليها موسيقية متموجة ومتداخلة تتبلور في تحرك نغمي ينطلق من الخارج إلى العمق أو من هذا إلى ذاك، في انسجام هو في الحقيقة مكمن جمال التعبير.

فخامة الرئيس

سيداتي أوانسي سادتي

هذه خواطر أوحى لي بها التأمل في بعض آراء الأديب الكبير الذي شغل العرب في لبنان وغيره، وخلال فترة غير قصيرة، بشعره الغزير الذي ينسج فيه على خيوط رومانسية، في روعة وإبداع بوآه ريادة هذا الاتجاه، مما اضطر شوقي إلى أن يقول مرشحا إياه بعده للإمارة:

هذا ولي لعهدي وقيم الشعر بعدي

والحق أن شاعرنا كان في غنى عن هذا الترشيح الذي لا يخلو من عسف والذي ما إخال شاعر مصر الكبير إلا محاولا به تثبيت زعامته.

سيادة الرئيس

أيها السادة

اسمحوا لي أن أعبر لكم عن مدى الغبطة التي تخامرني أحاسيسها وتغمرني مشاعرها، باعتباري عضوا في الأسرة التي تجمعنا بآصرة الأدب والفكر، وأنا أحضر تكريم زميل لي في هذه الأسرة هو في الحقيقة أحد شيوخها علما وأدبا وكفاحا وتجربة.

إن للأديب على أمته ومواطنيه حق التقدير والتكريم. وليس بكثير على بلد كلبنان أن يكرم واحدا من نجباء أبنائه. وإني لأراه بهذا التكريم ينبه إلى خطر إهمال العرب لرجالهم. وهو إهمال لا أجد له من تفسير إلا عدم الإحساس بالذات، أو التخوف من التفتح والوعي ومن التثمير الإنساني والتنمية الفكرية وكل ما من شأنه أن يغذي الشعور بالحرية والرغبة في التغيير وتفجير طاقات الخلق والإبداع. وبلغ هذا الإهمال حدا مفزعا حتى شاع عندنا القول بأن «المرء مادام حيا يستهان به»، وحتى رسخ في أذهاننا - أو كاد - أنه لولا عناية المستشرقين ما اشتهر أعلام كابن سينا وابن رشد وابن خلدون، وحتى غدت هجرة الأدمغة العربية إلى الخارج ظاهرة مزعجة تتجاوز كل إحصاء.

وإني لأتمنى في الختام - وأنا أطالعكم باسم المغرب - أن يمتد عمر أديب لبنان وشاعره الكبير أعواما طويلة، ممتعا بصحته الكاملة وعافيته الشاملة ونشاطه الدائب، ليرى الأجيال تضيف إلى البناء الشامخ الذي ساهم بقسط وافر في تشييده؛ كما أتمنى أن يدوم لبنان رافلا في نعمة الاستقلال والاستقرار والاطمئنان، وأن يستمر - وفق ما كان على مر الأزمان - مركزا مشعا للحضارة والثقافة، وحصنا منيعا للعروبة ولغتها وفكرها، ورائدا طلاعا لنضالها من أجل إعلاء راية الحرية وكلمة الحق.

وألف تحية وتهنئة للبنان وأديبها الكبير.

والسلام عليكم.

الشيخ محمد المكي الناصري:
جهاد متواصل وواجهات متعددة

* * *

عرض مقدم في حفل التكريم الذي أقامته جمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية بتنسيق مع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للشيخ محمد المكي الناصري يومي 18-19 شعبان 1408 : 6-7 أبريل 1988

(انظر خبر وفاته رحمه الله – وحفل تأبينه في آخر عرض بهذا الكتاب).

بسم الله الرحمان الرحيم

حضرات السادة

لابد لي في مستهل هذه الكلمة أن أقدم التهنئة لجمعية العلماء خريج دار الحديث الحسنية، مشفوعة بالشكر لها أن أقامت هذا الحفل التكريمي لفضيلة العلامة الشيخ محمد المكي الناصري، أحد أساتذة هذه الدار المبرزين، ومن أولئك الذين يقفون في طليعة رواد الحركة الوطنية والنهضة الفكرية لبلادنا في تاريخها الحديث.

ولابد لي كذلك في هذا البدء أن أضع قضية التكريم والدافع إليه والهدف منه في مكانها الحق، إذ لا يخامرني أدنى شك في أن مثل هذا الاحتفال وما إليه من احتفاء الأمة برجالها يسعى إلى تحقيق غايات متعددة: فهو يمحو وصمة الإهمال الذي قد تنعت به هذه الأمة؛ ولعلى في غير حاجة إلى أن أذكر بما شاع في هذا الصدد عن المغاربة على امتداد الحقب. وهو يدل على الاعتراف بالجميل لذويه، بعيدا عن أي مظهر جحود أو نكران. ثم إنه يضع الأمور في إطارها الواقعي الذي يساعد على معرفة الحقيقة، فيمنع تحريفها ويحول دون كل تزييف. ويعتبر بعد هذا مناسبة لتعريف الأجيال بما قام به الآباء وما حققوه للبلاد من أعمال ومنجزات. ومن خلال كل ذلك يتيح إبراز النموذج الذي يراد اتخاذه قدوة للاحتذاء.

من هنا، فإني حين أطرح السؤال للتعرف إلى النموذج الذي يقدمه الشيخ الناصري، فإني لا أتردد في الإجابة بأنه كامن في العالم الذي وهب حياته للجهاد في أوسع معانيه، بدءا من مجاهدة النفس إلى مقاومة

الخصوم والأعداء، ليصل بذلك إلى بناء الوطن وإقامة كيانه.

وقد كانت الدوافع إلى هذا الجهاد - على كثرتها وتشعبها - مرتبطة بالبيئة التي عاش فيها، سواء منها العامة أو الخاصة. أما البيئة العامة فتشمل مرحلتين تمثل أولاهما سنوات الحماية التي شهد بدايتها وهو في فترة وعيه الأولى، إذ كان ابن ستة أعوام يوم أعلن عقدها البغيض. ولم يلبث مع اشتداد عوده أن دخل مجال الكفاح الوطني ضد المستعمر من أجل استرجاع الحرية والسيادة. وتمثل المرحلة الثانية عهد الاستقلال الذي فتح له مجالات بناء المغرب المحرر، وكان هو مستعدا لهذا البناء بعد أن تمرس بالجهاد في أصعب مظاهره وأكثرها شدة ومرارة وضراوة.

وأما البيئة الخاصة فتتجلى في عدة عوامل لعل أولها البيت الذي نشأ فيه، يرعاه والده المرحوم محمد اليمني بن سعيد الناصري، وكان قوي الإحساس بانتمائه إلى بني ناصر المشهورين بالعلم والصلاح ونفوذهم الروحي وخدمة الصالح العام، حريصا على أن يربي أبناءه على القيم والفضائل؛ ويرعاه كذلك شقيقه الأديب الشاعر المرحوم محمد بن اليمني الذي درس عليه بعض العلوم، وتلقى على يديه لاشك ما مكنه من الدخول إلى عالم الأدب والشعر خاصة.

وقد تسنى للطفل محمد المكي، انطلاقا من هذا المحيط الأسري ومن دراسته الأولية في الكتاب القرآني، أن يلتحق بحلقات الدرس التي كانت تملأ مساجد الرباط وزواياه،مشعة ثقافة متميزة بما يطبعها من تنوع وتفتح وما يسمها من إصلاح وتجديد. ويكفي أن أذكر من أقطاب تلك الحلق علماء أفذاذا كأبي شعيب الدكالي والمكي البيطاوري ومحمد السايح ومحمد المدني ابن الحسني رحمهم الله، لتتأكد الملامح الفكرية التي ظهرت بها العاصمة يومئذ.

وما أن نهل من معين هذه الثقافة الثر حتى تاقت نفسه إلى متابعة

تكوينه في الخارج، بهدف استكماله وتطويره، فسافر أولا إلى مصر حيث درس الفلسفة والاجتماع بكلية آداب جامعة القاهرة؛ ثم رحل إلى باريز وجنيف، وانخرط في سلك جامعتهما، مهتما في الأولى بمادة التربية، وفي الثانية بالقانون الدستوري والدولي العام. وطوال هذه الفترة التي امتدت من سبعة وعشرين وتسعمائة وألف إلى اثنين وثلاثين، تسنى له أن يأخذ على مجموعة من كبار العلماء، أمثال الأساتذة المرحومين مصطفى عبد الرازق ومنصور فهمي وطه حسين وأحمد أمين والمستشرقين الإيطاليين نلينو وجويدي والمستعربين الألمانيين ليتمان وبرجستراسر والفيلسوف الفرنسي أندري لالاند، وغير هؤلاء من المفكرين الذين أفاد من علمهم ومناهجهم ما أتاح له تجربة مكتملة أهلته لما كان يهيئ نفسه له.

من هذه التجربة الغنية تشكلت في ذهن الطالب الناصري صورة النموذج الذي يتوق إلى اقتفائه. ويكاد إنتاجه في هذه المرحلة المبكرة أن يكون دالا على الهم الذي كان يشغله والطموح الذي كان يسعى إلى تحقيقه. ويكفيني في هذا العرض الوجيز أن أشير منه إلى قصيدة قالها سنة ثلاث وعشرين يستنهض بها أبناء وطنه، هذه بعض أبياتها:

إلى المعالي هلموا يا بني وطني ... واستيقظوا عاجلا من غفلة الوسن
قوموا انشروا العلم ولتهدوا نفائسكم ... في نشره بالقرى والخوص والمدن
لا تبخلوا أبدا في نشره ودعوا ... تقليد أهل الهوى والجهل والإحن
هاذي بلادكم قامت تصيح فهل ... من وثبة أم فقدتم نعمة الأذن
تصيح من كمد كادت تصير به ... حبيسة القبر بين اللحد والكفن
إلى متى وهي تدعوكم ولا أحد ... يجيب دعوتها بالروح والبدن

ولعل تأليفه عن «سقراط» نابع من تمثل تلكم الصورة المثالية التي ارتسمت في ذهنه، إذ هو – كما يقول في خاتمة الكتاب – «ضرب لمن بعده أحسن الأمثال في التضحية والعظمة الفكرية، وترك للأجيال حياة تتوجها الزعامة في كل نواحيها، وخلف من بعده مبادئ لها من خصائص الحياة كل

ما في الأحياء من حياة قوية وشخصية بارزة وتأثير عميق... فلعله سيبقى بين الفلاسفة مثلا أعلى في العظمة الذهنية المنقطعة النظير، يكشف غيوم النفس الإنسانية ويضيئ ظلمات المادة الكثيفة ويضع أساس العلم القديم والحديث ويشرح مبادئ الأخلاق الإنسانية شرحا يصحبه التطبيق العملي على نفسه قبل كل أحد».

من هنا لا أستغرب حين أجد هذا الشاب المتوثب، وقد تزود بشتى الوسائل والأدوات، يخوض غمار الجهاد في مجالين اثنين يكادان أن يكونا متناقضين في الظاهر، أو هكذا يظن الكثيرون، هما: المجال الثقافي الفكري والمجال السياسي الحزبي؛ وكانت له فيهما اليد الطولى بالمواقف الرائدة التي سجلها له التاريخ حتى قبل رحلته إلى الخارج.

ففي المجال الأول تجلت أعماله الإيجابية في ميادين ثلاثة:

أولا: التعليم

وكان بدأ يمارسه في أوائل العشرين ببعض المدارس الناشئة يومئذ في الرباط، كمدرسة والزهراء، والزاوية الكتانية، ومدرسة الحياة إلى جانب شقيقه المرحوم محمد بن اليمني. وكان انخراطه في هذه المدرسة مرتبطا بالحركة السلفية الإصلاحية التي كان أحد دعاتها، وسأتحدث عنها بعد.

وتابع العمل في التعليم حين أسس معهد مولاي الحسن للأبحاث المغربية بتطوان عام سبعة وثلاثين، بعد أن ألزمته إدارة الحماية الفرنسية بمغادرة المنطقة التي كانت تحت نفوذها، وهو المعهد الذي أصبح مديرا له؛ ثم حين أنشأ بعد عامين معهد مولاي المهدي الذي عد بحق أول مركز حر للتعليم العربي تجاوز إشعاعه مدينة تطوان إلى المدينتين اللتين احتضنت فرعه، وهما طنجة والقصر الكبير.

وفي نطاق هذا الجهاد التعليمي، رأس سنة ثمان وثلاثين، بتكليف من الخليفة السلطاني مولاي الحسن بن المهدي رحمه الله، بعثة الطلبة الموجهة

إلى مصر للدراسة، كما أشرف على تأسيس بيت المغرب في القاهرة، وكان مخصصاً لإيواء طلبة هذه البعثة، وكذا القيام بنشاط ثقافي من شأنه أن يقوي تكوين هؤلاء المبعوثين ويعزز الروابط بين البلدين.

وقد استمر الأستاذ محمد المكي الناصري في هذا الجهاد التعليمي حتى بعد حصول المغرب علي استقلاله، بالدروس المتميزة التي ألقاها في كلية الحقوق بجامعة محمد الخامس ودار الحديث الحسنية، وكانت منصبة على الشريعة الإسلامية وبعض فروع القانون. ولعلي في غير حاجة إلى أن أذكر تدريسه في المساجد دون انقطاع، سواء في الرباط أو تطوان أو غيرهما من المدن.

ثانيا: الكتابة

وسأعود إليها

ثالثا: النشر

وكانت العناية به نابعة من الوعي العميق بمدى الحاجة إليه، باعتباره أداة تقريب الثقافة، ووسيلة تعميمها، والسبيل إلى إحداث التواصل وتمتينه مع الآخرين، سواء علي الصعيد العلمي المتعلق بطبع كتب مدرسية ومؤلفات دينية ووطنية وتاريخية، أو على الصعيد الحزبي المتمثل في إصدار صحف «حزب الوحدة المغربية». وفي هذا الصدد أنشأ «مطبعة الوحدة المغربية» في تطوان عام سبعة وثلاثين، و«مركز الطباعة المغربية» في طنجة سنة ست وأربعين، و«دار الشعب» في الرباط عام تسعة وخمسين.

وفي المجال الثاني، وهو سياسي حزبي، يمكن رصد جهاد الشيخ الناصري في منجزات عديدة شغل هو بها وشغل الناس، لما اتسمت به من فعالية وإيجاب، ولما كلفته من معاناة ماكان يتغلب عليها بغير الصبر والثبات.

ويمكنني أن أذكر من هذه الأعمال:

أولا: مساهمته في تأسيس الحركة الوطنية، على ما سأوضح بعد.

ثانيا: تكوينه حزبا على إثر انقسام الكتلة الوطنية سماه: «حزب الوحدة المغربية». وكان يقوم على التمسك بالعرش وسيادة المغرب ووحدة ترابه، كما يظهر من الشعارات التي كان ينادي بها، مثل:

1- الشعب للعرش والعرش للشعب

2- المغرب قطر واحد لا يتجزأ

3- المغرب للمغاربة

ثالثا: عضويته في عدد من الجمعيات، كجمعية الشبان المسلمين في القاهرة عام تسعة وعشرين، و«جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين» التي كان المندوب الممثل لها في المغرب سنة أربع وثلاثين؛ ومشاركته في تأسيس بعضها، كالجمعية الإسبانية الإسلامية في مدريد، وفرعها في غرناطة سنة اثنتين وثلاثين.

رابعا: خدمته القضية المغربية في الداخل والخارج، وهو ميدان لا إمكان لتحديده أو حصره، وتكفيني فيه الإشارة إلى بعض المراحل منه، كحضوره المؤتمر الإسلامي العام الذي انعقد بالقدس الشريف عام واحد وثلاثين، وكان فرصة للدفاع عن عروبة المغرب وإسلامه، لاسيما وأنه جاء في أعقاب حادث الظهير البربري. وقد اكتمل هذا الحضور بالمشاركة في «مؤتمر رجالات العرب» الذي نظم بنفس المناسبة، وفيه أمضى المندوب المغربي باسم المغرب العربي أول ميثاق للوحدة العربية.

كذلك أشير إلى مشاركته في بعض دورات عصبة الأمم، والأمم المتحدة، والجامعة العربية، دون أن أنسى رحلته الطويلة لبلدان الشرق الأقصى والأوسط، للتعريف بالمشكل المغربي، على إثر نفي الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه.

خامسا: تحمله مسؤوليات وطنية كبيرة في عهد الاستقلال، منها

عضويته في المجلس الوطني الاستشاري عام ستة وخمسين، وتعيينه في ليبيا سفيرا لجلالة الملك المنعم سنة إحدى وستين، وتسميته عام ثلاثة وستين عضوا بالغرفة الدستورية لمراقبة البرلمان، وعاملا لصاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله على إقليم أكادير، ثم وزيرا لجلالته في الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة عام اثنين وسبعين. وقد توجت هذه المناصب بتعيين جلالته له سنة إحدى وثمانين عضوا بمجلس الوصاية، وأكاديمية المملكة المغربية، ورئيسا للمجلس العلمي بولاية الرباط وسلا والأقاليم المجاورة.

أيها الإخوة.

إن المتتبع لحياة الشيخ محمد المكي الناصري الحافلة في مختلف هذه الميادين الجهادية لا يلبث أن يثير استفسارا حول الكيفية التي استطاع بها أن يجمع ويوفق بين مجالين سبق أن قلت إنهما قد يبدوان متناقضين، وهما في الحقيقة ليسا كذلك، إذ لا فصل – في رأيي – من حيث المبدأ والفحوى والهدف بين الثقافة والسياسة مالم تشبها الحزبية الضيقة.

يضاف إلى هذا أن طبيعة البيئة الأسرية والتعليمية التي نشأ فيها أتاحت له تكوينا واستعدادا هيأه لحمل فكرة الإصلاح السلفي الذي انطلق من الرباط، بفضل الشيخ أبي شعيب الدكالي ونخبة من تلاميذه كان هو في طليعتهم. وسرعان ما تطورت هذه الفكرة على يد هؤلاء التلاميذ إلى حركة نقلت العمل الثقافي إلى عمل سياسي، فظهرت «الرابطة المغربية» التي تحمل فيها مسؤولية الأمين، وكان تأسيسها في الرباط، ثم تكونت لها فروع في فاس وتطوان وطنجة.

في هذه الأثناء، وبالضبط في عام ستة وعشرين، برزت «هيئة أنصار الحقيقة» التي يبدو لي أن إنشاءها بهذه التسمية ارتبط بكتاب الناصري «إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة» وكان صدر قبل تأسيس هذه الهيئة بسنة.

ومن هنا لا غرابة أن يكون هذا المثقف السلفي المتقد حماسا، عضوا

مـؤسـسـا وعـامـلا في «كـتلة العـمل الوطني» التي تـعـد أول تشكيل وطـني سياسي بالمغرب، وقد امتد عمرها إلى عام سبعة وثلاثين، وهو التاريخ الذي يسجل انقسام الكتلة وانصراف الأستاذ الناصري إلى تكوين حزب الوحدة، كما مر.

وتداخل المجالين – الثقافي والسياسي – في جهاد هذا العالم الزعيم، هو الذي جعله يتوسل في عمله بأدوات مختلفة لا بأس أن أستعرضها ولو بعجالة:

أولا: الشعر

وكان ينبثق إبداع قصائده من روح سلفي إصلاحي يمتزج فيه الدين بالوطنية، وقد سقت بعض أبياته، وأستسمحكم في أن أضيف إليها نماذج أخرى، كمطلع قصيدته المشهورة في ختم المرحوم سيدي المدني بن الحسني للبخاري عام سبعة وعشرين بضريح سيدي العربي بن السايح، وفيه يقول:

كم أنادي مستنهضا لبلادي ... وأرى الكل سابحا في رقاد

وبهذا النفس الحماسي المحرك للهمم، قال في قصيدة توجيهية:

شباب الأمة اطرحوا المنايا ... وسيروا بين قومكم أماما
فليس يضيركم ماقد لقيتم ... إذا كنتم لأمتكم قواما
فهيا أيها الشبان وامضوا ... إلى تعليم أمتكم دواما
وبثوا دعوة الإرشاد فيها ... ولاتبقوا العداوة والخصاما

وقال من أخرى في أعقاب حادث الظهير البربري:

الله أكبر نور الله قد سطعا ... وفي سما الملة البيضاء قد طلعا
إنا بنو المغرب الأقصى بنو وطن ... لا يستطيع عن الإسلام منقطعا
للعرب نهتف والأصوات عالية ... فكوكب الغرب لولا العرب ما ارتفعا
جاءوا إلينا فأهدونا مفاخرهم ... وأصبح المجد مجد التوأمين معا
فليشهد الناس أنا كلنا حرس ... نحمي العروبة والإسلام ما اجتمعا

وفي التعبير الشعري لابد من الإشارة إلى الأناشيد الناصرية التي كانت تذيع بين الناس وتردد الألسنة مقاطعها المتأججة، كهذا الذي يقول فيه:

فؤادي إلى وطني قد صبا ... تعشقته منذ طور الصبا
وديني في حبه رغبا ... فيا وطني عنك لن أرغبا
ويا وطني لا تخف أن أمين ... وأخلف وعدك إني أمين
كفيل بنيل مناك ضمين

ثانيا: الخطابة

وللناصري فيها مواقف وجولات تكشف عن تطويعه لهذا النمط من فن القول. وكانت المناسبات الوطنية المختلفة فرصا لإلقاء خطب مكتوبة أو مرتجلة، كتلكم التي ألقاها في مؤتمر «جمعية طلبة شمال إفريقيا» سنة ست وثلاثين. وهو المؤتمر الذي كانت إدارة الحماية قد منعت انعقاده، مما اضطر الجمعية إلى تعويضه باجتماعات كانت أشبه بمظاهرات متنقلة، بدأت في أحد بساتين الرباط يعرف ب: «غرسة التازي» ثم اتجهت إلى «رياض الرويسي» – ابن الطيب – في الدار البيضاء، وأخيرا إلى «جنان الشقشاق» في فاس.

وقد ألقى الشيخ الناصري في مهرجان الرباط خطبة أدارها علي الوحدة التي ضمت أقطار الشمال الإفريقي في عهد الموحدين وما عرفه هذا العهد من حضارة وثقافة مزدهرتين. أما في البيضاء فكان تركيزه على وجوب مقاومة سياسة الإدماج والتجنيس التي يسعى الاستعمار الفرنسي إلى تطبيقها في هذه الأقطار. وأما في فاس فكانت الخطبة الناصرية متسمة بطابع ثوري احتجاجي يدعو إلى انتفاضة عارمة يكون لها مابعدها. وفيها ألح علي وجوب «أن نتمغرب» فكريا وعاطفيا وقوميا، أي أن تتحقق المعرفة بالتاريخ والأمجاد والمشاكل والإمكانات والطاقات الكامنة في شعوب

المغرب الكبير، حتى يستطيع أبناءها أن يرفعوا رأسهم عاليا ضد المستعمر، ويقفوا في وجهه وقفة رجل واحد، فيخرجوا بذلك من الوضع المزري الذي تعانيه بلادهم بسبب الجهل وتفسخ الشخصية وضياع الحقائق واندثار الخصائص التي ميزتهم عبر القرون والتي استطاعوا بها أن يقاوموا الأعداء والخصوم على امتداد الأجيال.

ثالثا: المقالة الصحفية

وكانت أداة طيعة وظفها الأستاذ الناصري في التعبير عن فكره الإصلاحي والوطني. وشعورا منه بأهميتها القصوى في هذا التعبير، أسس بالعربية وغيرها عددا من الجرائد والمجلات، منها:

1- مجلة «الوحدة المغربية» بتطوان عام خمسة وثلاثين

2- صحيفة Unidad Maroqui بالإسبانية سنة سبع وثلاثين بنفس المدينة، وكانت أسبوعية.

3- جريدة la voix du Maroc بالفرنسية عام ستة وأربعين بطنجة، وكانت أيضا أسبوعية.

4- صحيفة «منبر الشعب» بطنجة كذلك سنة تسع وأربعين، وكانت يومية.

5- جريدة «الشعب» أصدرها بطنجة عام اثنين وخمسين، ثم نقلها إلى الرباط سنة تسع وخمسين، ومعها أسس مطبعة دار الشعب.

وإذا كانت كثرة المقالات التي دبجها الناصري - الكاتب الصحافي - تثير صعوبة الاختيار للاستشهاد ببعض نماذجها، فسأقتصر على افتتاحية لأحد أعداد جريدة «الوحدة المغربية» مؤرخ في الثامن والعشرين من يونيو عام أربعين، كتبها بعنوان «قبح الله الحماية: فهي جناية ما فوقها جناية»، وصاغ فقراتها المتسقة على هذا النحو: «الحماية - حماكم الله منها أيها المواطنون - جاءت إلى بلادنا العزيزة بجيش من الصعاليك والمفاليك ليس لهم من الكفاءة ولا من الاستعداد ولا من الرجولة ما يخولهم أن يحتلوا ولو

مركزا بسيطا في حياة شعوبهم وداخل بلادهم، جهلاء بكل معاني الجهل، شرهين جشعين بكل معاني الشراهة والجشع، قصار النظر في كثير مما يفكرون وما يعملون، بعيدين كل البعد عن معرفة النفسية المغربية، وعن فهم العقلية المغربية، وعن الإحساس بالأماني المغربية. ومع هذا وكلت إليهم قوة الحديد والنار مصير شعب حر بأسره ومستقبل أمة عزيزة بأكملها. فماذا يفعل هؤلاء الصعاليك والمفاليك وهم أعجز من العجز وأبلد من البلادة، وكل ما يعرفون أنهم أقوياء فيجب أن يحكموا المغرب، وأنهم سادة فيجب أن يكون المغاربة لهم عبيدا. قبح الله الحماية فهي جناية ما فوقها جناية».

رابعا: الأحاديث والدروس والندوات

وهي معروفة عند الجميع، ويكفيني هنا أن أذكر منها بدروسه الحسنية الرمضانية، وبأحاديثه التفسيرية المذاعة التي يفيد الجمهور منها - ليسرها ووضوحها - أعظم الفائدة.

خامسا: البحوث والدراسات والتقارير

وهي كثيرة تحتاج إلى أن تجمع وتنشر، وسأشير منها إلى ماهو مطبوع:

1- إظهار الحقيقة وعلاج الخلقية:

أصدره في تونس عام خمسة وعشرين، صرخة مدوية ضد البدع والخرافات المنسوبة للدين.

2- حياة سقراط:

طبعه في القاهرة سنة ثلاثين، وقد سقت فقرة منه في بداية هذا العرض. وهو يزيح الستار عن وطنية هذا الفيلسوف وتدينه ومبادئه التي كان يسعى بها إلى إصلاح المجتمع الأثيني وما قاساه من ذلك.

3- حرب صليبية في مراكش:

نشره في القدس عام واحد وثلاثين، على إثر حضوره المؤتمر

الإسلامي الذي عقد في العاصمة الفلسطينية، والذي كان فرصة لفضح السياسة البربرية في المغرب.

4- فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى:

طبعه في القاهرة سنة اثنتين وثلاثين، وضمنه التقرير المقدم إلى المؤتمر الإسلامي العام وجميع مسلمي العالم من اللجنة الشرقية للدفاع عن المغرب، وصدره بالكلمة التي ألقاها باعتباره مندوب المغرب في هذا المؤتمر. وفي هذا الكتاب كشف عن الصراع العنيف بين الحق والقوة: حق مراكش التي تريد - كما ورد في الطالعة - أن تظل أمة محمدية... خاضعة للقوانين الإسلامية... عربية روحا ولغة... متمتعة بوحدتها القومية، وأن تبقى في الغرب سندا للعائلة العربية، وأن تستفيد من (الحماية) معونة وسندا، وأن تستعيد استقلالها كدولة إسلامية، وأن تكون كلمة (الحق) هي العالية؛ وبين قوة فرنسا التي تريد أن تكرهها على المسيحية، وأن تخضعها لأعراف جاهلية وفرنسية، وأن تجعلها فرنسية، روحا ولغة، وأن تجزئها بشعوبية بربرية، وأن تدمجها في العائلة الفرنسية، وأن تكتسب من الحماية سطوة ومددا، وأن تحولها إلى مستعمرة كاتوليكية، وأن تنتصر (القوة) الباغية.

5- وصايا دينية من ملوك الدولة العلوية إلى الأمة المغربية:

نشره في الرباط عام أربعة وثلاثين بمناسبة إحداث الاحتفال بعيد العرش.

6- الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية:

أصدره في تطوان سنة خمس وثلاثين، مقدما بدراسة للقضية الحبسية من الوجهة الفقهية والتاريخية والسياسية والاقتصادية، ومذيلا بوثائق مخزنية عن الأحباس من عهد الاستقلال وبملحقات عن أحباس الجزائر وتونس والأوقاف السورية ووقف السكة الحديدية الحجازية والأوقاف المصرية وأوقاف المسلمين في آسيا وأوروبا وامتيازات بني إسرائيل في مناطق المملكة المغربية.

7- *موقف الأمة المغربية من الحماية الفرنسية:*

أخرجته (حركة الوحدة المغربية) جامعة فيه بحثين للشيخ الناصري، وآخر معربا للمرحوم محمد بن الحسن الوزاني مع بعض إضافات الشيخ إليه. ويحتوي الكتاب كذلك على دراسة معربة تمثل وجهة النظر الرسمية، وتقرير معرب كذلك كان قدمه المقيم ليوطي يصف فيه الحماية وتطبيقها في المغرب.

8- *التيسير في أحاديث التفسير:*

نشره في أجزاء ستة صدرت ببيروت عام خمسة وثمانين، متضمنا أحاديثه التفسيرية الإذاعية التي قصد منها - كما شرح في المقدمة - إلى عرض معاني القرآن الكريم خالصة من جميع الشوائب التي تتنافى مع روحه وكل مالا يمت بسبب أو نسب إليه، في أسلوب مبسط وسط يفهمه الأمي ويرتاح إليه المتعلم، بحيث لا ينزل حتى يبتذل عند الخاصة، ولا يعلو حتى يصعب على العامة، بل هو بين بين.

وبعد، فهذه أيها الأصدقاء جوانب من جهاد فضيلة الأستاذ العلامة الشيخ محمد المكي الناصري، حاولت عرضها باختصار في خطوطها العريضة، اعتمادا على مواقفه وإنتاجه، وانطلاقا مما يكشفه تاريخ المرحلة، وفي ضوء اتصالي ومعرفتي الشخصية به، صديقا ورفيقا لوالدي رحمه الله، وزميلا لي في أكاديمية المملكة المغربية والمجلس العلمي للعدوتين، ثم أخا كبيرا أعتز به وأفتخر.

أسأل العلي القدير أن يطيل عمره، ويمتعه بالصحة والعافية، حتى يظل في درب الجهاد يؤدي رسالته على رأس الأقران وقدوة للأجيال.

وشكرا لكم والسلام عليكم ورحمة الله.

جلسة تكريمية لمولاي علي الصقلي
بمناسبة فوزه بجائزة الملك فيصل

* * *

كلمة تقديم

ألقاها عباس الجراري باعتباره رئيس الجلسة، وذلك مساء السبت 20 رمضان المعظم 1411هـ الموافق 6 أبريل 1991م بمنزل الأستاذ محمد عزيز الحبابي «ندوة تمارة»

بسم الله الرحمن الرحيم

أصحاب المعالي والسعادة

أخواتي إخواني

بابتهاج كبير وسعادة غامرة أحضر هذه الجلسة التكريمية التي تقيمها «ندوة تمارة» للشاعر الصديق مولاي علي الصقلي، والتي زاد في ابتهاجي بها وسعادتي أن شرفتني برئاستها.

الأستاذ مولاي علي الصقلي معروف لدينا جميعا من خلال عدة جوانب تكيف شخصيته. فهو خريج جامعة القرويين بكل ما يحمل هذا التخرج من حمل تراثي ومن أصالة عريقة. وهو بالإضافة إلى هذا التكوين الأصيل تسنى له أن يتفتح على العصر وعلى ثقافته وعلى ما يجد فيهما، مما أتاح له أن يكون في رصيده ملما بمختلف العناصر التي يمكن أن تجعل منه مثقفا بارزا وكاتبا شاعرا ذا طابع خاص. ثم إن مولاي علي درج في سلك السياسة والدبلوماسية، وهي مرحلة بدأت في الديوان الملكي وقادته إلى عدد من السفارات، مما أعطاه ثقافة أخرى طبعت فكره وسلوكه بسمات متميزة. ومولاي علي الصقلي إلى جانب هذا وذاك، مرب ورجل تعليم، تنقل في أسلاك هذه المهنة بمختلف مراحلها إلى أن أصبح في طليعة المفتشين والمسيرين المشرفين على التربية والتعليم في بلادنا. ومولاي علي بعد هذا إنسان له إحساس مرهف، وله جانب لين وخلق وديع. وقد جربته في عدة أسفار خارج المغرب، فوجدته شخصا رقيق الحس، لا يحدثك إلا همسا، ولكنه يقول كلاما كثيرا في هذا الحديث. ومولاي علي قبل هذا كله أديب،

شاعر، مبدع. من أجل هذا نلتقي معه في هذه الجلسة.

نحن جميعا قرأنا له كثيرا أو قليلا من شعره المبثوث في الدواوين والصحف والمجلات؛ ووجدنا أن هذا الشعر يعكس كل تلكم الجوانب التي تحدثت عنها، والتي كيفت شخصيته ووجهت قدراته الإبداعية. ولا شك أننا نتذكر من قراءتنا لشعره أنه ذلكم الشعر الرصين السليم الذي يدل على تمكن صاحبه من أداة التعبير، ويدل كذلك على تجربة غنية وعميقة.

وإذا كان شاعرنا يلتقي مع غيره من الشعراء في هذه الخصائص والمميزات أو في بعضها، فإننا نلاحظ في شعره غنائية خاصة نستشفها من كلماته وصوره وإيقاعاته، ومما تكشف عنه تعابيره وما تخفيه كذلك. إلا أن مولاي علي سوف يتجاوز المسير، ويتعدى مجال الأقران والزملاء، بما سيتفرد به عن غيره. ولعل هذا الذي يتفرد به هو الذي جعل منه شاعرا متميزا نجتمع اليوم ونتحلق حوله، وهو الذي جعل منه الشاعر الذي يفوز بهذه الجائزة التي نعتز جميعا بأن ينالها أحد شعرائنا الكبار.

لقد تميز شاعرنا بميزتين اثنتين: تميز أولا بأن طرق بابا صعبا في التعبير، وهو هذا الشعر الذي نسميه شعر الطفولة. هذا باب غير يسير في الكتابة الأدبية عموما، فكيف إذا كانت هذه الكتابة شعرا.

تسنى لمولاي علي – وهو يعنى بشعر الأطفال – أن يساهم في تطوير القصيدة العربية، من خلال ذلكم النمط الذي نعرفه جميعا، وهو النشيد. والنشيد شكل معهود منذ أول القرن بالنسبة للمغاربة، قال فيه شعراء كثيرون، ولكن شاعرنا سيطوع هذا القالب من التعبير الشعري ليجعله في المتناول، أي ليجعله طوع مختلف الموضوعات التي يريد أن يبلغها. كان النشيد في بداية أمره وأيام الحماية وسيلة لنقل المبادئ الوطنية والأفكار الجديدة، وللإشادة بالمغرب ونضاله لاسترجاع الاستقلال. ذلكم ما نجده عند مولاي علي الذي وسع إطار النشيد ليستوعب مختلف الأغراض وشتى

الموضوعات؛ وزاد فأعطى لشكل هذا النشيد بعض الخصائص التي يمكن اعتبارها في عداد ما يمكن أن يسمى تجديدا بالنسبة للأدب المغربي؛ لأننا لا نرى التجديد فحسب في أن يقول الشاعر مالم يقله غيره، أو أن يسبق إلى مالم يطرقه الآخرون؛ ولكن أن يأتي مبدع إلى ماهو معروف عند الناس ويحاول أن ينسيه ويغنيه، كما فعل شاعرنا بالنسبة للنشيد، فهذا لا يمكن إلا أن يعتبر نوعا من التجديد يسجل للشعراء المغاربة في عدة مجالات.

هذا أمر أول، والأمر الثاني هو أن مولاي علي الصقلي - وهو كما قلنا ذلكم الشاعر الغنائي الغارق في غنائيته - سيحاول أن يتخطى هذه العتبة، فيغامر بالدخول إلى ميدان صعب كذلك، هو ميدان الشعر الدرامي؛ ولعله وجد متنفسه فيه؛ دليلنا على ذلك هذه المسرحيات الشعرية الكثيرة التي أنتجها.

وليس يخفى على أحد أن الشعر المسرحي عسير المنال، ليس بالنسبة للشعراء المغاربة فقط، ولكن كذلك بالنسبة للشعراء العرب عموما، وحتى بالنسبة لغيرهم. ومع ذلك فمولاي علي الصقلي يقتحم هذا المجال ويدخله من زاويته المعقدة المتمثلة في الشعر المسرحي التاريخي، هذا الشعر الذي يضيق خناق الشاعر بأحداثه الجاهزة، وبشخوصه المفروضة والمدونة في التاريخ، وليس سهلا عليه أن يتحرر منها.

ومن الإنصاف لشاعرنا أن نشهد له بأنه في هذه التجربة أنتج وأعطى ووفق إلى حد كبير. ونحن حينما نتتبع هذه المسرحيات الشعرية التي كتبها، نحس بقدم الشاعر تزيد رسوخا في كل مرة، ونشعر به يتغلب على مختلف الصعوبات، وهي صعوبات كثيرة يواجهها الشاعر الذي يريد أن يكتب المسرحية. ومن عجيب أنه حتى في هذا النطاق الدرامي فإن الصقلي يظل غنائيا، أو يمزج بين الغنائية وبين الدرامية. ولعل ذلك ما يعطي له ولشعره بعض الخصائص والمميزات.

لعلكم تستغربون أن نجتمع بالشاعر ثم نتحدث نحن عنه، ونحاول أن نحلل شعره وننظر في تجربته. ربما من الأجدى أن نستمع إليه، وأن يحدثنا هو عن إبداعه وعمليته وكيف تتم، وقبل ذلك أن يقرأ شعره لنتلقاه منه. إننا حينما نقرأ الشعر، أو حين نستمع إلى الشاعر - أي شاعر - فإننا نريد أن نتعامل مع الشعر نفسه، لأن الذي يهمنا هو هذا الشعر؛ وما عدا ذلك فهو تحليل واجتهاد وتفسير وتأويل ومحاولة لفتح آفاق الفهم أمام المتلقين. لهذا نحن حين نقرأ الدواوين، لا نتوقع أن نجد فيها مقدمات يشرح فيها الشعراء تجاربهم ودوافعهم إلى القول. ومع ذلك، فحين تتاح الفرصة للالتقاء بالشاعر للإصغاء إليه، ولمناقشته، ولعرض مجموعة من الأسئلة عليه، ولمحاولة سبر أغوار تجربته، فإننا نهتبل الفرصة؛ لأننا حين نقرأ الشعر، سواء أكان مغربيا أم عربيا بصفة عامة، فإن أشياء كثيرة تظل خفية عنا لا يمكن أن يكشفها إلا الشاعر نفسه.

لهذا، فإن حظنا اليوم سعيد، إذ نلتقي في هذه الجلسة مع مولاي علي الصقلي، ونحن قد قرأنا كثيرا أو قليلا من إنتاجه. وسنستمع كذلك إلى بعض الدراسات العلمية والعروض النقدية التي هيأها السادة الأساتذة المشاركون. وعلى الرغم من ذلك، يبقى استماعنا للشاعر وقراءته لشعره وإجابته عن بعض الأسئلة التي قد توجه إليه، يبقى كل ذلك مهما بالنسبة لمعرفة متعلقات تجربته وما وصل إليه أو ما يتطلع إليه في مجال الإبداع.

هذه كلمة قصيرة لم أقصد منها إلا أن تكون مدخلا للدراسات والعروض التي ستكون لاشك أكثر استيعابا وعمقا ودقة في تحليل شعر مولاي علي الصقلي.

وفي البداية أعطي الكلمة للزميل الكريم الأستاذ محمد زنيبر الذي سيقدم عرضا عن أحد جوانب شاعرنا؛ وأرى أمامه «أبطال الحجارة» تلكم الرواية الشعرية التي كتبها مولاي علي. وهذا مما يسجل له بمداد السبق

والفخر، إذ أن نشر كتاب أو ديوان في هذا الموضوع يكتسي أهمية قصوى، فكيف بنشر رواية شعرية عن هذه الانتفاضة التي لا يخفى ما لها من تأثير في مسيرة القضية الفلسطينية.؟

تكريم الدكتور محمد الكتاني

* * *

نص الكلمة التي ألقيت في الجلسة التكريمية التي نظمت للدكتور محمد الكتاني على هامش ندوة «البحث الأدبي الحديث في المغرب: التأصيل والتحديث» بكلية آداب مكناس.

وذلك صباح السبت 4 رجب 1414هـ الموافق 18 دسمبر 1993م، وكان الجراري قد ترأس هذه الجلسة.

بسم الله الرحمان الرحيم

السادة العمداء والقيدومون

سعادة الباشا

زملائي الأساتذة

حضرات السيدات والسادة

لا يخامرني وإياكم أدنى شك في أن للأدب والبحث فيه دورا ذا أهمية قصوى في الحياة، على عكس ما يتوهم الكثيرون. وهو اليوم يزيد قيمة ويعظم أثرا في سياق الوضع الراهن الذي نعيشه على صعيد الأمة العربية جمعاء، ونحن نرى - ليس الأدب وحده ولا الفكر وحده - ولكن نرى الثقافة في عمومها، بكل مكوناتها ومختلف مقتضياتها، وعلى كثرة مؤسساتها وتعدد أجهزتها، تعاني اندحارا إحباطيا يمس معطياتها العقلية ومقوماتها الإبداعية وقيمها السلوكية؛ وينتهي بها إلى التخلف عن رسالتها التنموية التطويرية، وقبل ذلك عن مسؤوليتها التنويرية التحريرية التي حملت مشعلها علي امتداد الرقعة الإنسانية وفي شتى حقبها المترامية.

من هنا، كانت سعادتي بهذه الندوة العلمية التي تنظمها شعبة اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في هذه الحاضرة الإسماعيلية، والتي تقيمها مخلصة فيها صادقة، همامة بها ساعية إلى لم ثلة من الباحثين المرموقين، قصد تناول موضوع البحث الأدبي الحديث، وتدارس قضية ملحة فيه ترتبط بمدى تأصيله والتحديث.

وإن شعوري بهذه السعادة ليكبر أضعافا والندوة تخصص حيزا بارزا منها لتكريم أحد الذين أغنوا هذا البحث، وساهموا بأعمالهم وشتى ممارساتهم العلمية في بلورة هذه القضية وإيجاد حل لمعادلتها المستعصية.

وإني بعد أن أقدم للإخوة الأعزاء أساتذة شعبة اللغة العربية وآدابها، وجميع الناهضين بالكلية - قيدوما ومدرسين وإداريين - باقة شكر جزيل، مفعمة بأريج التهنئة والتنويه والتبجيل، أن وفقوا لعقد هذا الملتقى الجليل، لأود أن أهدي المحتفى به نشر هذه الباقة الفواح تطييبا وتعطيرا، عبر كلمة آمل أن تكون - على اختصارها - مسعفة في الإعراب عن المشاعر التي أكنها له محبة وإعزازا وتقديرا. وإني لأرجو من حضراتكم أن تأذنوا لي في أن أفضي إليه بهذه الأحاسيس في خطاب مباشر، لعلي بهذا الخطاب أن أكون معه على اتصال لا نرى نعدل عنه باختيار إلى الانفصال.

أخي الكريم السي محمد

لن نحتاج - أنا وأنت - إلى نبش في الذاكرة عميق، لنستحضر أن لقاءنا لأول مرة كان عام ستة وستين وتسعمائة وألف، وفي مستهل شهر أكتوبر على وجه التدقيق؛ وأنه تم في رحاب كلية الآداب بفاس، حيث تم تعييننا معا للتدريس.

كان أول عمل قمنا به هو إجراء امتحانات الدورة الثانية التي كانت العادة تقضي أن تنظم في هذا الشهر.

وبمجرد الانتهاء منها عدت إلى الرباط، فسألني والدي - طيب الله ثراه - عن جو الكلية وظروفها والزملاء. وأذكر جيدا أني ماكدت أنطق باسمك حتى أبدى ابتسامة انشراح، أحسست وكأنه يعرب بها عن اطمئنانه علي في عملي الجديد وما يغمره من ارتياح. ثم لم يلبث أن أخبرني بأنك كنت منخرطا في سلك التعليم بمدارس البنات المسلمات التي كان يشرف عليها قبل أزمة سنة ثلاث وخمسين، بصفته مفتشا للتعليم العربي في

المغرب.

ولا أكتمك أني أخذني إذ ذاك استغراب خفي من أن تكون مدرسا في أوائل الخمسين، وأنت لم تراهق يومئذ طور الشباب الأول الطري؛ لاسيما وأنه لم يكن يقبل في التدريس بتلك المؤسسات إلا بمباراة كانت تنظم برعاية القصر الملكي، لم يكن يجتازها إلا من كان ذا كفاءة تربوية ومستوى علمي متين.

ولكن سرعان ما زال ما كان بي من استغراب، بعد أن أثنى عليك - رحمه الله - بإطناب، مشيدا بعصاميتك وجدك واجتهادك، ومنوها بإخلاصك وضبطك ونظامك، وحامدا لك التوفيق الذي كان يحالفك على صغر سنك، والصمود الذي كنت - أنت ومن في وضعك من الشباب الناهض - تواجهون به ظرف تلك الفترة الحالك، وقد أغلقت دونكم الأبواب وانسدت المسالك.

زميلي العزيز

قد لا يكون المجال فسيحا لاستدعاء كل ماهو من هذه الذكريات مختزن مجموع، وحسبي أن أنطلق منها لأسر إليك، بصوت مرتفع مسموع، أن تلك الصفات التي قدمك بها الوالد كانت تبدو لي فيك، على امتداد سنوات عشرتنا الطويلة، تتأكد وتظهر، بل كانت تنمو وتزيد وتتعمق وتتجذر.

ولم لا تكون كذلك، وأنت - لكريم محتدى وشريف أرومتك، ولاقتدائك بالأماجد من أسلافك - جدير بالفضل حقيق، وحري بالمحامد خليق؟ تحفزك همة تتعلق بنيل المعالي والمفاخر، وإدراك المساعي والمآثر، فتسمو إليها ببسوق وارتقاء، وتتسور ذراها في سموق واعتلاء.

لقد بدأت تعلمك في المدارس الحرة العربية، ثم درست في الجامعة العريقة القروية، لتكمل بعد ذلك بقية مراحل تكوينك بجامعة محمد الخامس العصرية. وعملت معلما ومربيا، فتخرجت بك وعلى يديك أفواج من المتعلمين

وأجيال من الشبان المستنيرين؛ نالوا حظا من علمك وأدبك، وقسطا من منهجك وسلوكك، سواء منهم من اختلف إلى محاضراتك في الكلية، أو من درج عندك قبل ذلك في المدارس الابتدائية والثانوية.

كنت قوي الإيمان بهدفك، فلم تمل طول الطريق الموصل إلى إدراكه، ولم تضق بمتاعبه ومصاعبه، وعوائق مساره ومكامن عثاره؛ وتابعته في صدق وإخلاص وتقوى، وبعد عن الهوى والدعوى، فنلت ما لم ينله الكثير من أقرانك وأندادك؛ إذ حفزتك همتك العالية إلى الاستزادة من التعلم وطلب المعرفة، فصرفت لبلوغ مسعاك أقصى عنايتك وجهد استطاعتك، حتى سهل لك ما للآخرين تصعب وتوعر، وتهيأ لك ما لغيرك تمنع وتعذر.

علمت نفسك وتعلمت على غيرك، فكان ما أفدته من ذاتك أضعاف ما تلقيته عن أساتذتك، وتضلعت من الآداب والمعارف العربية الإسلامية، ووسعت مداركك بالاطلاع والبحث في مختلف الميادين العلمية، وكنت في ذلك قادرا علي الهضم والتمثل، ماسكا بزمام البلوغ والتوصل.

وهذه كتبك التي نشرتها شاهدة على علو كعبك في التأليف ورفعة شأنك، فقد أودعتها خلاصة علمك وزبدة فكرك، ولب بحثك وغاية تدقيقك. ولا أريد أن أتحدث عن المقررات المدرسية التي أنجزتها، على مالك بها من مساهمة كبيرة في الكتابة التعليمية التربوية، وعيا منك بأهميتها ونهوضا بمهمتها، فإن الوقت لن يتسع للنظر فيها. وهو لن يسمح كذلك بالوقوف عند منشوراتك العلمية الرصينة، بدءا من تحقيقك الضافي لكتاب «روضة التعريف بالحب الشريف» لابن الخطيب، إلى أطروحتك الوافية عن «الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث»، مع مزيد عنايتك بالدراسات الإسلامية، على نحو ما أصدرت عن «محمد إقبال مفكرا إسلاميا»، و«المسلمون وإشكالية الوحدة»، و«من المنظور الإسلامي». وهي كلها مجالات تنميها باستمرار في أحاديثك الإذاعية ومشاركتك في الندوات التلفزية.

لو شئت – أيها الصديق الحميم – أن ألخص ما أنت به متفرد في هذه الميادين وغيرها مما تضمه دائرة نشاطك المتنوع والمتعدد، لقلت إنك عالم بكل ما يقتضيه العلم من درس عميق ودقة متناهية، ولقلت كذلك بأنك أديب بجميع ما يشمله الأدب من منازع ذوقية إبداعية ومكارم خلقية سلوكية؛ ولأضفت إلى هذا وذاك أنك من القلائل الذين وفقوا إلى الجمع بين علمهم وعملهم. فمشاغل الإدارة التي توليتها نائب قيدوم كلية الآداب بفاس، وقيدوما مؤسسا لكلية تطوان، لم تحل دون متابعتك البحث والتأليف والمحاضرة، تهتم بها جميعا في غير إهمال أو إخلال، وبدون أي كلل ولا ملال؛ تحفل بالعلم تأخذ له أهبتك، وتعنى بعملك تحشد له عدتك؛ فجاء بذلك علمك عدل عملك، أو عملك عدل علمك.

وإذا كانت هذه المزايا التي أنعم الله بها عليك وبها حباك، تحتاج إلى شيء غير يسير من إفاضة القول، فلا أقل في الجانب الذي يرتبط بالبحث العلمي من أن أشير إلى أنك تتميز بالوقوف الطويل والمتأني على المصادر، وبقدرة الإفادة منها، في استكناه أسرار العلوم وأغوارها، واستخراج ما تروم منها إثارته وإثباته. تبحث وتنقب في دؤوب وصبر، وتبذل ما تطيقه من جد وجهد لتدرك مسعاك والقصد. تسلك إلى بلوغ مرادك أوضح محجة، وتدلي للإقناع برأيك أقوى حجة، ساعيا دائما إلى تقويم التحريفات ورد الترهات. تتمسك بكل تليد، وتوسع فكرك لكل جديد. وما ذاك إلا لأنك محافظ على القديم، شديد التحمس له وثيق الارتباط به، مع تفتح على مستحدثات المعارف والمناهج، تقتبس منها بوعي ونقد، وتمييز بين ما هو جيد أصيل، وما هو زائف دخيل. ما دار حديث بيننا إلا وجدتك مهموما بواقع المغرب والأمة العربية الإسلامية، في سياستها واقتصادها وفكرها وآدابها ومختلف متعلقات حياتها، مأخوذا بمسيس الحاجة إلى النهوض بها في خط التطور النافع، مدفوعا إلى البحث عن متطلبات التغيير وكيفية الخروج من هذا الواقع.

وإن ما حبرته من كتابات ليشهد لك بهذا التوجه الغيور، في الوقت الذي يدل على أهليتك لمتابعته، بما لك من ذهن ثاقب ونظر بعيد، وبما نلت من حظ وافر في العربية وعلومها والعقيدة وقضاياها، وبما تيسر لك من سهولة التناول ودقة المنهج ووضوح التعبير، هذا التعبير الذي يأتي عندك مرسلا نابعا من الطبع لا تكلف فيه ولا تعقيد، منقادا لك بأسلوب سلس مرهف سديد.

وإذا كنت قبل أسطر قد قلت إن علمك جاء عدل عملك، فإني أرجع إلى هذه القولة لأكملها، بأن عملك جاء عدل سلوكك. فإلى تبريزك في المعرفة وقدرتك على حسن تدبير الأمور الملقاة عليك، أضفت صفات نبيلة تحليك وشيما كريمة تعليك. فما عرفتك وعرفك غيري إلا عفيف الجنان، لطيف المزاج نزيه اللسان، وثيق الذمة وفيا للعهد مصافيا للخلان، في محيا طلق وقلب سمح وسريرة نقية، وفي فرط تواضع وسعة صدر ونفس أبية. تحسن الحديث والإصغاء والمعاملة، مثلما تحسن الدفاع والإقناع والمجادلة، في غيرة شديدة يزينها أدب غض، وفي استعداد للإقدام والإقبال، مع أناة وتثبت وتعقل، وبعد عن كل تهور أو ارتجال؛ ومع الميل إلى تأمل الوقائع والفكر، وسعي إلى استخراج الحكم والعبر. تثابر وتواكب، وتداوم وتواظب، تقوي همتك وتؤكد نيتك، وتنجز ما تتحمل من أعباء بمضاء حزم ونفاذ عزم، في ثقة بذاتك واعتداد بمؤهلاتك.

وبهذا التأم لك الأمر واستقام، واستتب في اتساق وانتظام، وغدالك كله سهل المرام. ذاع صيتك وانتشر علمك، واستفاضت شهرتك، فحظيت بطيب الذكر وحسن الأحدوثة وجميل الأثر، بين أساتذتك وزملائك وطلابك وجميع الذين عاشروك وعرفوك، وأحظاك مولانا أمير المؤمنين بعضوية أكاديمية المملكة المغربية، بعد أن أسعدك بعضوية المجلس العلمي لإقليم فاس، وشرفك باعتلاء كرسي الدروس الحسنية.

أيها الخل الحبيب

هذه خلاصة لسيرتك وفق ما أراها وأحياها معك بالعقل والقلب، أزفها إليك في يوم تكريمك، يغمرني كما يغمرك البهج والحبور، ويتملكني كما يتملكك الجذل والسرور. فلتتقبلها مني باغتباط واستبشار، مشفوعة برجائي أن تبلغ مسرتك وتنال مبرتك؛ ومقرونة بدعائي إلى العلي القدير أن يبقيك ميمون السعد حظي الجد، وأن يديم عليك سوابغ نعمه ومنن كرمه، وأن يجعلها لك موصولة السوابق باللواحق، موفورة الفوائد والعوائد، وأن يحفظك والأهل في عافية كاملة وسعادة شاملة، آمين آمين أعيدها مرات، وسلام الله عليكم ورحمته تعالى والبركات.

عبد الهادي بوطالب الأديب

* * *

عرض ألقي في الجلسة الدراسية للأعمال العلمية والفكرية والسياسية للأستاذ عبد الهادي بوطالب مساء الخميس 15 ذي القعدة 1411هـ 30 مايو 1991م بمنزل الأستاذ محمد عزيز الحبابي «ندوة تمارة»

بسم الله الرحمان الرحيم
سيدي مستشار صاحب الجلالة الأستاذ أحمد بن سودة
أخي الكبير، العزيز الأستاذ عبد الهادي بوطالب
أصحاب المعالي والسعادة
سيداتي سادتي

إن سعادتي لكبيرة بالمشاركة في هذه الجلسة التي تقام لتكريم صديق حميم تربطني به علائق محبة عميقة، بالإضافة إلى كونه علما بارزا من أعلام المغرب، بل علما فذا من أعلام بلاد العروبة والإسلام.

وقد أتيح لي أن أعرف الأستاذ سيدي عبد الهادي عبر كتاباته المختلفة وأحاديثه المتنوعة، ومن خلال نضاله السياسي الوطني وصدى المسؤوليات الحكومية الكبيرة التي تحملها في وزارات وسفارات وغيرها. ثم سعدت بتعرفه عن قرب، زميلا في أكاديمية المملكة المغربية وفي المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن.

من هذه الجوانب كلها تسنى لي أن أقترب من الأستاذ عبد الهادي بوطالب، وأن أرسم له في فكري شخصية متعددة السمات مكتملة الملامح. فهو العالم الباحث، والأستاذ المربي، والفقيه المتمكن، والسياسي الماهر، والمفكر المتعمق، والأديب المبدع. وهو في هذا كله ينطلق من ذهن جريء يتقد حيوية وذكاء، ومن ثقافة أصيلة متينة متفتحة على ثقافات جديدة، ومن سلاسة في التعبير وقدرة على إغنائه وتجميله بالتوريات وما إليها مما ينقاد

له، سواء حين يكتب أو يرتجل.

ولو شئت أن أختصر القول في وصفه لقلت إنه نابغة وعبقري وموهوب، يحتل مكان الطليعة بين نوابغ هذا البلد وعباقرته والموهوبين من أبنائه. فقد وقفت على كلمة أنشأها ارتجالا، وهو مازال تلميذا بمدرسة العدوة لا يتجاوز عمره الثانية عشرة. وهي كلمة لو أمكن لباحث اليوم أن يتأملها ويدرسها ليعرف منها كيف يكون كتابنا في طفولتهم، وكيف تظهر مواهبهم وتبرز قدراتهم لاستطاع أن يستخرج منها أشياء كثيرة.

كان ذلك بمناسبة زيارة والدي رحمه الله لهذه المدرسة عام خمسة وثلاثين وتسعمائة وألف؛ وهي الزيارة التي وصفها في رحلته «نزهة الاقتباس من خمسة أيام في فاس» لدا حديثه عن مدرسة العدوة ومديرها المرحوم محمد بن عبد الله وأستاذها السيد محمد بوطالب ونخبة من التلاميذ هم عبد الهادي بوطالب ومحمد اليمني ومحمد العراقي وعبد القادر ابن شقرون وعبد الوهاب بن منصور. ذلكم أنه بعد أن أثار مع هؤلاء الأطفال بعض متعلقات دروسهم، استمع من كل واحد منهم إلى كلمة تحية نثرية أو شعرية. وكان مما قاله التلميذ عبد الهادي: «هب النسيم وسرت في الأفق رائحة الطيب بقدوم الزائر الذي دب في أحشائه نصح النشء من صميم الفؤاد والذي صريمته القعساء في نجاح هؤلاء الأطفال». وهي كلمة تنم عما ستتفتق عنه موهبة سيتألق صاحبها في شتى مجالات الأدب، مما يتجلى في هذه الأنواع والأنماط:

1- أعماله الإبداعية، وسأعود إليها

2- مقالاته الصحافية، لاسيما تلكم التي كان ينشرها يوميا في جريدة «الرأي العام» تحت عنوان: «هذه سبيلي»؛ وقد جمع حلقات منها في كتاب يحمل نفس العنوان.

3- مذكراته التي مازال ينشرها مسلسلة في صحيفة «الشرق الأوسط».

4- كتاباته القانونية والسياسية.

5- محاضراته وأحاديثه المكتوبة والمرتجلة.

ولأن الوقت لا يتسع لتحليل كل هذه الجوانب، فسأكتفي في هذا العرض بإلقاء بعض الأضواء على أعماله الإبداعية، مقتصرا على فنين اثنين هما: الشعر والرواية.

وأبدأ بالشعر؛ وليسمح لي الأستاذ الكبير سيدي أحمد بن سودة أن أرجع إلى ما قال في كلمته القيمة حين اعتبر أن الأستاذ عبد الهادي بوطالب «كاد أن يكون شاعرا كبيرا». أستسمحه في أن لا أستعمل فعل المقاربة الدال على قرب وقوع الخبر، لأنه بالفعل شاعر.

ولن أنظر إليه أو أضعه في زمرة أولئك الذين ينتمون للمجال العلمي أو للوسط الطلابي في الجامعة القروية أو غيرها، وحين تحضر المناسبة يقولون قصيدة أو مقطوعة في مدح أو رثاء، أو يشاركون في مساجلة أو مطارحة؛ ذلكم كان طوع يد عدد من أقرانه ومعاصريه، حتى ممن لم يكونوا شعراء؛ ولكني أريد أن ألفت الانتباه إلى شاعريته كما تكشفها بعض الأنماط التي تدل بالفعل على كونه كان مبدعا.

وقد وفقت إلى أن أقف على بعض النصوص التي تبرز سبق الشاعر سيدي عبد الهادي بوطالب إلى بعض المجالات أو الموضوعات التي كانت يومئذ جديدة. وأكتفي بالإشارة إلى نصين اثنين:

الأول من الشعر الوطني. ونعرف أن هذا الغرض كان مطية الشعراء المتطلعين للتجديد. وقد ارتبط هذا النوع من الشعر ببعض المناسبات الوطنية، لاسيما بعيد العرش، إذ كان كبار الشعراء يتسارعون لإبراز موهبتهم وللتعبير عن قدرتهم الإبداعية، مازجين بين مدح جلالة الملك وبين الإعراب عن المبادئ الوطنية وما تتطلع إليه الأمة من حرية واستقلال.

في هذا الصدد، وقفت على قصيدة نشرت له سنة ثمان وأربعين

وتسعمائة وألف، في أول عدد من السلسلة التي كان يصدرها القصر الملكي العامر، متضمنة مختارات من القصائد التي تقال في ذكرى عيد العرش.

حين أتأمل هذه القصيدة، أجد الأستاذ عبد الهادي بوطالب يمثل نموذج الشاعر الذي يخوض غمار التعبير الوطني، في ذلكم المزج الدقيق بين ماهو مدح وماهو تعبير عن المدلول الوطني. وهنا تكمن عبقرية الشاعر، إذ يقدم شعرا هو في الظاهر شبيه بما كان يلقى في المناسبات التقليدية المعروفة، لكنه في العمق ينطلق من نظر جديد يتحفز فيه من المناسبة وما تقتضيه من مدح، ليحلق في أجواء المعاني الوطنية، ويرتبط بالأمة وبالأفكار والعواطف التي كانت تهز الناس وتحرك مشاعرهم. وذلكم هو ما يميز الشعر الوطني، بكل ما في هذا الوصف من مدلول، وفي نطاق المفهوم الذي كان متداولا - وما زال - للوطنية. وبينه وبين أن يكون شعر مناسبات تقليدي يثار عنصر الصدق وما يتولد عنه من جدة في التعبير. وللصدق ظروف تتدخل فيه عامة وخاصة، لتثير قضية التوفيق بين التجربة والتعبير، وأثر التجربة في المتلقين.

ولننظر قليلا في هذه القصيدة. فقد تحدث فيها عن عيد العرش باعتباره عيد القلوب وعيد الحب وعيد الوفاء. وهذا يدخل في المعاني الجديدة التي لم يكن يألفها شعراؤنا من قبل، لأنهم كانوا حين يمدحون يلجأون إلى المعاني المطروقة. لكن أن تربط المناسبة بالقلوب وبمشاعر الحب والوفاء، فذلكم مما لم يكن معهودا:

كل عام تختال للعرش ذكرى　　　تخذتها القلوب عيدا أغرا
كل عام يردد الشعب ألحا　　　ن سرور تفيض حبا وشكرا
وتهيم القلوب بالعرش حبا　　　فتصوغ الوفاء والحب شعرا

ثم تحدث عن صاحب المناسبة جلالة المغفور له محمد الخامس، رابطا مدحه بالمعاني الوطنية التي كان الشعب مشبعا بها، وكان هو في طليعة

المناضلين من أجلها. فهو يخاطبه بمثل هذه الأبيات:

يامليك البلاد حق لك الزهـو بعرش أولاك منه المقرا
جاءك الشعب يرتضيك مليكا وإماما يعد للفوز ذخرا
بايع الشعب فيك منقذ جيل وأبا مشفقا عطوفا أبرا
فتحملت عبء ملك جليل لم تضق فيه بالمصاعب صدرا
ولكم صنت حق شعب مهيض راجيا أن تعيد للكسر جبرا
وقضيت السنين تحمي حماه وتزودت للمكاره صبرا
وتسلحت بالعقيدة مارا عك بأس ولا تأخرت ذعرا
وأشعت الضياء في حالك اللـيل ولكن سيعقب الليل فجرا
ليس عسر يدوم إن هب شعب لدفاع لن يغلب العسر يسرا
شعبك الحر ذو الكرامة يأبى أن يسام الخنوع والذل قسرا

إذن، هناك معان جديدة مرتبطة بهذا الجو المفعم بالروح الوطنية. ولعله واضح أن القصيدة - كما يقال - عمودية أو تقليدية؛ ونحن في مرحلة لا يتحدث الناس إلا عن هذا النوع من الشعر، ومع ذلك فوزنها خفيف، وهي لا تخلو من شفافية ورشاقة، رغم بعض الفخامة التي تظهر من ألفاظها، مما يدخلها في الشعر المحبب إلى القلوب أن تستمع إليه، وأن تستلذه وتطرب له.

أما النص الثاني الذي أريد أن ألفت النظر إليه، ومن خلاله إلى شاعرية الرجل، فهو يختلف اختلافا تاما عن الأول، إذ يمثل قصيدة خاصة، تجعل الشاعر عبد الهادي بوطالب أو تجعل منه الشاعر الذي وضع رجله في خط التجديد. من هنا أقول إنه بالفعل شاعر، ولا أقول إنه كاد يكون شاعرا.

هذه القصيدة عنوانها: «أنات طفل»، وكانت قد نشرت في مجلة «الثريا» بتونس عام ستة وأربعين وتسعمائة وألف. وهي قصيدة ذاتية تعتمد على التأمل، وتسير في هذا التأمل سيرا بعيدا يربط الشاعر بمدرسة

المهجر، لاسيما بالمهجر الشمالي، وخاصة أصحاب الرابطة القلمية أمثال جبران، وإيليا أبي ماضي، وأمين الريحاني وميخائيل نعيمة. وشاركهم في نزعتهم التأملية هذه بعض شعراء الجنوب كفوزي المعلوف. هؤلاء جميعا كانوا يستبطنون الذات، ويسبرون أغوار النفس الإنسانية، ويصورونها بدقة، ويتحدثون عن الوجود، ويفلسفون الحياة، ويطرحون مشكلتهما، ويبحثون عن المجهول، في سعي إلى السمو والتحليق بالخيال الجامح؛ وربما غلب عليهم أو على بعضهم روح التشاؤم.

ذلكم ما نجده سمة بارزة لهذه القصيدة المتفردة في وقتها. والحقيقة أننا في مرحلة كان قد بدأ شعراؤنا الذين اتجهوا للتجديد ينشئون قصائد متطورة، سواء على مستوى الشكل أو المضمون.

ويلفت الشكل نظر قارئ القصيدة التي جاءت على الخفيف، مع تشكيل إيقاعي جديد. فهي متكونة من مقاطع خماسية شبيهة بتقسيم الموشح والمخمس، تتفق وزنا وتختلف قافية، لا يربط بينها إلا قافية الشطر الخامس، فقد جاءت موحدة في كل القصيدة. وهذا ما جعلها كالنشيد الذي تنتهي مقاطعه بلازمة. وهو من التنويع الذي حاوله شعراء التجديد في أپولو والمهجر، وعرفه شعراء المغرب العربي كأبي القاسم الشابي، وعبد الكريم بن ثابت، وعبد المجيد بن جلون.

تبدأ قصيدة أبي طالب بتساؤل الطفل عن مقامه الجديد بعد أن خرج إلى الدنيا كيف سيكون، ويقارن بين وجوده في بطن أمه يستشف الضياء ويحلم ويغني، وبين خروجه يبكي حتى تقرحت عيناه. ويخاطب المهد الذي كان قبل خليا كي يترك هذا الشقي نائحا يطلب الفناء، ثم يتوجه بالخطاب إلى أمه لتتخلى عن حنانه ولا تضمه، ولتتركه لأناته وأحزانه ونكباته. وعنده أن الحياة سجن، وأن الثدي حيلة لأسر الطفل، وأن القماط قيد يمنعه أن يطير. ويعود إلى مخاطبة أمه فيستفسرها عن سر بكائه لترثي له، ويتحدث

عن غربته وعجزه. وعنده كذلك أن الوجود قبيح، وأنه هو مثله عاجز أبكم.

وتبدأ القصيدة بقوله:

آه هل في الوجود صار مقامي؟ هل ستحلو في جوه أحلامي؟
أم ستبقى أشباحه مرعبات ماثلات على الدوام أمامي
ناظرات بأعين غادرات؟

ويلخص الشاعر رأيه في هذا المقطع:

أي شيء في ذا الوجود جميل كله فتنة وهم طويل
وضجيج وحسرة وأنين وشقاء ومحنة لا تزول
وخداع بأسخف الترهات؟

ثم يختم علي هذا النحو:

أنا لا أستطيع تفسير مابي ليت لي قدرة لشرح مصابي
أنا في مسرح الوجود غريب رازح فيه تحت نير عذابي
مثقل بالهموم والحسرات

سوف أبقى ولو غدوت كبيرا عاجزا لا أرى له تفسيرا
كل من بالوجود أبكم مثلي ليس فيه من يحسن التعبير
رغم تعداد مابه من لغات

ولعل السر في هذه النزعة التأملية التشاؤمية راجع إلى كون الظرف يومئذ ظرف استعمار، وإلى ماكان يقاسيه الشباب ويعانيه أبناء الوطن تحت نير هذا الاستعمار. ربما كان ذلك سببا في هذا المنحى الشعري الذي سار فيه أبو طالب؛ ويوم يتحدث هو عن شعره وإبداعه فإنه سيشرح لنا لاشك بعض هذه الغوامض.

هذا هو الجانب الأول، ويتعلق بالشعر. أما الجانب الثاني، فلا أتردد في أن أصفه بالريادة فيه؛ إنه جانب كتابة الرواية التاريخية. الأستاذ عبد الهادي بوطالب نشر عملا روائيا سنة خمسين وتسعمائة وألف، وكان يومئذ

في القاهرة، في سياق رحلة سياسية لبعض بلدان المشرق، فانتهز وجوده في العاصمة المصرية، وتردد على المكتبات، ولا سيما دار الكتب المصرية، وعمق ثقافته في تاريخ العرب والمسلمين، خاصة ما يتعلق بالأندلس والمغرب، وخرج بهذه الفكرة، أن يكتب عن ذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب؛ ولكن لا أن يكتب عنه بحثا تاريخيا أو مقالة أو مؤلفا عاديا، وإنما أن يكتب رواية. وهو سماها قصة تاريخية، وأستسمحه في أن أختلف معه؛ إنها رواية. لعل أمر التسمية أو قضية المصطلح لم تكن واضحة أو ذات أهمية في تلكم المرحلة.

هذه الرواية تحكي قصة ابن الخطيب في عدد من الفصول يصل إلى عشرين بل تسعة عشر فصلا. وهذه الفصول تتحدث عن ابن الخطيب في الأندلس والمغرب، وتستعرض أحداث الدولة المرينية ودولة بني نصر، والمآسي التي عرفتها الدولتان سواء في المغرب أو الأندلس، وكذلك المآسي التي عرفها بطل الرواية والتي أفضت به إلى أن يحبس وإلى أن يقتل مخنوقا في سجنه.

الشخصية مغرية، والإطار تاريخي ومغر كذلك، وإمكانات الإبداع متوافرة لدا الرجل، فليكتب إذن هذه الرواية. وكتبها تبدأ على لسان عجوز في غرناطة تحكي لأطفالها تاريخ الأندلس منذ الفتح. ويظهر الملك أبو الحجاج يوسف في قصر الحمراء وحاجبه رضوان ووزيره ابن الجياب وقائد جنده ابن ثابت وشاعره ابن الخطيب. وينتصر الإسبان وينهزم المغاربة والأندلسيون في جزيرة طريف، ويستشهد والد ابن الخطيب وأخوه فيقول مرثية. ثم يموت ابن الجياب ويتولى ابن الخطيب الكتابة والوزارة ويرحل إلى المغرب ويتصل بأبي عنان. ولدا أبي عنان سيعين سفيرا، وكان قد أعجب به بسبب رسالة كتبها على لسان أبى الحجاج، وتمنى لو كان صاحبها في خدمته. ويخرج أبو الحجاج رسميا لصلاة العيد، إلا أنه يغتال في الصلاة، فيتحدث الكاتب عن موكبه للعيد وحمله مقتولا على الأعناق. ويعينه محمد

الغني بالله سفيرا له لدا أبي عنان لتحسين العلاقات. ويصور الكاتب ماكان يعتمل في نفس ابن الخطيب نتيجة هذا الوضع وماكان يختلج من ذكريات وتأملات. ويستولي إسماعيل على الحكم، ويفر الغني بالله، ويغتال رضوان الحاجب، ويبقى ابن الخطيب في موقف متذبذب بين الوفاء والانقياد للوضع الجديد، والمسألة مسألة ثقة. ويسجن لسان الدين ويتعرض أبو عنان والمغرب لأحداث، فيتولى ابنه أبو بكر، ويستولى أبو سالم على الأمر، ويتدخل لدا إسماعيل لإطلاق سراح ابن الخطيب. وتقوم ثورة ضد إسماعيل، ويعود محمد الغني بالله وكذلك ابن الخطيب الذي ركبه الغرور والكبرياء والميل إلى الاستبداد. ويفر لسان الدين إلى المغرب بعد أن اتهم بالزندقة والتآمر على الدولة بما حاك له ابن زمرك وأبو الحسن النباهي، ويتولى أحمد بن أبي سالم فيقبل تسليم ابن الخطيب لمحمد الغني بالله. وبعد أن أطلق سراحه وكان ينوي العودة، يدخل السجن بالمدينة البيضاء حيث يخنق.

وقد جاءت الرواية غنية في الجانبين التاريخي والأدبي، بما تضمنته من معلومات تاريخية دقيقة ونصوص شعرية كثيرة، مما جعل هذه العناصر تطغى على الجانب الفني التقني وتوجهه وتتحكم فيه. وقد ترتب علي ذلك ميل عند الكاتب إلى الوصف، وكذا سعيه إلى التدخل لإبداء الرأي واستخلاص العبرة، في صيغة تعليمية تأملية لا تخلو من تشاؤم.

ويبدو الكاتب متفقا مع جل هذه الملاحظات في إحدى حلقات مذكراته التي ينشر بجريدة «الشرق الأوسط» حيث ذكر أن الكتاب جاء في شكل قصة تستعرض حياة الوزير الكاتب ابن الخطيب، وتعتمد على الوقائع التاريخية أكثر مما تعتمد على الأخيلة الإبداعية، في صورة فصل من تاريخ السياسة العربية المغربية في القرن الثامن الهجري. وقال كذلك إنه كان مشدودا في مطالعاته المتنوعة إلى سلسلة قصص جورجي زيدان التي كانت تصدرها تباعا دار الهلال المصرية، وأنه كان بها شغوفا. لكنه كان يأخذ عليها جنوح كاتبها إلى إطلاق عنان الخيال على حساب تمحيص الأحداث

وإخضاعها لوقائع تاريخها. ومن ثم صمم هو العزم على إصدار سلسلة قصص تتلافى ما كان يعيبه على حلقات زيدان، وكانت البداية بابن الخطيب.

هذه كلها جوانب يمكن أن نطيل النقاش فيها، ولكن الذي يهمني هو أننا كنا في تلكم الفترة مازلنا لا نعرف الرواية. بل إن القصة كانت ما تزال في بدايتها. نعم، كانت هناك بعض المحاولات القصصية في سنوات الثلاثين وفي بداية الأربعين، وكانت هناك كذلك بعض القصص المترجمة وبعض الذين يجربون الكتابة في هذا الفن الجديد، ولكن الرواية باعتبارها عملا كبيرا ومتكاملا تتداخل فيه أحداث متعددة ومتشابكة تنمو وتتطور في ديمومة ودلالة تنبثق منها جميعا ليخرج العمل في قالب فني مضبوط؛ ذلكم لم يكن معهودا يومئذ. نحن الآن ألفنا كتابة الرواية، ومعنا في هذه الجلسة كاتبان ممتازان من المتمرسين بهذا الفن في المغرب، الأستاذ عبد الكريم غلاب والأستاذ ربيع مبارك، ولكننا في عام خمسين لم نكن نعرف هذا النوع من التأليف الأدبي الذي دخله الأستاذ عبد الهادي بوطالب واقتحم ميدانه ببراعة وإبداع.

هذه بعض الملامح التي تميز أدب الأستاذ عبد الهادي بوطالب، وتبرزه، ليس أديبا عاديا، ولكن أديبا ينظر إلى آفاق التجديد، ويوظف كل تلكم القدرات التي ذكرت في البداية أنه يتمتع بها؛ وكان في ذلك موفقا أحسن التوفيق.

وإني لأغتنم هذه المناسبة التكريمية للفت الانتباه إلى ضرورة جمع الإنتاج الأدبي للصديق بوطالب، لأني وجدت بعض الصعوبة في الوقوف على النماذج التي سقت منه؛ وأغتنمها بصفة خاصة لأقول للأستاذ عبد الهادي ولمنظمي هذه الندوة، أن الحاجة ماسة أن تتم العناية بجمع هذا الشعر وبجميع الأعمال الأخرى التي لاشك أنه أبدعها ولم ينشرها، لأنه

تحدث في مذكراته عن رواية ثانية أو عن قصة تناول فيها ابن خلدون. ما أحوجنا إلى أن نعرف هذه الأعمال، باعتبارها أعمالا مبكرة رائدة، وباعتبارها أعمالا شقت الطريق للآخرين، وباعتبارها قبل هذا وبعد أعمالا جيدة في مستوى إبداع راق ورائع.

وشكرا لكم

والسلام عليكم ورحمة الله.

المقالة السياسية في كتابة
عبد الهادي بوطالب

(من خلال سلسلة : هذه سبيلي)

* * *

عرض قدم للندوة التي عقدتها منظمة الإيسيسكو في مقرها بالرباط تكريما لمديرها السابق الأستاذ عبد الهادي بوطالب يوم الثلاثاء 2 ذي القعدة 1412 هـ 5 مايو 1992م.

بسم الله الرحمان الرحيم
الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه

* أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة
* أخي الكبير الجدير بكل تقدير وحفاوة
* سيادة المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة
* زملاءنا الكرام الأساتذة
* حضرات السيدات والسادة

لا شيء يحث علي الشعور بالابتهاج والانشراح، ويدعو إلى الإحساس بالسعادة والاعتزاز، أكثر من الالتئام في ندوة كهاته التي تعقدها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) والتي يلتقي فيها ممثلو الأمة الإسلامية مسؤولين ومفكرين، لتكريم أحد أعلامها البارزين كان له فضل إدارة هذه المنظمة علي مدى من السنين لم يكن من السهل تحمل المسؤولية فيها، وهي في طور النشأة والتكوين.

وها قد مرت عشرة أعوام منذ أن وقع التأسيس، وكأني بالأيام تمضي سراعا، ملاحقة ما يتعاقب فيها وعليها من أحداث، ولكنها في مسيرتها أبقت ماكثا في الأرض ماهو نافع للناس من بذر خصيب معطاء وغرس مثمر يانع.

وإذا كانت محاور هذه الندوة فد حاولت استيعاب أهم الجوانب التي برز فيها الأستاذ الكبير سيدي عبد الهادي بوطالب، فإني لا أخفيكم الحيرة

التي أشعر بها تنتابني، لرغبتي الملحة في أن أتناولها كلها أو معظمها، لما تسنى لي أن ألمسه من غناها جميعا وأنا أتتبع حياته الحافلة - مدها الله - وأراه بما قدم ويقدم فيها علما شامخا متميز الشخصية والإنتاج.

وإذ يتعذر علي هذا التناول الشامل لضيق الحيز الذي تتيحه الندوة، فسوف أقتصر على جانب يتصل بالمحور الخاص باهتماماته الصحافية والأدبية، مركزا فيه على المقالة السياسية، التي كان أحد كتابها اللامعين.

والحق أن معاليه كان مهيئا للتميز في كتابتها بما توافر له من مؤهلات ذاتية، زادها ما اكتسبه منذ شبابه الأول من كفاية علمية وعزيمة قوية وقدرة على العمل والإبداع فيه. وكيف وهو في طليعة خريجي جامعة القرويين، وأحد القلائل الذين أضافوا إلى تكوينهم الأصيل المتين ثقافة جديدة تفتحوا بها وما فتئوا يتفتحون على العصر ومستجداته التي لا تحد ولا تتوقف؟

ومن هذا المرتكز الذي كشف نبهه ونباهته ونبوغه وعبقريته، انطلق للخوض في ميادين نمت مداركه وصقلت مواهبه وحنكت فكره وحياته بالعديد من التجارب والخبرات، بدءا من التدريس إلى الكفاح الوطني فالمسؤوليات الكبري التي حمل أمانتها ومازال.

وكانت الكتابة - بفنونها الشعرية والنثرية - إحدى الأدوات التي توسل بها في شتى المجالات التي تؤطر نشاطه والتي تعتبر خدمة المغرب والإسلام هجيراه فيها على الدوام.

وإذا كنت في عرض ألقيته في مناسبة سابقة قد تناولت الجانب الأدبي في إنتاجه من خلال إبداعه في الشعر والرواية، فإني في الحديث الذي أشرف وأسعد بالمشاركة به في هذه الندوة، سألقي بعض الضوء على ما كان يحرره من مقالات سياسية بوأته مكانا مرموقا بين كتاب هذا الجنس من التعبير.

* * *

إن الكتابة من حيث هي - سواء أكانت شعرا أم نثرا - لا تعدو في حال صدقها وتلقائيتها أن تكون تعبيرا عن تجربة يعانيها الكاتب، لا فرق فيها بين أن تكون تجربة فردية تكشف عن كوامن النفس وأعماق الضمير فتتجه نحو التعبير الذاتي الخاص الذي قد تطغى عليه غنائية جميلة ممتعة، أو أن تكون تجربة جماعية تبرز مشاعر مشتركة نابعة من معاناة واسعة تفضي إلى إعراب جمعي عام قد لا يخلو من صراع تكتنفه الآلام والآمال.

وتعتبر المقالة أكثر الأنماط النثرية التي بلورت هذا السياق لانضباطها بموضوع معين وهادف، سواء أكانت تقصد إلى التناول المعرفي أو التأمل الفكري أو الاستنباط الشعوري والحث في كل ذلك على التجاوب.

وعلى الرغم من أن المقالة لا تبتعد كثيرا عن الخاطرة والرسالة، وهما شكلان معروفان في النثر الفني العربي منذ القديم، إلا أنها تمثل جنسا أدبيا طارئا ارتبط ظهوره بعصر النهضة وما واكبها من إصلاح وسعي للتحرر من الاستعمار، على ما عرفته هذه النهضة من تباعد زمني بين المشرق والمغرب؛ وكان للصحافة أكبر الأثر على إذاعته وانتشاره وإقبال القراء عليه، وكذا على استقطاب مختلف الأقلام وإغرائها بالكتابة فيه.

وإلى جانب الجرائد الرسمية التي كانت تصدر عن الإدارة الفرنسية في عهد الحماية وأهمها «السعادة»، فقد عرفت الصحافة الوطنية نموا كبيرا تمثل في العدد الكبير من الجرائد والمجلات التي كانت تخرجها الهيئات السياسية وكذا بعض الأفراد، والتي كانت كثيرا ما تتعرض للرقابة الاستعمارية إن لم تضطرها هذه الرقابة للتوقف أو يلجئها إليه ضعف الموارد المالية.

وإنه لتكفيني الإشارة في هذا العرض الموجز إلى مجلة «المغرب» التي أصدرها صالح ميسة عام 1932 وإلى جريدة «الأطلس» التي ظهرت بها الكتلة سنة 1937 وجريدة «المغرب» التي أخرجها سعيد حجي في نفس هذه

السنة، وإلى جريدة «العلم» التي كانت لسان حزب الاستقلال بدءا من 1945 وكذا مجلة «رسالة المغرب» التي كان يخرجها هذا الحزب منذ 1947، ثم جريدة «الرأي العام» التي كانت ناطقة باسم حزب الشورى والاستقالا وكان ظهورها في نفس العام. ولعلنا ألا نغفل ذكر الصحف الوطنية التي كانت تصدر باللغة الأجنبية وأولها جريدة «عمل الشعب» l'action du peuple التي صدرت عام 1933، وكان يشرف عليها ويحرر افتتاحيتها والكثير من مقالاتها محمد بن الحسن الوزاني.

كان هذا في المنطقة الجنوبية التي كانت تحت نفوذ الحماية الفرنسية، أما في الشمال حيث كانت تبسط الدولة الإسبانية إدارتها فكانت الجرائد والمجلات كثيرة، أقتصر في ذكرها على جريدتي «الحياة» و«الحرية» اللتين أصدرهما حزب الإصلاح تباعا عامي 1934 و1937. وفي هذه السنة الأخيرة أخذ حزب الوحدة في نشر صحيفة الوحدة المغربية. وعلى هذا النحو كان تأسيس محمد داود لمجلة «السلام» سنة 1933، ومثلها مجلة «المغرب الجديد» التي كان يتولاها محمد المكي الناصري ابتداء من 1935، ومجلة «الأنوار» التي كان أخذ أحمد المدينة في إصدارها سنة 1946، ومجلة «المعرفة» التي كان يشرف عليها حسن المصمودي سنة بعد هذا التاريخ.

وقد عرفت الصحافة في ظل الاستقلال ازدهارا منقطع النظير، ظهر بسببه عدد هائل من الجرائد والمجلات الجديدة، في وقت أتيح للصحف التي شغلت ساحة العمل الوطني في عهد الحماية أن يستمر بعضها ويتوقف البعض الآخر. وكانت «العلم» و«الرأي العام» من أبرز الجرائد التي عرفت الاستمرار وإن تعرضت هذه الأخيرة لتعثر لم تتابع معه المسير.

وإذا كانت الصحافة سواء في عهد الحماية أو الاستقلال قد فتحت السبيل للأقلام في شتى الأغراض التي يتوسل فيها بالمقالة، أدبية وفنية وفكرية وتاريخية واجتماعية وسياسية وغيرها مما لا يتسع المقام

لاستعراضه، فإنها كانت في الاتجاه السياسي أكثر فسحا لميدان التعبير علي ما فيه من صعوبة شائكة غير خافية.

وأبادر إلى القول بأني أقصد بالمقالة السياسية تلكم التي كتبت انطلاقا من وعي سياسي، بمفهومه المقاوم لأحوال واقع غير مقبول على مستوى الرأي العام والمصالح العليا للأمة، وإن من رؤيا هيئة وطنية معينة، وكذا بمدلوله البنائي الذي يسعى عن طريق الجهر بالمطالب وعرض المقترحات وتنفيذ البرامج، إلى تقديم البديل في مختلف المجالات التي تحقق هذه المصالح، فكرية واجتماعية وغيرها مما تعالج به تلك الأحوال. ومن ثم تستوعب المقالة السياسية مرامي الإصلاح كافة، أو أن هذه تشمل تلك لتكاملهما وصعوبة التفريق بينهما، وصب إحداهما في الأخرى وازدواج دورهما عند أفراد قاموا بالعملين. ويكفي دلالة على ذلك أن أسوق مقتطفا من مقال للأستاذ المكرم يتحدث فيه عن مستقبل المغرب وهو يخوض معركة التحرير، فيعرض لقضية ثقافية مازلنا إلى اليوم نتناولها. ويتعلق الأمر بمدى التواصل بين الماضي والحاضر في نطاق معادلة التراث والمعاصرة فيقول: «إن الأمة في حاضرها لا تستغني عن ماضيها، وصرح نهضتنا لابد أن يرتكز على القديم والجديد معا، وفي ماضينا القديم ثروة غنية لا يحسن إهمالها، وفيه أشياء فات أوانها وأقبرتها الأنظمة الحديثة فلا يجمل بعثها. لا حاضر لشعب لا يفكر في ماضيه ولا ماضي يحفظ لشعب لا يجدد حاضره، والأمة التي تستطيع وصل ماضيها بحاضرها وتجمع بين حسنات القديم والجديد تبني مستقبلها على أساس مكين لا ينهار، لأن الحاضر الفتي يسنده والماضي البعيد يدعمه».[1]

وعلى الرغم من ذلك فإننا - لمجرد التمييز الشكلي والزمني - داخل سياق النهضة المغربية، نعتبر الإصلاح سابقا على السياسة، من حيث أن

(1) الرأي العام (ركن حديث الأربعاء) 28 مايو 1947.

الإصلاح يتصل مباشرة بتطور حياة المجتمع، في حين أن للسياسة ارتباطا وثيقا بأمر الحكم وتنظيمه وتسييره.

ونحن في هذا لا نرى ماهو شائع في الأذهان من كون التوجه السياسي في نطاقه الضيق رديف الدهاء والتحايل والمناورة، وخاليا نتيجة ذلك من الصدق والنزاهة والاستقامة وما إليها من قيم خص بها المصلحون. ومن ثم فمنظورنا للمقالة السياسية في عمومها - لاسيما عند رواد كتابتها - لا يستبعد الآفاق الإصلاحية التي تجلت عندهم بوضوح كبير وفي إطار الالتزام بهذه القيم.

ومن هؤلاء يذكر محمد بن الحسن الوزاني وأحمد بلا فريج وعلال الفاسي وعبد الخالق الطريس والتهامي الوزاني ومحمد اشماعو والهاشمي الفيلالي ومحمد المكي الناصري وأحمد بن سودة وعبد الهادي بوطالب وأحمد زياد وعبد الله إبراهيم وغيرهم من الذين نشطوا في الهيآت الحزبية على اختلاف مالها من اتجاهات وانتماآت.

* * *

وقد لمع اسم الأستاذ عبد الهادي فيما كان ينشره من مقالات سياسية على أعمدة «الرأي العام» التي كانت لسان حزب الشورى والاستقلال - كما مر - والتي كانت أسبوعية أول الأمر، ثم تحولت إلى يومية، وكان أول أعدادها قد ظهر في فاتح أبريل عام 1947.

وفي إحدى حلقات مذكراته[1] تحدث عن هذه الصحيفة وبين بعض متعلقاتها فقال: «أصدر حزب الشورى والاستقلال جريدة (الرأي العام) الأسبوعية التي كان أخونا أحمد بن سودة مديرها العام، وكنت لفترة مشرفا علي تحريرها وفيها كان ينشر الوزاني افتتاحياته باسم (الغمرات)

(1) الحلقة 32 من (ذكريات وشهادات ووجوه) جريدة الشرق الأوسط العدد 3648 الأربعاء 23 نوفمبر 1988م.

وكنت أنشر مقالاتي تحت اسم (حديث الأربعاء) تارة و(هذه سبيلي) تارة أخرى بجانب مقالات سياسية متنوعة، بينما كان ابن سودة ينشر مقالاته النقدية بإمضاء (المفتي) تحت اسم (حديث المفتي) الذي أصدره في كتاب. وكانت الوسائل التي نتوفر عليها لإصدار هذه الجريدة من الضعف بحيث كان إصدارها معجزة لا تتحقق من المشرفين عليها إلا بمعاناة لا تطاق. كان مقر الجريدة بالدار البيضاء حيث كان يوجد قلم التحرير، وكان المرحوم الوزاني يقيم بمدينة فاس من حيث يبعث مقالاته إلينا، وأذكر أنه كان كلما أصدرنا العدد الأسبوعي يبعث لنا بسيل مخطوط من الملاحظات في سعي منه إلى الإتقان وحرصا على أن تكون الجريدة - حسب تعبيره - مشرفة. وكنا نفهم من تلك الملاحظات أنه لا يرانا - الأخ ابن سودة وأنا - مؤهلين للإشراف علي الجريدة، لأننا لم ندرس علم الصحافة في مصادره ومعاهده، ولم نأت بيوت الإعلام من أبوابها. ولم يكن يتصور الظروف التي كنا نعمل فيها لنخرج جريدة لم تكن أقل مستوى من مثيلاتها الصادرة في ذلك العهد، بل كانت تعتبر من أرقى جرائد ذلك العهد، وكان بيننا وبينه نقاش عنيف حينما اعتزمنا تحويل الجريدة إلى يومية، فقد كان يرى استحالة نجاح هذه العملية ما لم تتوفر لها الشروط المطلوبة، ولكننا فاجأناه بإصدارها يومية وهو مقيم بفاس فكان سروره بصدورها ممزجا بشعور الندم على إطلاقه حكمه المسبق بفشلنا».

إن المتأمل لهذا المقتطف ليجد الأستاذ عبد الهادي بوطالب يقدم معلومات - هي على قصرها وإيجازها - ضافية الإفادة عن الجريدة وتحريرها وإصدارها وتحفزاتها ومدى هم المشرفين عليها لتكون في مستوى جيد ممتاز وهو في ذلك يلتزم أمانة نقل الحقيقة، فيعرض ما كان لجهده وزميله في الإدارة والتحرير من صدى نقدي في نفس زعيم الحزب الذي كان يومئذ - بحكم تكوينه القانوني وثقافته السياسية وسبقه للعمل الصحفي - يتبوأ مقام المعلم المربي الذي تتحكم فيه طبيعة مسؤوليته وتدفعه بغيرة

شديدة إلى التنبيه والتوجيه، ولكنه سرعان ما يعلن انشراحه واستبشاره حين يلقى تلاميذه ومريديه المعينين له قد صادفوا التوفيق والصواب فيما بدروا إليه من جواب أو تصرف. وتلكم شهادة لا تسجل للمرحوم ابن الحسن فقط، ولكنها تحسب في مناقب المحررين الأخوين الطالبي والسودي، تثبت طموحهما الوطني ومكانتهما في تدبيج كتابة سياسية رفيعة عالية وقدرتهما في ظروف صعبة قاسية على النهوض بجريدة يومية ولما يتجاوزا ميعة الشباب.

* * *

حين أنظر بعد هذا في المقال السياسي الذي حبره الأستاذ عبد الهادي بوطالب، أجد إمكان وضعه في قسمين يشكل كل منهما مرحلة من الزمان ومن الكتابة معينة ومتميزة.

أما الأولى فترجع إلى عهد الحماية بما كان يتطلبه من كفاح بدأ مناديا بالحاجة إلى إصلاحات في بعض المجالات الحيوية، كالتعليم وما إليه من مرافق اجتماعية واقتصادية وتسييرية، ثم تطور إلى المطالبة بالحرية بجميع ما يقتضيه تحقيق هذا الهدف من معاناة وما ينبعث عنه من تطلعات لم يكن يخلو عرضها من تصورات رصينة وتحليلات عميقة تنصب على كيفية استرجاع الاستقلال وبنائه كذلك، في سعي إلى تحسيس المواطنين وبث الوعي فيهم بذلك والحماس، وكذا إلى مواجهة الاستعمار ومقارعته ودحض حججه وإبطال مخططاته. وما إلى مقالات هذه الفترة أقصد في هذا العرض، على الرغم من الحاجة الملحة إلى جمعها وإعادة نشرها وتيسيرها للباحثين في التاريخ والأدب والسياسة، حتى يكشفوا، من خلالها جوانب هامة من كفاحنا الوطني والتعبير الذي رافقه وجلاه؛ لأن الأسف شديد أنها على أهميتها ظلت مغموطة أو مقصودا بها أن توضع في رفوف الإنكار والنسيان.

وأما المرحلة الثانية فترتبط باستعادة الحرية والاستقلال، وبما صاحب

هذه الاستعادة من نشوة أول الأمر كانت تدعو إلى الطرب والابتهاج والتغني بما أحرزه المغرب نتيجة تضحية أبنائه وجهاد قادته، إلا أنها لم تلبث أن تحولت إلى مواجهة قضايا العهد الجديد ومشكلاته النابعة من الممارسة الفعلية للسيادة وتدبير شؤون الأمة في مختلف حاجاتها ومتطلباتها وعلاقاتها مع الأشقاء والأصدقاء والخصوم والأعداء.

ولم تكن هذه الفترة خلوا من أزمات مستعصية في أحيان كثيرة، سواء فيما يمس النزاعات الحزبية وما تولد عنها من انشقاق في صفوف الحركة الوطنية، أو فيما يتصل برعاية مصالح البلاد في مجالات التعليم والاقتصاد وأحوال المجتمع عامة، لاسيما بعد أن غدا الشعب أكثر وعيا بالواقع وأقوى شعورا بالذات وأقدر على مغالبة التحديات، أو فيما يتعلق بجلاء الجيوش الأجنبية وتصفية مخلفات الاستعمارين الفرنسي والإسباني، واستكمال الوحدة الترابية التي أقسم المغاربة أن يحققوها في تجند دائم وإجماع للكلمة والصف قل لهما نظير.

* * *

وقد عالج الأستاذ الصديق مجموع تلك المحاور في المقالات السياسية التي كتبها في هذه المرحلة بجميع تحولاتها وما كان له فيها من دور رائد فعال.

وسأقتصر منها على ما نشر في جريدة (الرأي العام) تحت عنوان أليف لديه منذ المرحلة السابقة وهو «هذه سبيلي». وما أحسن ما صنع - حفظا لهذه المقالات - حين وفق إلى جمع منتخبات منها ضمنها كتابا أصدره[1] في نطاق (حلقات من سلسلة: هذه سبيلي: آراء - مواقف - تطلعات).

وهي محررة على مدى سنتي سبع وخمسين وثمان وخمسين، ودالة

(1) طبع دار الكتاب - الدار البيضاء 1980م.

على ما كان يشغل كاتبها من منطلق حزبه المتخذ موقف المعارضة في هذه الفترة الدقيقة والحاسمة، بما شهدته من صراعات حزبية تبلورت يومئذ في جوانب عدة، كان من بينها الخلاف حول منظور الهيآت إلى الحكومة وكيفية تشكيلها واتجاه بعض الآراء إلى إسنادها لحزب واحد، بعد أن كان المغرب قد جرب في أول الاستقلال تكوين حكومة ائتلافية كان لحزب الشورى فيها حظ وافر متمثل في مجموعة من المناصب كان كاتبنا القدير ممن شاركوا في تحملها.

وإن مجموعته المقالية التي نحن بصددها لتكشف بوضوح هذا التوجه المعارض، لكن في روح وطني وإيجابية بناءة. وقد رتبها على ستة أبواب.

الأول:

سماه «حربا علي الاستعمار»، وأورد فيه إحدى وعشرين مقالة رد في معظمها علي خصوم المغرب من الاستعماريين الرجعيين الكائدين له ولأشقائه العرب والمسلمين، مذكرا بالمواقف البطولية التي خاضها أبناء الوطن، ومؤكدا أن المغرب فد استقل «وهو يمارس سيادته حرا طليقا، ولن تستطيع أية قوة مسلحة كيفما كان مصدرها أن تحطم هذا الاستقلال من جديد لأنه فكرة وعقيدة. وكل قوة تسخر لمقاومتها منهزمة فاشلة سلفا»[1] وقد بين في إحداها وهو يتحدث عن الفترة أن في المغرب اليوم طائفة في الحكم وأخرى في المعارضة، والمعارضة القائمة وإن كانت لا تتوفر على الوسائل الدستورية لحمايتها وتثبيت قدمها تظل مع ذلك معارضة نزيهة تستهدف صالح الوطن وتعمل لإبلاغ صوتها للمسؤولين حتى يتجنبوا مواقع الزلل»[2].

الثاني:

جعله «دفاعا عن الصحراء»، وضمنه ثلاث مقالات تكتسي أهمية

(1) هذه سبيلي ص 27 والمقالة مؤرخة في 15 مايو 1957.

(2) نفسه ص 10 والمقالة مؤرخة في 8 أبريل 1957.

قصوى، لما تفيده من عناية صاحبها في وقت مبكر بلفت النظر إلى ضرورة الاهتمام بهذا الجزء من الوطن، لاسيما بعد أن أخذت تعنى به فرنسا وإسبانيا والولايات المتحدة من أجل استغلاله وإحداث وزارات وإدارات للإشراف على هذا الاستغلال. وهو من أجل ذلك يتساءل: «فأين حظ أصحاب الصحراء الحقيقيين؟ وماهو دورهم؟ وماهي استعداداتهم التي اتخذوها للنزول إلى هذا المعترك؟ هل فكرت حكومة المغرب جديا في موضوع صحرائنا، ولا أعنى تفكير المطالبة بإلحاقها بتراب الوطن الأكبر بل أعني هل لها برنامج لفرض هذا الإلحاق وجعله حقيقة واقعة؟.[1]

ويقول في مقالة أخرى: «إنه لا يكفي فقط أن نعرب عن أملنا في أن نساهم في استثمار الصحراء، بل ينبغي أن نكون صرحاء كل الصراحة في موضوع الصحراء أيضا، وأن نفهم حكومتي فرنسا وإسبانيا في غير التواء أن الصحراء جزء من ترابنا، كما ينبغي أن يفهم الأمريكيون الذين نحرص على صداقتهم أن عقد الاتفاقات مع فرنسا في موضوع صحرائنا ضرب من العبث إذ سيكون عليهم في النهاية أن يرجعوا للاتفاق معنا تماما كما يفعلون اليوم في موضوع القواعد الأمريكية التي كانت فرنسا تولت إبرام اتفاقيتها مع أمريكا دون استشارتنا. ولئن كان الأمر يقبل الجدل نظرا لوضعية الحماية، فلا شيء يبرر اتفاقا دون حضورنا في الوضع الجديد».[2]

الثالث:

خصص مقالاته الأربع عشرة «دفاعا عن الجزائر» لتحريرها من ربقة الاستعمار، متتبعا مراحل التضييق الذي كانت تواجه به فرنسا عزم الشعب الشقيق على تحقيق استقلاله وما أفضى إليه هذا التضييق من إذكاء جذوة النضال وتقوية مساندته. وعنده أنه «كما توج كفاحنا بالنصر على قوات

---

(1) نفسه ص 79 والمقالة مؤرخة في 27 يونيو1957 .

(2) نفسه ص 82 والمقالة مؤرخة في 3 يوليه 1957.

الطغيان فأشرقت علي المغرب شمس الاستقلال، فإن ساعة الخلاص للجزائر قد دنت، ذلك أن الكفاح الوطني لا يعرف غير نهاية واحدة لو اعتبرها ساسة فرنسا لحقنوا دماء شبابهم ووفروا أموال خزينتهم وأنقذوا سمعة فرنسا التي قضت نصف هذا القرن وهي تمضي من حرب إلى حرب في الهند الصينية وشمال إفريقيا بالإضافة إلى الحربين العالميتين»[1]

الرابع:

وجه كتابته فيه « لبناء الاستقلال»، ويعتبر أكبر قسم لاشتماله علي خمسة وعشرين مقالا تناول فيها مختلف المشكلات التي كان الشعب المغربي يعانيها يومئذ، من عبث بالقانون وتآمر علي حريات المواطنين وشيوع بعض مظاهر العصبية والظلم والرشوة والفساد والتهاون في القيام بالواجب والخلل الذي تشكوه بعض القطاعات كالأمن، والصحة، والتعليم، وتعريب لغة الإدارة، والعناية بالبادية، وتنظيم السياحة، ومحاربة التقاليد البالية، وإحداث قوانين جديدة، وتطوير الإعلام، وفتح المجال لحرية الصحافة التي ينبغي أن تكون منابر لجميع أنماط التعبير وأشكاله، وكذا حرية تأسيس الجمعيات والأحزاب.

كل هذا في حرص من الكاتب صادق علي مقاومة الذين يتربصون «أن تفشل تجربة الاستقلال وأن تعم الفوضى أرض المغرب، ليعود الاستعمار عن طريق الفوضى كما جاء للمغرب عن طريقها منذ نصف قرن»[2] . وعنده أن المشاكل اليومية التي يتخبط فيها الشعب ليست بمستعصية الحل، فلنا من الوسائل والإمكانيات والبرامج ما يساعدنا على حلها. ولكن الذي ينقصنا هو أن نومن بقدرتنا على الحل، وأن نخلص في العمل لإيجاده، وأن تتكتل الصفوف لتطبيق البرامج، وأن نطهر أنفسنا من

---

(1) نفسه ص 113 والمقالة مؤرخة في 6 يوليه 1957.

(2) نفسه ص 140 والمقالة مؤرخة في 6 أبريل 1957.

رواسب الاستعمار، فلا نخاف الأجنبي ولا نتملقه ولا نحرص علي ترضيته في الوقت الذي نستهتر فيه بحقوق المواطنين».[1]

الخامس:

كتبه «دفاعا عن الديموقراطية» في أربع وعشرين مقالة مبرزا أهمية هذا المذهب الذي كان مشبعا به لارتباط حزبه به منذ نشأته، ومبينا أن الشعب المغربي «ديموقراطي بطبيعته، لما كان شائعا بين أفراده في البادية من نظام الجماعة المنتخبة، وإن حاول خصومه الدس له واتهامه بفقد الوعي والنضج، والطعن فيمن لا يوافق أن ينقاد للرأي الوحيد المفروض.

وهو يعتبر الديموقراطية ممارسة قد ترتكب فيها أخطاء، ويدعو إلى الاستفادة مما وقعت فيه بعض الأنظمة الشرقية في هذا المضمار، مما أدى بها إلى الصراع العنيف. ويحذر من اللجوء في تلك الممارسة إلى أساليب التزوير والضغط وما إليها من وسائل غير شريفة لكسب الأصوات، ويرد على الذين يرون المرأة غير مؤهلة لمزاولة الحق الانتخابي. وزيادة في إلقاء الضوء على قضية الديموقراطية، ينظر من حين لآخر إلى تجارب الدول الأخرى التي سبقتنا كفرنسا وأنجلترا والولايات المتحدة، لنأخذ الدرس منها ونحن مازلنا في بداية عهد الحرية والتمرس باختصاصات السيادة. وفي رأيه «أن الحرية عند الشعوب جميعا وخاصة التي اكتوت بنار الحرمان منها حق مقدس. والقوانين حين تقرها وتؤكدها لا تفعل أكثر من تأكيد حقيقة اجتماعية نستطيع أن نقول إنها سر وجود الإنسان وسر استمراره حيا. إن الإنسان لا يكون إنسانا بغير نعمة الحرية. وبقدر ما يزداد تقمصا لهذه الحقيقة وشعورا بها ترتفع في نفسه وروحه خاصيات الإنسانية لأنه لا يسمو على الحيوانية إلا بها»[2].

(1) نفسه ص 136 والمقالة مؤرخة في 4 أبريل 1957.

(2) نفسه ص 278 والمقالة مؤرخة في 29 دجنبر 1957.

أما الديموقراطية، فهي عنده وهو يتحدث عن المجلس الاستشاري «ليست نظاما شكليا فقط، إنها خلق وسلوك والتزام. إن الأعضاء جميعا من كانوا يؤيدون الحكومة أو يعارضونها ينبغي أن يتحلوا بالخلق الديموقواطي داخل المجلس فيصغي مؤيدو الحكومة إلى تدخلات نواب المعارضة مقدرين الروح التي تدفعهم للمعارضة، شاكرين للمعارضة ما تؤديه من دور سام في حياة الأمة؛ وعلى أعضاء المعارضة أن يتوخوا النزاهة فيما يقولون وينتقدون»[1] و«إن النظام الديموقراطي يفرض أن تحكم الأمة نفسها بنفسها والانتخابات الديموقواطية هي التي تعين من ينتدبه الشعب ليحكم ومن يختاره للمعارضة. وكل من الحكومة والمعارضة منظمتان دستوريتان، لا تفضل إحداهما الأخرى شرعية، لأنهما معا منبثقان عن إرادة الشعب التي تظل مصدر السلطات»[2]

السادس:

حرر مقالاته الخمس «في التضامن العربي» مشيدا بالوحدة بين مصر وسوريا، ومنطلقا من الدعوة التي وجهتها الحكومة المصرية لجلالة الملك المغفور له محمد الخامس كي يقوم بزيارة رسمية إليها، ليتحدث عما لأرض الكنانة من أياد بيضاء على المغرب. ثم انتقل للحديث عن لبنان مقارنا بين ما كان عليه من اطمئنان واستقرار وتسامح، وما آل إليه أمره في ظل النزاعات السياسية والصراعات الانتخابية مما أدى إلى بعض الأعمال التخريبية الانتقامية.

وقد انتهز مناسبة حضور السفراء العرب للقصر الملكي بالرباط يؤيدون موقف المغرب إثر الحوادث التي عرفتها إيفني، وما أعقب ذلك من تنديد الصحافة العربية بانهزام القوات الإسبانية أمام زحف جيش التحرير

(1) نفسه ص 235 والمقالة مؤرخة في 5 يونيه 1957.

(2) نفسه ص 265 والمقالة مؤرخة في 15 دجنبر 1957.

المغربي، ليبرز أهمية التضامن العربي ويؤكد «أن الروابط التي تجمع بين شعب وآخر تكون عادة نتيجة شعور مشترك ومصالح مشتركة. وهذا الشعور المشترك حقيقة تاريخية يعد إنكارها نكرانا للواقع المحسوس. فليستوح المسؤولون المغاربة من هذا الشعور سياسة سليمة تقوم على تقدير قوة التضامن العربي واستلهام روح هذا التضامن في قراراتهم وتصرفاتهم.»[1]

ووقف في آخر مقال له عند التصريح الذي أدلى به في الرياض ولي العهد المغربي يومئذ - جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله - بشأن اقتراب يوم الوحدة العربية الكبرى، فاعتبر أنه «لا يعد تصريحا للمجاملة صادرا من أمير عربي في ضيافة ملك عربي، أن سموه تحدث مؤمنا بأن مصير بلادنا مرتبط بمصير الدول العربية الشقيقة، وبأن الوحدة العربية الكبرى بين المغرب وبقية أقطار العروبة هي حادث طبيعي سيفرضه الزمان فيما سيفرض من أحداث»[2] وكيف وقد قال سموه «سيأتي يوم يرتبط فيه المغرب والمملكة العربية السعودية ليس فقط فيما بينهما ولكن مع بقية الدول العربية التي ستؤلف أمة عربية واحدة تمضي جنبا لجنب مع بقية أقطار العالم المتمدن»[3]

* * *

إن المتتبع لهذه المقالات ينتهي بما لا يدع مجالا للشك إلى أن كاتبها عميق الإدراك لواقع المرحلة الجديدة وما جريات أحداثها، دقيق التناول لمختلف الموضوعات التي يثيرها في إيمان راسخ بالمبادئ الوطنية والقيم الإنسانية وتشبث بالوحدة والتعاون والتضامن، وثقة في الشعب والعرش،

---

(1) نفسه ص 297 والمقالة مؤرخة في 8 دجنبر 1957.

(2) نفسه ص 298 والمقالة مؤرخة في 7 يبراير 1958.

(3) نفسه ص 299 نفس المقالة.

وتأكيد لموقعه في المعارضة وتوضيح دائم لمفهومها الصحيح الحافز على الصراحة في عرض المشاكل والانتقاد البناء، مما أتاح له جرأة كبيرة علي التنبيه إلى المآزق والمزالق وكذا الهفوات والأخطاء، وإبداءا صريحا لرأيه الذي لا يتردد في كشف مخالفته للموقف السائد، وقدرة فائقة على الإرهاص بمخبآت المستقبل والتوقع لما قد تؤول إليه الظروف في تعرضها للمفاجئ من التطورات والتقلبات، مع تفاؤل كبير بالمستقبل وما يخفيه.

وهو في هذا كله يجذب القارئ لمتابعة كلامه، ويغريه بتأمل وجهات نظره، في اطمئنان نفسي واتزان موضوعي لا يشوبهما هوج أو تهريج مما قد يصادف في بعض الكتابات السياسية، والسبب كامن في طبيعة شخصيته ومكونات نشأته وثقافته وما يغمره من إحساس بالأمانة والرسالة، سواء باعتباره عالما معلما ومفكرا أديبا، أو بصفته أحد أقطاب العمل الوطني، بدءًا من المجال الحزبي إلى ما عهد به إليه من مناصب ومسؤوليات.

وعلى الرغم مما يميز المقالة السياسية في قلم الأستاذ أبي طالب – كأية مقالة في الغالب – من حجم محدود أقرب ما يكون إلي القصر الدال على التحكم في الموضوع وقدرة التعبير عنه، فإنها تخضع عنده لتخطيط منهجي محكم بناؤه في جمل متسقة وفقرات متوازنة، إذ يستهلها عادة بمقدمة يعرض فيها ما يريد تناوله، كأن يلقي ببعض الأفكار الثابتة يمهد بها في شبه مسلمة، على غرار قوله في إحدى مقالاته عن الديموقراطية: «للرأي العام وحكمه علي الأشياء والأشخاص قوة خارقة. فهو يستطيع أن يكيف اتجاه الأحزاب والجماعات، ويحمل خصومه على تغيير مواقفهم وقراراتهم»[1] أو كأن ينطلق من حادث وقع أو بلاغ صدر، كقوله في مقال عن بناء الاستقلال: «تحدث بلاغ صدر منذ أزيد من أسبوعين عن مشروع

---

(1) نفسه ص 275.

ظهير يتعلق بالحريات وخاصة حرية تأسيس الجمعيات والأحزاب. وعند عرض هذا المشروع على لجنة وزارية لم تعلن عما انتهى إليه اجتماعها لحد الآن». [1]

وبعد المقدمة يشرع في الشرح والتحليل والمناقشة، متوسلا بالمنطق والجدل والرد والتفنيد والتعقيب والمقارنة، وكذا السخرية والاستفهام والاستنكار في بعض الأحيان، ومستعينا بالتاريخ وأحداث العصر، وتقديم معطيات عربية وإسلامية وأجنبية - على نحو ما يتضح بعضه في المقتطفات التي سقنا من قبل مما لا حاجة إلى الإطالة به - لينتهي بعد ذلك إلى استنتاج علي شكل خلاصة تأتي أشبه ما تكون بحكمة أو عظة. من ذلك قوله وهو يتحدث عن المقاومة: «لنحاسب أنفسنا هذا الحساب فننظر هل أحيينا ذكرى المقاومة حقا وهل وفينا لأبطال الفداء حقا؟»[2] وقوله في ختام مقال عن استقلال أندونيسيا: «إنه لا استقلال بدون تحرير اقتصادي وأن المحاولات الرامية إلى مسخ الاستقلال بإحاطته بقيود لا ترضاها الشعوب محاولات فاشلة»[3].

وقد يستدعي لذلك آية قرآنية كريمة، علي نحو ما فعل في ختم مقاله عن أحداث 20 غشت 1953 من حيث «هي عبرة صادقة حافلة بالمغازي ينبغي أن يفتح الذين فتنوا عن يقينهم إذ ذاك أعينهم عليها ليجددوا إيمانهم مرة أخرى. أما الذين آمنوا أيام الشدة وصبروا عند تلك المحنة فإنما تزيدهم عبرها إيمانا بأحقية ما اعتقدوه: «وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون». [4]

---

(1) نفسه ص 199.

(2) نفسه ص 42 والمقالة مؤرخة في 19 يونيو 1957.

(3) نفسه ص 59 والمقالة مؤرخة في 17 دجنبر 1957.

(4) نفسه ص 39 والآية هي الخامسة من سورة الروم.

(5) نفسه ص 33.

وقد يختزل الخاتمة في بيت شعر مشهور كهذا الذي تمثل به[5] وهو يسخر من الاستعمار الفرنسي الذي ضاق باستقلال المغرب وتونس في وقت تجتاح العالم كله موجة التحرير:

كنا طح صخرة يوما ليوهنها فلم يهنها وأو هى قرنه الوعل

وهو في بعض الأحيان يعتمد - سواء في الابتداء أو الاختتام - على كلمة لأحِد الأعلام الأجانب، كقوله في مستهل إحدى مقالاته[1] «تحدث مرة الرئيس بوانكاري عما يربط طبقات الشعب بعضها ببعض فقال: (لا يكفي لكي تتوحد طبقات الشعب أن تربط بينها الجنسية المشتركة واللغة الواحدة وأن تحيا في وطن ذي حدود معلومة، بل يجب بالإضافة إلى ذلك أن يوجد بينها شعور بأن كل طائفة منها تعمل لفائدة الطوائف الأخرى)»، وكختم نفس المقالة بهذه العبارة[2] «لقد قال الكاتب لابروبير كلمته الخالدة: (لا وطن مع الظلم) وهي كلمة تلتقي في سلبيتها مع كلمة الرئيس بوانكاري في إيجابيتها)».

وإحكام الموضوع والبناء والتناول في هذه المقالات لم يحل - وهو يلح على التشويق والإقناع - دون سلاسة الأسلوب واسترساله في سهولة ووضوح، على ما قد يكون فيه من احتفال فني يتجلى في ملامح بيانية تأتي عفو الخاطر صادرة بتلقائية لا تصنع فيها ولا تكلف ولا تعقيد، مضفية على سلامة اللغة ورصانتها وصفائها شفافية وجمالا ورشاقة، يزيد في روعتها ما يعلو التعبير المباشر في بعض الأحيان من توريات وايحاءات تجعل المقالة في آخر المطاف تحقق بمضمونها غاية التبليغ والإفادة، وتستجيب بقالبها الممتع إلى متطلبات الذوق الأدبي الرفيع. وتلكم إحدى الخصائص التي تميز الأخ العزيز في جميع ما كتب.

---

(1) نفسه ص 193.

(2) نفسه ص 195.

تدشين النادي الأدبي
ومكتبة أحمد بن يحي بن سودة

***

ألقيت هذه الكلمة في حفل تدشين النادي الأدبي ومكتبة أحمد بن يحي بن سودة بحي الزيات في فاس بعد عصر الجمعة 29 من ذي الحجة 1411هـ الموافق 12 يوليوز 1991م.

الحمد الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلي آله وصحبه

معالي وزير الدولة

سيدي مستشار صاحب الجلالة

معالي وزير الثقافة

سيادة مؤرخ المملكة

أصحاب السعادة والي صاحب الجلالة وعماله على فاس

أصحاب الفضيلة رؤساء الجامعات والمجلس العلمي وقيدومي الكليات

السادة العلماء والأساتذة

في سجلات تاريخنا الحافلة المشرقة، تتميز صحائف ناصعة متألقة، تتلألؤ سطورها أنوارا ساطعة أضاءت مسالك الحضارة والثقافة في مختلف ربوع المغرب، وأتاحت بلوغ إشعاعه إلى أصقاع من الدنيا قريبة وبعيدة.

ومن النظر في تلكم الصحائف، تتجلى بعض الظواهر التي كان لها كبير الأثر في تأسيس القيم والمبادئ، وتأصيل التقاليد والمقومات، وإفساح المجال لها جميعا كي تنهض بدور فعال في الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية لبلادنا على مر الحقب والأزمان.

ولعل من أهم هذه الظواهر وجود أسر رزق أبناءها النبوغ، فتعاقب فيهم العلم، توارثوه جيلا إثر جيل فأذكوا جذوته وحملوا مشعله وأدوا رسالته. وفي طليعة تلك الظواهر كذلك إقامة الزوايا وما إليها من أندية علمية ومجالس أدبية، يتحلق في رحابها رواد المعرفة حول شيخ ينهلون من فيض مداركه ويحتذون مدارج سلوكه، أقرانا له كانوا أم مريدين وتلاميذ، وقد نضيف إلى هذه وتلك ظاهرة تحبيس الكتب على المساجد والمدارس

لتكون في متناول الطلاب ومجموع القراء، باعتبار الوقف من الصدقة الجارية؛ وهو حين يخص الكتب يكون كذلك من العلم الذي ينتفع به. وهما مما جاء في الحديث النبوي الشريف الناص على ما لا ينقطع به عمل ابن آدم بعد موته.

وإن المتتبع لمسيرة الثقافة في المغرب، لا يلبث أن يلاحظ وجود هذه الظواهر مفترقة حينا ومجتمعة أخرى؛ وأن يتبين له أن من أبرز الحالات التي التأم فيها ما تناثر في غيرها، نموذج السوديين، لما كان لهم من سبق وتفوق في مختلف هذه المجالات.

فمنذ قدومهم من الأندلس إلى فاس، منتسبين إلى بني مرة القرشيين، وهم يرفعون - انطلاقا من هذه المدينة الزاهية الفيحاء - ألوية العلم والأدب والصلاح.

فما منهم إلا مدرس نفاع، ومؤلف مبدع، وخطيب مصقع، ومقرئ مجود، وقاض نزيه، ومفت خبير، وعدل موثق؛ في تبريز خصوا به في المعقول والمنقول، ومشاركة عزلها المثيل في مختلف الفنون؛ مع اللسن والفصاحة، والضبط والتحقيق، والإتقان والتدقيق.

وقد زانوا ذلك كله بما ينبغي أن يتحلى به العلماء الحق من تعفف في السلوك، واستقامة في الفكر، وثبات على المبدأ، وشجاعة في إبداء الرأي، وصراحة في اتخاذ المواقف الصارمة؛ مما جعلهم عمدة وقدوة، يحظون لدا الملوك بوافر التقدير والاحترام، ويتمتعون بين الخاصة والعامة بالكثير من التبجيل والإكبار. وقد شهد لغير قليل من أعلامهم بالأستاذية الكبيرة والمشيخة المتفردة والإمامة المتميزة.

وإنه ليكفي التمثيل بأبي القاسم المتوفى عام أربعة وألف للهجرة، وما عقب من خلف صالح، ثم بمحمد التاودي المتوفى سنة تسع ومائتين وألف، وما أنجب من أبناء وأحفاد كانوا علي امتداد عهودهم بدورا مشعة مضيئة.

وفيهم قال الأديب الذي أنشد له شيخ جماعة الرباط أبو حامد المكي البيطاوري هذين البيتين:

بني سودة أنتم بدور زمانكم ... وبالفضل والإصلاح سدتم مدى الحقب

وفقتم بني الدنيا جميعا بعلمكم ... فما إن لكم مثل يجاريكم الرتب

وقد بلغ الشيخ التاودي شأوا بعيدا في كل ذلك، حتى لقب بشيخ الإسلام في عصره، وعد من مجددي المائة الثانية عشرة.

وكانت داره وزاويته الواقعتان بزقاق البغل مركز إشعاع متلاحم الحلقات موصولا به النفع خلفا عن سلف. وكذلك كانت خزانة كتبه التي ذاع ذكرها وعمت فائدتها بعناية أنجاله وأحفاده، خاصة أبا العباس المتوفى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وألف، وولده العابد المتوفى عام تسعة وخمسين وثلاثمائة وألف.

وإن من يرجع إلى «الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة» لأبي الربيع سليمان الحوات تلميذ الشيخ التاودي، وكذا إلى فهرسات العلماء وكتب التراجم والطبقات، وما تضمه المكتبات العامة والخاصة من مطبوع ومخطوط، ليأخذه العجب والانبهار مما حازه السوديون وما ألفوه، وما كان لهم على امتداد نحو خمسة قرون من دور فعال وتأثير كبير وفضل عميم.

وقد أسعدني الحظ فأدركت بعض المعاصرين من أفراد هذه الأسرة النبلاء، أذكر منهم مؤلف كتاب «قبيلة زعير» العلامة النوازلي المنعم القاضي محمد بن عمر بن سودة الشهير بالشيخ التاودي. فقد كان لي في محل العم، إذ نشأت وترعرعت بين يديه وأمام عينيه، للصداقة المتينة التي كانت تربطه بوالدي رحمه الله، منذ حل بالرباط؛ والتي كانا بسببها لا يفترقان، وهما يعملان في «دار المخزن» أوائل سنوات الأربعين، قبل أن يلتحق الفقيه التاودي بسلك القضاء خارج الرباط، ولا سيما في «الزيايدة» بإقليم ابن

سليمان اليوم، حيث كانت زياراتنا له متواصلة.

وأذكر ممن حظيت كذلك بتعرفه وصداقته، المؤرخ البحاثة المرحوم عبد السلام بن سودة الذي كانت رحلات والدي إلى فاس في نفس الفترة المذكورة وبعدها، مناسبة للاستمتاع بمداعباته وأنا طفل صغير أمرح في روض منزله بالمخفية، قبل أن ينتقل في عهد الاستقلال موظفا خبيرا بالمخطوطات في خزانة الرباط العامة. وقد كان في هذه المرحلة يغمرني بتشجيعه ويمدني بتقاييده ومدوناته التي كان يفيد بها الباحثين، في تواضع جم وسخاء منقطع النظير، والتي يكفيه فضلا بها على الدارسين كتابه «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» الذي اعتبر ومازال أهم كشاف لما تحتويه المكتبات المغربية من نفائس المخطوطات والمطبوعات، وذخائر الخزانة الأحمدية بصفة خاصة.

أما أنت يا أخي الكبير أبا العباس، فإنك لي، ولغيري من العلماء والأساتذة وللمثقفين كافة، زميل كريم وصديق حميم، إليك نسكن ونطمئن، وبك نساند ونؤازر. وكيف وأنت العالم الفقيه الأديب، والوزير الحنك المستشار، بل أنت ذو الوزارات التي أحكمت التوفيق فيها بين المناصب الحكومية السامية، وبين كفاحك السياسي وجهادك الوطني، وبين تفننك الإبداعي في الخطابة وكتابة الشعر والنثر. وقد سجل التاريخ علو قلمك النضالي يوم كنت تقاوم الاستعمار ب «حديث المفتي» وغيره من المقالات التي كنت تنشرها على صفحات جديدة «الرأي العام» الغراء. وكذلك سجل مواقفك ودرر خطبك في الصحراء المغربية، دفاعا عن وحدة تراب الوطن، حتى تم استرجاعها. وكنت النائب عن مولانا الإمام في استلام مقاليد الإقليم المحرر، وأول عامل عليه.

وها أنت اليوم تضيف إلى أمجادك ومفاخر أسرتك منقبة تلم بها شتى أطراف الرفعة والسؤدد، تأخذ بأسرها وحذافيرها، وتجمع طارفها والتالد،

بإقامتك هذه المؤسسة العلمية التي وفيت بها ووفيت لمسقط رأسك المعطاء وأجدادك الأفذاذ، وأبرزت ما أنتجوا من تراث غني زاخر، وأحييت بها تلك الظواهر التي كانت شائعة في بلادنا تشع بالثقافة وتشيعها؛ وأنت في ذلك لا تسعى إلى غير النفع العام والعمل الصالح، «وما عند الله خير وأبقى».

وما أحوجنا في المرحلة الدقيقة التي تجتازها أمتنا، إلى بعث قيمنا الثابتة وتقاليدنا الأصيلة، لترسيخها والتوعية بها والعمل علي تعميمها. ولنا خير إسوة في مولانا أمير المؤمنين الذي فتح خزانته الحسنية لجميع الدارسين منذ اعتلى عرش أسلافه الميامين.

وإنه لمن يمن الطالع أن يدشن هذا «النادي الأدبي ومكتبة أحمد بن يحيى بن سودة» في هذا اليوم المبارك من أيام احتفالات الشعب المغربي بعيد الشباب الذي يصادف هذه السنة الذكرى الثانية والستين لميلاد قائد مسيراته الملهم، الملك العالم الأديب جلالة الحسن الثاني أيده الله ونصره، وأطال عمره وأعز أمره.

فلتهنيئ لك - معالي الأستاذ المجاهد - هذه المنشأة، ولتهنأ بها فاس وعلماؤها ومدرسو جامعتيها والطلاب وعموم القراء المتطلعين إلى المعرفة، وليهنأ كذلك جميع الباحثين المغاربة والوافدين.

وعند الله في ذلك الجزاء

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

تقديم بواكير
منجزات النادي الأدبي

* * *

نص الكلمة التي ألقيت في الحفل الذي أقامته جمعية رباط الفتح وجمعية فاس سايس بمنزل الحاج الجيلالي حكم، مساء الجمعة 7 جمادى الأولى 1412هـ الموافق 15 نونبر 1991، لتقديم كتابين صدرا عن الشركة السعودية للأبحاث والنشر، هما:

1) أحمد بن سودة - تأليف الأستاذ عبد الحي حسن العمراني، ضمن سلسلة «أبطال الوطنية» - الكتاب الثاني.

2) مختارات للأستاذ أحمد بن سودة، من إعداد السيد العمراني كذلك.

بسم الله الرحمان الرحيم
الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

كان متداولا بين علماء المغرب وأدبائه على امتداد الحقب والأزمان، أن «المعاصرة حجاب» وأن «المرء مادام حيا يستهان به»، وشاعت مثل هذه المرددات مرسخة في الأذهان ومثبتة في تاريخ فكرنا ظاهرة إهمال تدوين تراجم النابغين وعدم الاهتمام بحفظ تراثهم وتسجيل متعلقات حياتهم، إلى حد أن بعض الملاحظين لهذه الظاهرة من رجال العصر العلوي الأول وما قبله بقليل، أمثال أبي عبد الله محمد العربي الفاسي وأبي عبد الله محمد الحاج الدلائي وتلميذه الحسن اليوسي، انتهوا إلى أن الاعتناء بالأخبار والوقائع والمساند ضعيف جدا في المغاربة، وأن غايتهم تتجه للدراية دون الرواية، وفيما سوى ذلك لا همة لهم.

وعلى الرغم من أن ملامح كثيرة من هذا الواقع التاريخي - على مافي الحكم من صرامة وقطع - قد تغيرت في العهد الحسني الزاهر الذي أحظانا السعد أن نكون في عز كنفه وفيء ظله، بسبب التوسع التعليمي والانتشار المعرفي والتفتح الفكري وما نتج عن ذلك من ظهور وعي متطور وثقافة ناهضة لم يسبق لهما نظير، فإن الشكوى مازالت قائمة في بعض جوانبها، منصبة بصفة خاصة على مجال المذكرات والسير الذاتية، وما إليها من الكتابات التي تعرف الأحياء وأعمالهم، وما اتسمت به حياتهم في محيطها العام والخاص، مما بدأت العناية به، وإن كان يبتعد عنه كثير من

المؤهلين لخوضه، إهمالا منهم، أو تواضعا، أو تجنبا لملابسات المعاصرة ومثيراتها، أو انصرافا عن كل ذلك بفروض المسؤولية والتزاماتها القاهرة، لاسيما منهم أولئك الذين شغلوا مواقع بارزة، وسبقوا إلى مواقف رائدة في الميادين المختلفة التي كان لهم فيها الحضور والتميز.

وأستسمح السيد مستشار صاحب الجلالة المجاهد الكبير الأستاذ الصديق أحمد بن سودة، لأقدم اسمه من بين هؤلاء الأعلام الذين تتوق الأجيال إلى كتاباتهم وأحاديثهم وأخبارهم، لما تكشفه من غوامض وخبايا يكملون بها ما عند غيرهم، بما يضيفون إليه أو يصوبون منه؛ وقد يتفردون بمرجعيتها، وتكون لهم فيها الكلمة الفصل.

ولعل معاليه يذكر المرات العديدة التي دعوته فيها إلى إصدار أعماله، لما لها من قيمة أدبية وتاريخية. وكثيرا ما كان يلقي إلي البشرى باقتراب الإنجاز، غير بخيل علي ببعض الفرائد من إبداعاته يتحفني بها مدونة وبالشفاه. ولا أخفيكم كبير تفاؤلي في هذا المضمار، خاصة بعد أن ألهمه الله تأسيس النادي الأدبي ومكتبة أحمد بن يحيى بن سودة. وقد كان افتتاحهما في صيف هذا العام يوما مشهودا في فاس الفيحاء، تردد صداه في كل مكان بهجا بحدثه العظيم.

وها نحن اليوم – ولما تمض على تدشين ذلك المشروع سوى شهور دون عد أصابع اليد الواحدة – نلتئم في لقاء آخر برباط الفتح، للاحتفاء ببواكير المنجزات الموعود بها، متمثلة في سفرين قيمين:

أولهما: عن كفاح الأستاذ أحمد بن سودة، ألفه أخونا الكريم العلامة الباحث السيد عبد الحي حسن العمراني، ضمن السلسلة التي يؤرخ فيها لأبطال الوطنية.

وثانيهما: مختارات من إنتاج الأستاذ ابن سودة قدم لها مؤلف الكتاب الأول.

وإذا كان الشأن في مثل هذا الحفل تقديم مولود جديد يحتضنه القراء والباحثون، معربين عن اغتباطهم بهله وتكريم أهله، فإن من علامات هذا الإعراب إظهار أهمية العمل وماهو مظنون بصاحبه ومأمول منه.

وواضح من عنوان الكتابين أنهما متكاملان، لما يفضيان إليه من إبراز معالم شامخة من حياة - أمد الله فيها - موصولة حلقاتها بلحمة الجهاد في شتى مناحيه، بدءا من النضال السياسي بكل ما يقتضيه ويترتب عنه، إلى التعبير المرهص به والمعرب عنه، في روح من الوطنية والدين لا سبيل بينهما للانفصال.

ولئن كان أحد لا يجهل الدور الريادي الذي اضطلع به سيادة الأخ العزيز - إلى جانب صفوة من المخلصين - في قيادة مقاومة الاستعمار، فإن التاريخ النزيه يأبى إلا أن تسجل ملامح هذا الدور وملاحمه، إثباتا لحقيقته وتذكيرا بها للذين ينسون أو يتناسون، وتعريفا إياها للأجيال الصاعدة والقادمة. وقد كان الأستاذ العمراني - من موقع الخبير المطلع والدارس المدقق والكاتب البارع - موفقا في تسجيل لقطات منها دالة على المواقف البطولية التي كانت لأبي العباس، منذ أن انضم في مستهل شبابه إلى كتلة العمل الوطني ثم الحركة القومية، وعانى محنة السجن أول مرة وهو تلميذ يرتاد العلم في فصول مدرسة ابن غازي وحلقات القرويين؛ إلى أن تمرس بالعمل السياسي في الداخل والخارج، وغدا طليعة فيه، دفاعا عن استقلال المغرب وعقيدته وعرشه، بإيمان صادق وثبات قوي وشجاعة نادرة. وهي صفات جلاها بكثير من الحنكة والإخلاص، وهو يساهم بحظ وافر في حمل أمانة بناء الوطن المحرر في مختلف المسؤوليات الوزارية والسفارية التي أسندها له السلطان المغفور له محمد الخامس نور الله ضريحه وقدس روحه، والتي طوق عنقه بها خليفته ووارث سره جلالة الملك الحسن الثاني أطال الله بقاءه وأدام عزه ونصره.

وبحكم المكانة الفكرية والإبداعية التي يحتلها ابن سودة العلامة

الأديب – وهو سليل أسرة عالمة عريقة وأحد نوابغ جامعة القرويين – فقد كان مؤهلا لإغناء الجانب السياسي من جهاده بمجالات أخرى كان من بينها السعي إلى النهوض بالتعليم الحر تأسيسا وإدارة وتدريسا، والعمل في الميدان الصحافي الذي ذاعت فيه شهرة ما كان يحرره من «خواطر وملاحظات»، وما تعهد به قراء صحيفة «المعرفة» في سلسلة استمد عنوانها الموحي «من غبار المعركة». وما إخال أحدا لا يذكر الافتتاحيات والمقالات التي نشرها في جريدة «الرأي العام» والتي تميز منها ما كان يتقن تطريزه ويجيده في «حديث المفتي» من تحبير نضالي بليغ يسعى ببيانه الساحر الساخر إلى التوعية الوطنية ومواجهة الحماية، متوسلا بأسلوب متفرد يعتمد الرمز العميق والنقد اللاذع.

ولم يكن هذا المنحى في التعبير الهادف المشحون بالسجع والتورية، يحول دون إفصاح صاحبه بمهارة وبراعة وإبداع، وهو يجول في سوح الخطابة التي كان مشهودا له فيها مشارا إليه ببنان الإعجاب والتقدير؛ وكذا في رحاب الشعر الذي جاءت قصائده ومقطوعاته مازجة بين الذات الخاصة والوجدان العام، في روح وطني ديني تفعمه نفحة صوفية شفافة.

ولعلي أن أشير في هذا الصدد إلي الأنماط التعبيرية الأخرى التي برز فيها أديبنا المكافح، وأخص منها بالذكر محاضراته ودراساته والعروض التي ألقاها في مناسبات مختلفة. وقد سعدت في السنوات الأخيرة بالاستماع إلى بعضها، وشدني إليها سعة استحضاره، ودقة استذكاره، ونفسه الممتد الطويل، وتقديره المنصف للعاملين المخلصين من أبناء الوطن مهما يكن لهم من توجه أو انتماء.

وإذا كان «حديث المفتي» قد جمع في سفر طبع مرتين، فإن بقية النتاج السودي ظل موزعا في الصحف والمجلات، مبثوثا في المدونات والمرويات يتطلع القراء والدارسون إلى الاطلاع عليه والإفادة منه.

وهنا تكمن جدوى المختارات التي وقع التركيز فيها على العروض الدراسية الملقاة في الندوات والتي ضمها الكتاب الثاني الذي نغتبط اليوم بتقديمه في هذا الحفل البهيج.

وإنه لحفل قمين بجمعية رباط الفتح أن تشعر فيه بالكثير من الزهو والاعتزاز، وهي تقيمه في هذا البيت الأصيل الكريم، متعاونة في تنظيمه مع جمعية فاس سايس؛ وهو تعاون له دلالة نابعة مما يطبع كفاح السيد أحمد ابن سودة من وطنية مغربية متسعة الآفاق، متسمة بروح العروبة والإسلام؛ في توق صادق - نلتقي جميعا فيه - إلى الوحدة التي لا حدود لها ولا مجال فيها لأية عصبية حزبية أو تحيز فكري أو نعرة إقليمية.

وإن لتلكم الدلالة ما يزكيها في هذا الجو الأخوي، بما يتيحه من مناجاة خلان المحبة الأصفياء، وقد استقام جمعهم رائقا متسقا يلحظه التوفيق وترعاه العناية ويتعهده الوفاء.

ذلكم أنه إذا كانت مدينة فاس قد شهدت بزوغ النجم الأحمدي ساطعا نوره في سماء كواكبها السودية المتألقة، لامعا ضياؤه في آفاق حاضرتهم الزاهرة، فإن عاصمة الفتح قد أظلته بدوحتها اليانعة المورقة، منذ دعاه مولانا أمير المؤمنين حفظه الله ليكون إلى جانبه، فتبوأ رحابها دارا وقطنا، وسكن إلى أهلها الذين زاد تقديرهم لجهاده ما خلف فيهم من طيب الذكر وحسن الصيت وجميل الأحدوثة على مدى عامين قضاهما يدير شؤونهم ويدبر أمورهم عاملا لصاحب الجلالة على إقليم الرباط بدءا من سنة اثنتين وستين.

لهذا وغيره من العوامل الحافزة إلي غامر السعادة وفائق الابتهاج، نعتبر اجتماعنا في هذا الاحتفاء المبارك فرصة لعرض كتابين قيمين سيسدان لاشك فراغا هائلا في الخزانة المغربية خاصة والعربية عامة، ونعتبره كذلك مناسبة لتكريم أحد أبطال الوطن الأفذاذ، خدم بلاده ومازال

يخدمها بكل ماهو فيه معهود من صدق وتفان وإخلاص.

وإذ أثني علي الباحث الصديق الأستاذ عبد الحي حسن العمراني بما هو أهل له وما هو به جدير، فإني أحمد له أن أبرز في مؤلفه الجليل صفحة مشرقة من سفر تاريخ الوطنية الحافل، مكملا ماكان حرره في كتاب له سابق عن الزعيم الوطني المرحوم محمد بن الحسن الوزاني. وما أظنه - بعون الله وتوفيقه - إلا متابعا عمله المهم في حلقات مقبلة عن أبطال آخرين.

وختاما أنتهز هذه المناسبة الكريمة لأتوجه بالتهنئة إلى أخى الكبير الأستاذ أحمد بن سودة أن هيأه الله وقاد خطاه لأداء رسالة هو تعالى وحده يقدرها حق قدرها ويحسن الجزاء عليها، داعيا أن يمتعه بالصحة والعافية، ويديم عليه سوابغ النعم والمنائح، ويبقيه في عز مستمر وسؤدد مطرد.

والسلام عليكم ورحمة الله.

النبوغ المغربي
وتاريخية الأدب العربي في المغرب

* * *

نص العرض الذي ألقي ارتجالا في الندوة التي نظمها فرع اتحاد كتاب المغرب بطنجة تكريما للأستاذ عبد الله كنون، وذلك يوم 13 صفر 1407هـ الموافق 18 أكتوبر 1986م. وقد قامت الأستاذة نجاة المريني بنقله من شريط التسجيل، لينشر في كتاب التكريم.

هذا وبعد نحو من ثلاث سنوات من هذا التكريم توفي الأستاذ كنون، إذ كانت وفاته صباح الأحد 5 ذي الحجة 1409هـ الموافق 9 يوليوز 1989م، تغمده الله بواسع رحمته.

يسعدني أن أشارك في هذا الحفل التكريمي، الذي يقيمه اتحاد كتاب المغرب (فرع طنجة) لأحد رواد الفكر والثقافة في هذا البلد، ولعالم هو في طليعة العلماء العاملين المصلحين. إننا إذا كنا نحتفل اليوم بالعالم الأستاذ عبد الله كنون، فليس لأنه في حاجة إلى هذا الاحتفال أو لأنه يتوقعه، لأنه من صنف أولئك الرجال الذين يعملون ولا ينتظرون الجزاء إلا من عند الله. إننا نحتفل به ونسرع للمشاركة فيه لسببين اثنين:

1- اعترافا لهذا الرجل الذي وهب نفسه لوطنه وللعلم والثقافة.

2- لننبه الأجيال إلى مثل هؤلاء الرجال الأفذاذ، الذين خدموا وطنهم وضحوا من أجل وطنهم.

ثم نحن بهذا وذاك نلغي تلك القولة الشائعة عن المغاربة بأنهم لا يعترفون لآبائهم بالفضل، وأنهم لا يذكرونهم إلا بعد أن تنتهي حياتهم. إننا نثبت بهذا التكريم بأن المغاربة أوفياء، وسيظلون أوفياء في مجال العلم وغيره.

أعترف منذ البدء أن الحديث عن الأستاذ عبد الله كنون صعب، لأنه متعدد الجوانب، تبعا لجوانب شخصيته المتعددة، فهو معلم جيل، داعية مصلح، عالم، فقيه، محدث، لغوي، مؤرخ، وهو بعد هذا أديب، شاعر مبدع، وكاتب بارع، وهو بهذا وغيره وجه من وجوه المغرب في خارج الوطن. الحديث عن الأستاذ كنون متشعب الجوانب، متعدد الآفاق، لهذا سوف أقتصر - في هذا العرض الوجيز - على جانب من هذه الجوانب، وهو الحديث عن كتاب «النبوغ المغربي في الأدب العربي» وعن أهميته.

كتاب النبوغ المغربي لا يمكن أن نتحدث عنه إلا لنقر بأنه فريد في

بابه، وأنه سبق به إلى طرق باب من أبواب التأليف لم تكن معهودة أو معروفة عند المغاربة. الأدب والتأريخ للأدب جديد بالنسبة لاهتمامات المغاربة، ليس لأنهم لم يكتبوا الأدب، بل لأنه مشتت ومفرق في كتب كثيرة ومظان متنوعة، إنه في كتب التراجم والطبقات والتاريخ والرحلات والنوازل والفقه. وأن يأتي عالم متمكن وأن يضع يده على هذه المصادر ليخرج منها شيئا يكون نواة كتاب النبوغ، فعمل جليل له قيمته وله أهميته. ذلك أن الحديث عن الأدب في حد ذاته في فترة تأليف كتاب النبوغ لم يكن درسا أو موضوعا يهتم به كبقية العلوم المتدارسة في المساجد، بل كان هناك من العلماء من يحارب درس بعض العلوم، ومن بينها الأدب. كان درس الأدب إذن يلقى في المناسبات كالمولد النبوي، فتدرس الهمزية والبردة، ثم ينصرف العلماء عن الدرس الأدبي إلى مناسبة أخرى. أما أن يؤلف كتاب في الأدب يجمع أطرافه قبل خمسين سنة فيعد حدثا يؤرخ له في مسيرة فكر المغرب. إنه يختلف عن بعض المحاولات التي عاصرته أو سبقته بعض الشيء. ذلك أننا حين نطرح قضية التأريخ للأدب وننظر في كتاب النبوغ. فإنه ستظهر لنا دون شك قيمته الكبيرة. نعني بهذا أننا سننظر إلى بعض الأعمال الأخرى التي سبقته، وأهمها ثلاثة:

1- المنتخبات العبقرية للمدارس الثانوية. وقد ألفه سنة 1920م أحد العلماء الفقهاء المشهورين، الشيخ محمد السايح، لطلاب المدارس الثانوية، وبصفة خاصة للطلاب المدرسة اليوسفية بالرباط، وهو كتاب يقوم علي تقديم مختارات في الأدب المغربي والأندلسي، أي أنه كتاب تعليمي مهم في بابه، ولذلك فإنه يبقى كتابا مدرسيا.

2- تاريخ الشعر والشعراء بفاس، ومؤلفه الأستاذ النميشي كتبه سنة 1924م، وهو عبارة عن مسامرة أدبية ذات أهمية كبيرة، اقتصر فيها على استعراض أسماء الشعراء في تعريف خفيف قد لا يتجاوز السطرين.

3- كتاب الأدب العربي في المغرب للقباج. وقد كتبه سنة 1929م، وهو

كتاب مهم بالنسبة للفترة التي كتب فيها، غير أنه اقتصر علي معاصريه من شيوخ وشباب. إنه عبارة عن تراجم مختارة، أغلبها كتبها أصحابها بأقلامهم مع نماذج شعرية.

لذلك نتساءل: أين نحن من التأريخ للأدب المغربي في شموليته واتساعه باستعراض هذه المؤلفات الأدبية التي سبقت مؤلف النبوغ للأستاذ كنون؟ يمكن القول بأن الكتاب فتح جديد ومعلمة بارزة متميزة لا يناقش فيها أحد. إن أهمية الكتاب لا تكمن فقط في السبق بالتأريخ لتاريخ المغرب وأدبه، بالنسبة للمؤلفات السابقة، ولكنها تكمن في عناصر ثلاثة:

1- عنصر معرفي أو تعريفي: ففيه يعرف بالأدب المغربي منذ نشأته إلى أقرب مرحلة للمؤلف، منذ خطبة طارق إلى فترة متأخرة. إن الأستاذ كنون يقدم معرفة منتقاة مكتملة، مهذبة. ولا شك أن هذا العمل من الناحية المعرفية له قيمته الكبرى بالنسبة للمغاربة الذين كانوا يجهلون كل شيء عن الأدب المغربي وعن لقطاته المختلفة، وهو بالنسبة حتى للمشارقة وغيرهم يقدم معلومات وفيرة وصورة مكتملة عن الأدب المغربي عبر مراحل تطوره أو عبر عصوره. لقد ألف الكتاب في فترة ألفت فيها كثير من كتب الأدب العربي للمدارس، لا نجد فيها شيئا عن الأدب المغربي، بل إن الغرب الإسلامي كله مهمل وضائع، حتى الأندلس لا نجد لها إلا مكانا ضيقا، وربما، حسب منهج مؤرخي الأدب العربي، لم يجدوا مكانا لهذا التقسيم. أين يضعون الأندلس؟ في أي عصر؟ إن البستاني مثلا يضع الأندلس مع عهد الانبعاث، ومن ثم يظهر أن التصور المنهجي خاطئ فضلا عن جهل إخواننا المشارقة لهذا الأدب.

2- عنصر وطني: إن الكتاب يقدم الثقافة الوطنية والفكر المغربي. إن كنون وهو يؤرخ للأدب وللفكر المغربي يسعى إلى التعريف بالثقافة المغربية عبر العصور في أصالتها وإبداعها. لقد كان للكتاب دور في تحريك الشعور الوطني وبعث الهمم وتحريك الوجدان. فالأستاذ كنون إذن يهدف في كتابه

إلى التوعية الوطنية، لذلك نجد السلطات الأجنبية تمنعه من التداول. لماذا؟ لأنه إشعاع سيعمل على بث روح جديدة في كيان الأمة التي تتطلع إلى الاستقلال.

3- عنصر منهجي: بإدراك ما يعانيه الأدب المغربي من تشتت وضياع. لقد جعل الأستاذ كنون كتابه منسقا ومنظما، إضافة إلى أن له منهجية معينة. إننا الآن مازلنا نتحدث عن المنهج، والكتاب قد طرح هذه القضية قبل خمسين سنة، فهو يمتاز بمنهجية متميزة واضحة في ذهن صاحبها. إنه يصور الرؤيا قبل أن يكون طريقة بحث، وهي رؤيا واضحة. وبالنسبة للمنهج لابد من تحديد عناصره: كون الكتاب يتحدث عن المغرب، هذا لا شك يدخل في نطاق ما يسمى منهجا إقليميا، ليس بالمفهوم الذي طرحه دعاة الإقليمية في الغرب أمثال تين، والذين أرادوا بهذه الإقليمية أن يخضعوا التعبير الأدبي لعناصر البيئة. إن المنهجية الإقليمية في كتاب النبوغ تهدف إلى الوحدة، وهذا واضح في العنوان: النبوغ المغربي في الأدب العربي. إنه خطوة لتكميل الصورة لما يقدمه الآخرون في الأدب العربي، يقول الأستاذ كنون صراحة في مقدمة كتابه مما يدل على رؤيا واضحة: «لم أكن أهدف به إلى تمييز أدب المغرب بميزة ليست في الأدب العربي العام، ولا إلى تخصيصه ببحث مستقل يجعله في نظر المغاربة أو غيرهم كتابا خاصا بأدب قطر من أقطار العروبة على حدة، وإنما كان مقصودي الأهم من تأليفه هو بيان اللبنة التي وضعها المغرب في صرح الأدب العربي الذي تعاونت على بنائه أقطار العروبة كلها. وذكر الأدباء المغاربة الذين لم يقصروا عن إخوانهم من المشارقة ومغاربة بقية أقطار المغرب العربي في العمل على ازدهار الأدبيات العربية على العموم». يتضح من هذه الفقرة التي استهل بها الأستاذ كنون مقدمة كتابه أن الإقليمية في الكتاب مرحلية، وهي خطوة نحو الوحدة الشاملة للأدب العربي.

عنصر آخر في هذه المنهجية هو مفهوم المؤلف للأدب، إذ لا يمكن لأي

باحث أن يدرس أو ينقد دون أن يكون له مفهوم واضح لمادته. إن مفهوم الأستاذ كنون للأدب عام وشامل، هو رديف الفكر أو الثقافة بصفة عامة، فهو يتحدث عن الفقه والفقهاء، والحديث والمحدثين والعلم والعلماء والشعر والشعراء. وهذ العنصر المنهجي ذو قيمة، ليس لأن صاحبه مؤلف ومشارك وعالم وفقيه، بل لأن هذه القضية مازالت تحتفظ بكل صلاحيتها. المفهوم المتسع للأدب لا يمكن إلا أن نربطه بمختلف الخلفيات والحيثيات التي كانت تحفز الأستاذ كنون علي تأليف هذا الكتاب.

من مميزات الكتاب المنهجية أنه يربط الأدب بالسياسة، وهذه قضية كبرى في المنهج، ذلك أن الأمر بالنسبة للمغرب قد يبدو من العسير الحديث عن تاريخ الأدب من غير أن يكون العنصر السياسي مطروحا.

فمن الصعب علاج هذا العنصر الذي ترتبط فيه الأحداث السياسية بالأديب. ومن ثم حاول المؤلف الأستاذ كنون أن يحقب هذه الأزمنة من الفتح الإسلامي إلى العصر العلوي، وسيظل محتفظا بهذا التحقيب. ففي الطبعة الأولى كان هناك تداخل مقصود بين العصرين المرابطي والموحدي؛ وفي الطبعة الثانية عاد المؤلف إلى العصرين فقسمهما، هذا التقسيم السياسي الذي سبق أن اتخذ من طرف المؤرخين انتقد عند كنون. لكن ليس لأنه طرح العنصر السياسي، بل لأن العنصر السياسي الذي وجد في زمان ما حاول أصحابه أن يفرضوه في شيء غير قليل من التعسف على أصحابه. بالنسبة للكتاب فإنه لا يتعسف، فهو يخضع الأدب لهذا التقسيم لجمع الشتات، لذلك لا يمكن أن ينتقد منهجيا أو معلوميا، قد نطرح سؤالا: إلى أي حد يمكن إخضاع الإبداع الأدبي للسياسة؟ إن هذا السؤال ما زال مشكلا مطروحا. هل يخضع الأدب للسياسة أم السياسة هي التي يجب أن تخضع للإبداع. إنها قضية معلقة عمليا، وحين يسير الأستاذ كنون في الخط الذي يربط الأدب بالسياسة فإنه حتما مقتنع بمسايرة الأدب للسياسة، وهذا واضح في كتابه. إنه حين يتحدث عن اهتمام السلاطين والملوك بالأدب والعلم، أو حين

يتحدث عن اهتمامات بعض الملوك وما كان لها من أثر ومن انعكاس على المسيرة العلمية والأدبية، كما حصل في عهد يوسف بن تاشفين، حين نشط الفقه في عهده لاهتمامه به وقيام الدولة المرابطية عليه، كما نشط الحديث في عهد يعقوب المنصور الموحدي لاهتمامه به. وهذا يكشف عن اقتناع المؤلف بأن الأدب يتأثر بالسياسة ويسايرها ويواكبها.

كذلك نجد المؤلف في استعراضه لهذا التاريخ يقف عند أعلام هذا التاريخ، يترجم للعلماء والأدباء والفقهاء والأطباء. إنه يشكل قسما واضحا في الكتاب، فهو يتحدث عن الحركة العلمية وعن العلماء البارزين، ويتحدث عن الأدب وعن الأدباء اللامعين، وهذا عنصر مهم أغنى الموضوع، وأضاف جديدا بالتعريف بالأعلام وبأعمالهم.

والأستاذ كنون لا يكتفي بالتاريخ الاستعراضي في كتابه. إنه يضيف شيئا آخر مازلنا في حاجة إليه الآن، وهو النصوص. إنه يقدم مختارات ونصوصا كاملة يمكن الاستفادة منها بإعطاء صورة عن هذا الشاعر أو ذاك. الأستاذ كنون كان يشعر بأهمية النصوص، فهو حين ألف كتابه في البداية (أول طبعة سنة 1937) جعله قسمين: أحدهما للدراسة، والثاني للنصوص. وعندما أعاد الطبعة سنة 1961م جعل جزءا للمختارات الشعرية وآخر للنثرية.

والمؤلف حين يتناول هذا التاريخ يناقش بعض المشاكل في تاريخ أدبنا، يطرح قضايا شائكة في أدبنا، كقضية خطبة طارق، التي ظلت تناقش إلى سنوات قريبة؛ قضية يوسف بن تاشفين والمعتمد ظل النقاش فيها مستمرا، والمؤلف يزيل الغبار عن كثير من المشاكل ويعرضها للنقاش ويبدي الرأي فيها.

ومن مميزات المنهج في الكتاب أن المؤلف يتدخل في هذا المكان أو ذاك باعتباره ناقدا لهذا الأدب، وباعتباره صاحب رأي أو وجهة نظر. إنه

نقد تدركه في ثنايا الكتاب، وهذا مهم، لأن كثيرا من الانتقادات التي وجهت للمنهج الإقليمي، تنطلق من أنه لا يمكن للأدب أن يخضع للبيئة، وهي لا يمكن أن تتحكم في المبدع، أي أننا حسب هذه الإقليمية، نتعامل مع أشياء كثيرة في التعبير الأدبي إلا المبدع أو الإبداع من حيث هو شيء يعبر عن ذات صاحبه لانصادفه في هذا المنهج. كتاب النبوغ وهو يسير وفق منهج إقليمي يتعامل مع المبدع والإبداع، وبذلك ينجح المؤلف في دحض كل الانتقادات الموجهة إلى الإقليمية في مفهومها الضيق.

باستعراضنا لهذه العناصر الثلاثة الهامة، التي يتميز بها كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي، يمكننا أن نتساءل: أين يمكن تأطير الكتاب بهذه الشمولية المعرفية وبهذا المنهج المتكامل؟ هل هو تاريخ للأدب؟ وكيف هو هذا التأريخ؟ هل هو دراسة الأدب بمنهج تاريخي أم ماذا؟ يمكن القول بأن الذي يتصور أن مجرد تقسيم بحث أو كتاب في الأدب إلى أحقاب سياسية معينة، قد يجعله خاضعا للمنهج التاريخي مخطيء في تصوره، ومن ثم يصعب القول بأن كتاب النبوغ يعتمد المنهج التاريخي. إن المنهج التاريخي هو اعتبار العوامل والمؤثرات الفاعلة في التاريخ، والكتاب لا يدرس الأدب بمنهج تاريخي. تاريخ الأدب هل هو فعلا تأريخ أم شيء آخر؟ إشكالية أخرى: هل المؤرخ للأدب يؤرخ للتيارات السياسية والاجتماعية أم يؤرخ للحركة الأدبية؟ لقد كان الأستاذ كنون واعيا بكثير من جوانب الإشكالية المنهجية. إنه يكتب النبوغ وهو مصنف في تاريخ الأدب، عمد إلى التاريخ للأدباء، والتراجم المقدمة في غاية الأهمية. فمن الناحية المنهجية أن نعرف بهم ونتابع تطورهم، هذا شيء مهم، وكذلك متابعة تاريخ نمط من التعبير كالقصيدة مثلا. لقد كان المؤلف يعي أنه لا يجب أن يؤرخ للأدب فقط، لكن عاد للأدباء فأرخ لهم. لقد كان مقتنعا بصلاحية هذا القسم من المنهج، لذلك فإلى جانب النبوغ كتب «ذكريات مشاهير رجال المغرب». واقتناع المؤلف بهذا العمل هو الذي جعله يقدم تراجم مختصرة في النبوغ

وموسعة في حيز أكبر في ذكريات المشاهير.

إن المؤلف أطر كتابه حين قال في أول جملة في المقدمة (الطبعة الأولى): «هذا كتاب جمعنا فيه بين العلم والأدب والتاريخ والسياسة، ورمينا بذلك إلى تصوير الحياة الفكرية لوطننا المغرب وتطورها في العصور المختلفة من لدن قدوم الفاتح الأول إلى قريب من وقتنا هذا...»، فالتصور المنهجي واضح، يعرف فيه كل شيء، ومن ثم فإن النبوغ يختلف عن الكتب المشرقية في تاريخ الأدب من حيث المنهجية. وارتكاز الكتاب على عنصر التحقيب، تحقيب المرحلة إلى عصور سياسية، عمل له أهميته. ويكفي كتاب النبوغ أنه كان عمدة الدراسين وما يزال، فهو عمدة الطالب والباحث علي الرغم من أن البحث العلمي والأدبي قد تقدم كثيرا. وعلى الرغم من أن الجامعة تقوم بدور فعال في مجال البحث العلمي فإنني لا أخفي – شخصيا –. وقد قدمت أعمالا متواضعة في الأدب المغربي أنني ألتقي مع الأستاذ كنون في كثير من الأشياء، منها البعد الوحدوي لهذه الإقليمية. نحن لا نريد التميز عن الكيان الإسلامي العام، إنما نريد وضع لبنة تكمل الصورة وتوضحها. كما ألتقى معه في مفهومه الواسع للأدب، وهذه قضية عند الأستاذ كنون لم تكن اعتباطية، وإنما هي داخلة في رؤيا واضحة. والذي ينقب في الأدب المغربي وفكره لا محالة يصل لكي يقدم شيئا عن إبداع هذه الأمة إلى التوسل بمنهج يقتضى في أولى أدواته أن يكون له هذا الأفق الواسع المتسع الذي لا يهمل الجانب العلمي والفكري.

حقيقة، نجد في تاريخ المغرب والأدب أن هناك شعراء لم يكونوا إلا شعراء أو كتابا لم يكونوا إلا كتابا، لكن معظم التعبير الأدبي في المغرب كان صادرا عن تلكم الفئة من العلماء والمفكرين والأدباء الذين تميزوا بالمشاركة في كل الميادين. وهذا مما يزيد في قيمة كتاب النبوغ ويجعله دائم الفائدة، فهو عمل علمي جاد، اجتمعت له كل عناصر القيمة المستمرة، وسيبقى خالدا على مرور الحقب والأزمان.

هذه كلمة موجزة أردت بها أن أشارك في هذا التكريم، المقام لفضيلة الأستاذ عبد الله كنون. ومهما قلت عنه لا أستطيع أن أفيه جزءا من حقه. هذا الرجل استفدنا جميعا من علمه ومؤلفاته. وقد أضفت إلي الاستفادة الاستمتاع بمعرفته الشخصية، بلقاءاتي معه في المغرب وخارجه، وأعرف جيدا أية قيمة يمثلها كنون بالنسبة لهذا الوطن. ولا أريد أن أختم هذه الكلمة دون أن أسأل الله له القوة والنشاط والصحة والعافية حتى يستطيع أن يستمر في أداء رسالته. وقد أداها علي أكمل وجه، والأجيال الصاعدة مازالت في حاجة إلى هذه المنارات التي يجب أن يسير الناس على هديها.

الكتابة عن الحركة الوطنية
بين التاريخ والشهادة

* * *

عرض مقدم في الندوة التكريمية التي نظمتها جريدة «العلم» للأستاذ أبي بكر القادري بمناسبة صدور ج 1 من كتابه: «مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1930 إلى 1940» وذلك يوم السبت 30 ذي القعدة 1413هـ الموافق 22 مايو 1993م بقاعة بلدية سلا.

بسم الله الرحمان الرحيم
أخي المجاهد الكبير
أصحاب المعالي والسعادة
حضرات السيدات والسادة

إن سعادتي لكبيرة بالمشاركة في هذا اليوم التكريمي الذي نظمته جريدة «العلم» المناضلة للأستاذ المجاهد الأخ أبي بكر القادري، في هذه المدينة المشهود لها بالسبق في مختلف سوح الكفاح الوطني. ومرد هذه السعادة إلى صداقة حميمة وعميقة تجمعني به، نابعة من محبة موروثة، وثقت عراها روابط فكرية وروحية، وتقوت بالتقائنا في رحاب أكاديمية المملكة. ومردها كذلك إلى إكباري لجهاده الوطني، في اتجاه التعليم إدارة وتدريسا، بدءا من المكتب الإسلامي في الزاوية القادرية إلى مدرسة النهضة؛ وفي اتجاه السياسة ممارسة ومعاناة. وتكفيني الإشارة في هذا الاتجاه أيام الحماية إلي أنه من الموقعين علي وثيقة المطالبة بالاستقلال وأنه من أليفي سجون الاستعمار. ويشار منها في عهد الاستقلال إلى عضويته في مجلس الرئاسة لحزب الاستقلال، ومجلس الوصاية ومجلس الدستور والمجلس الوطني الاستشاري.

يضاف إلى ذلك اعتزازي بحضوره القومي والإسلامي، ودوره الفعال في هذا الحضور، وإبراز الوجود المغربي فيه، سواء علي مستوى مساندة الكفاح الفلسطيني أو علي صعيد المؤتمر الإسلامي؛ وكذا متابعتي لجهوده العلمية وتقديري لكتاباته المتنوعة والمتعددة، بدءا مما نشر في مجلتي «الإيمان» و«الرسالة» اللتين كان يديرهما، إلى مقالاته المنشورة في غيرهما

من الصحف والمجلات، ثم إلى مؤلفاته التي أصدرها في حقول مختلفة:

أ- في الميدان الإسلامي من جوانب مختلفة وهي:

- في سبيل بعث إسلامي.
- في سبيل وعي إسلامي.
- في سبيل مجتمع إسلامي.
- التعليم الأولي في الإسلام.
- دفاعا عن المرأة المسلمة.
- الخمر آفة خطيرة على المجتمع.
- السنة المصدر الثاني للتشريع.
- مبادئ وأصول في التشريع الإسلامي.
- رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم رسالة عالمية خالدة.
- في سبيل وحدة إسلامية.

ب- في نطاق العمل القومي المرتبط بفلسطين، وله فيه:

- المغرب والقضية الفلسطينية.

جـ- في تدوين الرحلات على نحو ما كتب في:

- مشاهدات في الولايات المتحدة الأمريكية.
- ستة أيام في اليابان.
- مذكرات إفريقية وأسيوية.

د- في مجال التعريف بسلا ورجالها ونهضتها التعليمية وكذا بأعلام غيرها، وقد نشر فيه:

- محمد حصار.
- سعيد حجي.
- رجال عرفتهم (1 = زعماء وعلماء).

- رجال عرفتهم (2 = الجريري)
- رجال عرفتهم (3 = عمر بن عبد الجليل)
- رجال عرفتهم (4 = زعماء وعلماء)
- قصة النهضة.

هـ- في رحاب الكفاح الوطني، وقد كتب عنه:

- مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1930 إلى 1940 (ج 1).

هذه كلها محاور تشدني إلى سيدي بو بكر، وتحثني علي تناول شخصيته من خلالها جميعا؛ لولا أن الندوة عينت موضوعا محددا هو: (الحركة الوطنية ومذكرات الأستاذ القادري في هذه الحركة).

لذا، فإني سأتناول جانبا من هذا الموضوع، أديره حول:

«الكتابة عن الحركة الوطنية بين التأريخ والشهادة»

أقصد بهذا العنوان إلى أني أضع هذه الكتابة بين نمطين يبدوان متناقضين، والحقيقة أنهما ليسا كذلك. وهذان النمطان، (ولا أقول هذين الجنسين) هما:

1- تدوين وقائع التاريخ.

2- تقديم شهادة حول هذه الوقائع.

والأمران معا يصبان في التاريخ بمفهومه الشمولي الواسع.

ولعله لا تخفى أهمية التاريخ في إبراز ملامح الذات وفي إثارة الوعي بهذه الذات وفي تكوين الشعور الوطني.

وتاريخ المغرب من هذا المنظور حافل. وحتى حين نتعامل معه في حد ذاته فإنا نجد به غنى يستمده من العوامل المختلفة التي صنعته أو أثرت في صنعه.

وبالنسبة إلى قارئ هذا التاريخ وإلينا جميعا، فإنه معروف في كثير من جوانبه، لاسيما من خلال ما كتب عن وقائع الدول وتراجم الاعلام، وعن

الرحلات والفهارس والبرامج؛ وكذا من خلال كتابات الأجانب، والدراسات والبحوث الجامعية المعاصرة.

إلا أن هذه المعرفة - علي أهميتها - تبقى دون حجم غناه أي غنى تاريخنا، والسبب أن في هذا التاريخ ثغرات تمس بعض الفترات وتصيب ظواهر وقضايا معينة همشت وغيبت، خاصة منها ما كان ذا بعد اقتصادي واجتماعي وفكري، مما يتصل بالبنيات الداخلية.

ثم إن في تاريخنا شوائب من التحريف والتزييف مردها إلى الأجانب والمتأثرين باتجاهات مغرضة.

وتتجلى هذه الثغرات في إشكالية يصادفها كل من أراد أن يقرأ التاريخ أو يبحث فيه، ألا وهي إشكالية مصادره.

وتتمثل المصادر في الكتابات المدونة بجميع الأنواع المشار إليها، وفي الوثائق المكتوبة والروايات الشفوية.

ويمكن تحديدها بالنسبة للمرحلة الحديثة، لاسيما ما يتعلق منها بالحركة الوطنية، في:

1- مناشير الهيآت والأحزاب وتقاريرها وما إليها من خطب ورسائل

2- ما يتداوله الناس ورجال الحركة الوطنية من أخبار ومعلومات.

3- ما كتبته الصحافة الوطنية.

4- ما دونه بعض المؤرخين في ثنايا كتبهم أو في كتب خاصة (وهو كثير يصعب التمثيل له).

5- ما حرره رجال الاستعمار والقائمون على الإدارة من مراقبين مدنيين ورؤساء النواحي، ومعظمه مازال للأسف مجهولا.

6- شهادات العاملين في الحقل الوطني، مما جاء في شكل مذكرات أو ماهو شبيه بها، على حد ما كتب محمد بن الحسن الوزاني، وعلال الفاسي، وإبراهيم الكتاني، رحمهم الله؛ وما كتبه الأستاذان عبد الهادي

بوطالب والحاج أحمد معنينو.

والأسف أن شهادات عاملين آخرين لم تقدم أو قدمت لقطات منها، وضاعت فرصة تسجيلها بانتقالهم إلى رحمة الله.

وأذكر من هؤلاء روادا في الحركة الوطنية أمثال المرحومين: أحمد بلا فريج ومحمد اليزيدي وعمر بن عبد الجليل والمهدي بن بركة وعبد الرحيم بوعبيد وعبد الخالق الطريس.

7- كتابات تجمع بين الشهادة والتاريخ وإن كانت أقرب إلى التاريخ، ويمثل لها بما دونه الأستاذ عبد الكريم غلاب في: «تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب».

من هنا تأتي أهمية كتاب الأستاذ أبي بكر القادري: مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1930 إلى 1940 ج 1.

والمذكرات هي نمط من الكتابة، قد يكون ذا طابع عام أو خاص. وهي في الحالتين تستند إلى الممارسة والمشاهدة والرواية، وتتصرف في ذلك كله بالاختيار والترتيب، وربما بالتحليل والتفسير وحتى النقد. وقد تعتمد على الوثائق تقدمها لتعزيز تلك الممارسة والمشاهدة والرواية.

والكتابة في هذا النمط تقتضي أمرين:

1- الصدق العام النابع من الارتباط بالحقائق التاريخية. ويمكن أن نطلق علي هذا الصدق: الصدق التاريخي أو الموضوعي.

2- الصدق الخاص المتمثل في الخضوع لتجربة الكاتب وما يعتمل فيها من عاطفة، ويمكن أن نصف هذا الصدق بأنه ذاتي، على ما يكون بينه وبين الصدق الآخر من رباط.

إن هذا التوفيق بين الصدقين هو الذي يجعل المذكرات عملا يجمع بين المنحى التأريخي العلمي وبين المنحى الأدبي الفني، من غير أن يرخي الكاتب العنان لذاته.

إلا أننا هنا لا ينبغي أن ننسى طرفا مهما في القضية، ألا وهو المتلقي لهذه المذكرات، فإنه يتطلع منها إلى معرفة الحقائق. ومن ثم فإنه ينظر إليها - أي إلى هذا النوع من الكتابة - بشيء غير قليل من الشك والحذر، لأنه يريدها أن تتحلى بموضوعية صارمة؛ وهذا غير ممكن لسببين:

1- لأن هذا النمط من الكتابة يدخل في نطاق التعبير الذاتي، مع تفاوت في هذه الذاتية.

2- لأن صاحبه يكون إما صانعا للأحداث وإما شاهدا لها أو عليها.

ومع ذلك، تعتبر المذكرات شكلا من تدوين التاريخ في واقعه وأحداثه، وشكلا من حكي التاريخ في بعده القصصي، ثم شكلا من السيرة الذاتية للكاتب.

ونحن في هذا السياق لا نتصور المذكرات إلا داخل إحدى هذه الزوايا الثلاث:

1- استعراض الوقائع والمشاهدات من الخارج ودون إدخال الذات.

2- دراسة تحليلية نقدية تدخل في نطاق عمل المؤرخ الباحث.

3- الحديث عن الذات في نطاق الحدث التاريخي، أي بالجمع بين السيرة الذاتية وبين التاريخ.

والملاحظ في السيرة الذاتية أنها تنبع من الذات في مختلف مراحل نشأتها ونموها وتطورها، وأنها تعبير صريح ولو بما في الذات من سلبيات، وإن كان ذلك قليلا أو نادرا عندنا، أعني عند الكتاب العرب، وأنها كذلك مجال لتضخيم الذات في بعض الأحيان، ومثار للحساسية مع المعاصرين سواء حين الحديث عنهم أو إهمال ذكرهم. ومعروف أن «المعاصرة حجاب» وأن «حجاب المعاصرة يمنع المناصرة».

من هنا كانت كتابة المذكرات صعبة. لماذا؟

لأننا لا نريد الشخص الذي لا يتحدث إلا عن نفسه، أو يتحدث كثيرا

عنها، سواء بصدق أو بكذب؛ ولكن نريد من يتحدث عن نفسه في سياق ما يجعلنا نتجاوب معه.

وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا توافر حد أدنى من الصدق في بعديه:

أ- العام (المرتبط بالواقع المشترك وما فيه من وقائع وأحداث).

ب- الخاص (المتصل بذات الكاتب)

وبذلك يقترب منا هذا الكاتب ونتجاوب معه ونقبل كلامه.

ثم إنه لا ينبغي أن ننسى - ونحن نحتكم إلى هذين البعدين - أن ذاكرة الكاتب الذي يدون مذكرات تستحضر وتنسى. وحين تستحضر فإنها تفعل بشيء من التأمل والتعقل بعد أن تكون مستحضراتها قد تعرضت لتطور قليل أو كثير إذ لم تدون في وقتها، وكذا بشيء من التحيز تكون له دوافع خاصة، أكثرها موضوعية رؤية الكاتب وموقفه وانتماؤه، وما أظنه في ذلك إلا صاحب حرية كاملة، ما لم يدع كتابة التاريخ.

وهنا نجد أنفسنا مضطرين إلى وضع سؤال حول الغاية من كتابة المذكرات، طالما أن الأمر كذلك.

إننا نرى أن غاية كل كاتب مذكرات عن الحركة الوطنية أن يقول كلمته ويعلن ما يعرفه، وقد يكون هذا الذي يعرفه لا يعرفه سائر الناس. ولا شك أن الكاتب يشعر باطمئنان في نفسه وضميره حين يقول هذه الكلمة يساهم بها في تقديم المعطيات اللازمة لكتابة تاريخ الحركة الوطنية.

في هذا الإطار ينبغي أن نضع كتاب «مذكراتي في الحركة الوطنية» للأستاذ أبي بكر القادري، وفي ضوئها ينبغي أن نقرأه. إن المحور في هذا الكتاب ليس ذات مؤلفه ثم وقائع المرحلة، ولكن الوقائع الوطنية، ومن خلالها الذات.

وهذا مهم لأن حضور الذات يصبح تابعا للحدث وليس العكس.

ثم إن الذات في هذه المذكرات هي ذات المؤلف باعتباره فردا، وذات

أكبر، وتتجلى في الهيئة التي ينتمي إليها وما فيها من رواد وأقران وأصدقاء وتتمثل في الحزب. كما تتجلى في المدينة التي هي سلا.

وتجدر الإشارة إلى ظاهرة أخرى يتميز بها الكتاب، وتبرز في نمو شخصية الكاتب مع نمو الحدث أو الأحداث الوطنية، مع مافي ذلك من تشويق تلقائي لم يقصد إليه وما أظنه قصد. وفي هذا ما يعطي للكتاب - باعتباره كتابة وفنا، أي من زاويتهما - بعض خصائص كتابة المذكرات.

وحتى يكون الكاتب في انسجام مع نفسه وقارئه، فقد التزم بمنهج أوضحه في المقدمة وأكده في الخاتمة.

فقد ذكر فيهما أنه لم يقصد إلى تدوين تاريخ الحركة الوطنية ككل، وإنما قصد إلى تسجيل بعض الأحداث التي عاشها أو شارك فيها من قريب أو بعيد. وإدراكا منه لمستلزمات تحقيق هذا الهدف عن طريق كتابة مذكرات، لجأ إلى تقديم جملة اعترافات، منها أنه بحكم التحاقه بالحقل الوطني ولو في سن مبكرة فإنه لم يتح له أن يعيش الإرهاصات الأولى للوطنية، وأنه حين بدأ في الوطنية لم يكن من صانعيها ولا من روادها الأوائل، ولكن كان من الذين تأثروا بأحداثها، وأن انخراطه في العمل الوطني انطلق من دائرة مدينته، وأن أحداثا كثيرة لم يسجلها، لأن الذاكرة خانته، ولأن الوثائق ضاعت منه، ولعدم إطلاعه على الحدث، وقد صرح بذلك لاسيما فيما يتعلق بمنطقة الشمال.

ولكنه مع ذلك كان يسعى إلى الإنصاف والاستكمال.

لهذا كله قال إنه سمى كتابه:

«مذكراتي في الحركة الوطنية»، ولم يسمه «تاريخ الحركة الوطنية».

والحق أن هذه المذكرات تقدم معرفة دقيقة بما جريات الحركة الوطنية على امتداد عشر سنين، وزادها دقة أنها اعتمدت إيراد الوثائق والصور، وأنها تبرز دور مؤلفها في هذه الحركة. وتعتبر بتحقيقها لهذين الهدفين

نموذجا للكتابة في هذا المضمار الصعب، سواء من حيث هي لقطات تسجل للتاريخ أو من حيث هي ملامح لشخصية مؤلفها المجاهد.

فلعله أن يتابع تدوين هذه المذكرات وإخراجها، ولعل غيره من العاملين في شتى مرافق الحقل الوطني أن يبادروا إلى مثل هذا الصنيع، حتى تلتئم صحائف سفر الحركة الوطنية، ويكتمل بهذا السفر منظورنا جميعا ومنظور المؤرخين بصفة خاصة، لحقبة من تاريخنا لاشك أنها غنية وحاسمة، هؤلاء المؤرخين الذين يتطلعون إلى الحقيقة يتلمسونها بين شتات مبعثر وربما متناقض، وذلكم هو مكمن قيمة المذكرات.

فهنيئا للصديق العزيز الأستاذ أبي بكر القادري كتابه، وهذا التكريم الذي يقام بمناسبته؛ ورجاء أن يتابع جهاده وجهوده في صحة وعافية وعمر مديد سعيد.

الترحيب بالدكتور عبد الله العروي في أكاديمية المملكة المغربية

* * *

ألقيت هذه الكلمة في استقبال الدكتور عبد الله العروي عضوا في أكاديمية المملكة المغربية، وذلك في الجلسة العمومية الرسمية المنعقدة في افتتاح الدورة الأولى لسنة 1985 بفاس، يوم فاتح شعبان 1405هـ الموافق 22 أبريل 1985م.

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله
سيدي أمين السر الدائم،
سيادة أمين السر المساعد،
السيد مدير الجلسات،
أيها الإخوة الزملاء،

تغمرني السعادة والمسرة وأنا أؤدي التكليف الذي شرفتموني به فعهدتم إلي بأن أستقبل باسمكم العضو الباحث، المؤرخ الأستاذ الدكتور عبد الله بن محمد العروي المالكي الذي ينتظم في عقد أسرتنا المجمعي بتعيين كريم من راعينا الهمام صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أمد الله في عمره.

وأعترف منذ البدء أن ضيق مجال هذا الخطاب يحول دون استيفاء ما يقتضيه تقديم الزميل الجديد، مما سيفضي بي إلى اختصار أخشى أن يخل بما أهدف إليه من إبراز أهم جوانب شخصيته، وهي شخصية هفت بنبوغها المبكر إلى اكتساب عناصر الغنى والتفرد والتميز. فإذا كان الأخ عبد الله العروي قد ولد بأزمور في السابع من نوفمبر عام ثلاثة وثلاثين وتسعمائة وألف، فإنه لم يلبث بعد تكوينه الأولي في هذه المدينة أن انتقل إلى مراكش ثم إلى الرباط حيث أتم دراسته الثانوية، قبل أن يرحل إلى فرنسا لتلقي تعليمه العالي بمعهد الدراسات السياسية وكلية الآداب بجامعة باريز، مما جعله يحرز شهادة العلوم السياسية سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف، وشهادة الدراسات العليا في التاريخ عام ثمانية وخمسين، والتبريز في الإسلاميات سنة ثلاث وستين، ثم دكتوراه الدولة في التاريخ عام ستة

وسبعين.

وقد أتيح للزميل الكريم بهذا التكوين الدراسي المعمق الرصين، أن يتولى مناصب هامة شغل أولها بوزارة الخارجية، حيث عمل مستشارا في سفارة المغرب بباريز والقاهرة ما بين عامي ستين واثنين وستين. إلا أنه لم يلبث أن التحق بالتعليم الذي بدأه معيدا بمعهد الدراسات العربية في باريز، قبل أن يعين محاضرا بكلية آداب جامعة محمد الخامس التي هو الآن بها أستاذ التاريخ المعاصر، وكان قد حاضر في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلس طوال الفترة الممتدة من سنة سبع وستين إلى سبعين.

وقد واكبت هذه التجربة الجامعية الغنية ممارسة خصبة في مجال البحث العلمي قل لها مثيل بين الأقران، إذ تسنى له أن يصدر مجموعة من المؤلفات القيمة استهلها بكتاب «الإيديولوجيا العربية المعاصرة» الذي نشره بالفرنسية في باريز عام سبعة وستين، وهو مترجم إلى العربية والإيطالية والإسبانية. ثم أتبعه عام سبعين بكتاب «تاريخ المغرب الكبير» الذي نشره كذلك في باريز بالفرنسية قبل أن يترجم إلى الإنجليزية.

إلا أنه سرعان ما أدرك - بحسه الثقافي الوطني ووعيه العميق المتبصر - خطر الوقوع في شرك التعبير باللغة الأجنبية وحدها، وتقييد الذات داخلها، فما كاد يقدم علي مصنفه الثالث حتى دخل ميدان الكتابة بالعربية التي كان أول إنتاجه فيها رواية: «الغربة» التي أصدرها سنة إحدى وسبعين.

وكأني بالزميل عبد الله العروي وهو يطلق قلمه في فن الرواية - كان يسعى ليس إلى التجريب فحسب، ولكن إلى تطويع اللغة الوطنية في هذا الفن وغيره، فتوالى التأليف عنده بها، إذ أخرج في بيروت عام ثلاثة وسبعين كتاب «العرب والفكر التاريخي»، ورواية «اليتيم» التي نشرها في الدار البيضاء سنة ثمان وسبعين. وبعدها أصدر - في طبعات أظنها متعددة -

دراسات ثلاثة عن «مفهوم الإيديولوجيا» و«مفهوم الحرية» و«مفهوم الدولة». كما أصدر في بيروت عام ثلاثة وثمانين «ثقافتنا في منظور التاريخ». ولعل آخر ما نشره بالعربية هو «مجمل تاريخ المغرب» الصادر بالرباط في السنة المنصرمة.

على أنه – وهو يدرك أهمية الاتصال المباشر مع القارئ العربي، ويتحرر من منفى التعبير بلسان الآخر – لم يغفل ضرورة الاستمرار في مخاطبة هذا الآخر بما يقرب إليه هموم الوطن وقضاياه التاريخية والفكرية والسياسية، فنشر بالفرنسية في باريز عام أربعة وسبعين كتاب «أزمة المثقفين العرب» وهو مترجم إلى الإنجليزية، وكتاب «الجزائر والصحراء المغربية» الصادر بالدار البيضاء سنة ست وسبعين، ثم كتاب «الأصول الثقافية والاجتماعية للوطنية المغربية» المنشور في باريز عام سبعة وسبعين. ولم يقتصر تأليفه باللغة الأجنبية على الفرنسية، ولكن تعداه إلى غيرها، إذ صدرت له بالإسبانية دراسة عن «الإسلام العربي ومشكلاته» وقد تم نشرها في العام الماضي ببرشلونة.

إلى جانب هذه الأعمال العلمية والأدبية الجليلة شارك الأستاذ عبد الله العروي في تحرير بعض المواد التي ساهم بها في موسوعات عالمية، يكفيني أن أذكر منها ما كتبه عن «المغرب» في الموسوعة البريطانية، وعن «مفهوم أوروبا» في الموسوعة الكونية بباريز و«الصراع العربي الإسرائيلي» بنفس الموسوعة و«الإسلام في شمال إفريقيا» بموسوعة الأديان في نيويورك.

ولعلي أن أشير كذلك إلى ما كتبه عن «المغرب في القرن التاسع عشر» وعن «المقاومة ضد الاستعمار في المغرب الكبير والصحراء الوسطى من 1880 إلى 1935»، وهما دراستان خص بهما كتاب «تاريخ إفريقيا» الذي يصدر تحت إشراف منظمة اليونسكو.

ولا أخفي أني أجد نفسي مشدودا إلى هذه المؤلفات، ومشدوها في ذات الوقت أمام الخصب الفكري والتحليلي الذي تثيره، مما لو أردت الوقوف عند مختلف جوانبه لاحتجت إلى دراسة تقتضي كثيرا من المناقشة النقدية النابعة من اتفاق الرأي أو اختلافه في بعض القضايا التي يطرحها، والتي ستحيد بي - لو تناولتها - عما أنا بصدده في هذه الكلمة الترحيبية.

وقد استوقفتني من بين تلك القضايا دعوته لتجديد كتابة التاريخ، ذلكم التجديد الذي يتطلب - في رأيه - ظروفا فكرية واجتماعية، فردية وجماعية، لا تتحقق إلا بشروط كثيرة يقتضي توافرها على الأمد الطويل خلق ذهنية معاصرة عند المؤرخين المغاربة، بتوسيع الدراسات المنهجية والأصولية المعرفية وتعميمها، كما يقتضي تأسيس مدرسة وطنية للحفريات تقوم بأعمال منظمة ومبرمجة تتعاون فيها مختلف العلوم الطبيعية والدقيقة والإنسانية، على أن تهم كل الفترات، وليس كما فعلت المدرسة الاستعمارية حين اقتصرت على الفترة الرومانية. وتتطلب تلك الشروط بعد هذا تعميق مستوى التعرف إلى الإلكترونيات، وكذا إقرار الدراسة اللسانية والسيميائية للهجات، حسب توزيعها الجغرافي وتطورها علي امتداد الزمن.

وعنده أن هذه مستلزمات برنامج يسعى إلى تكوين نظرة جديدة لمادة التاريخ وسيرورته، وبالتالي للحقبة كوحدة زمانية متميزة مما سيدفع إلى إعادة النظر في تحقيب ماضي المغرب، باعتبار الحقبة ليست فترة زمانية فارغة، ولكنها وحدة نظرية مستنبطة بعد دراسة للشواهد يتوسل فيها بمختلف التقنيات والمناهج المستحدثة، وباعتبار الحقبة في النهاية تنظيمة يفترض فيها المؤرخ قانونا ذاتيا يحاول الكشف عنه.

وتجديد دراسة تاريخ المغرب بهذه الأبعاد، يتعبر مشروعا موازيا في حقيقته لتحديث المجتمع، سواء في هياكله الاجتماعية أو ما يتوافر له من وسائل عملية وتكنولوجية.

وبمنهج يكاد يقترب مما يراه في عمل الحفريات، يطرح للدراسة والتحليل بعض الإشكاليات التي تندرج عنده في الهموم التي يحملها تجاه وطنه وأمته من موقع المسؤولية الفكرية. ويلخصها موضوع الإيديولوجيا التي حاول أن يزيل غموض مفهومها والتباسه بتحليل تاريخي وابستمولوجي واستقراء في عالم الواقع. وقد أدت به هذه المحاولة إلى أن يرى نشأة هذا المفهوم متصلة بنشأة المجتمع والتاريخ في مدلوليهما الحديث، مما دفعه لينطلق في طرح كثير من القضايا ناقشها بترو وعمق، علي حد ما فعل حين ذهب إلى أن الوعي الإيديولوجي العربي نما خارج حركة المجتمع العربي، مستلبا للمعطيات البنيوية التي أفرزها المجتمع الغربي. وهي ظاهرة أفضت إلى تباين مابين الإيديولوجية والبنية، وأفضت بذلك الوعي إلى التخلف والإخفاق. وهو واقع لا مراء فيه، يحتاج الخروج منه إلى البداية بنقد الفكر التقليدي وتقديم بديل ثقافي تنهض به نخبة مؤهلة، بالاعتماد في ذلك – حسب نظره – على إحياء الفكر الذي يكمن خلف تطور الغرب، لفهم هذا التطور واستيعاب إمكاناته، باعتبار ذلك الفكر خلاصة التجربة الغربية، ووسيلة امتلاك وعي النقد التاريخي.

في نطاق مثل هذا التحليل، وانطلاقا من مواقف فكرية نضجت عند الزميل الكريم في بحوثه ودراساته، يمكن النظر كذلك إلى عمله الإبداعي المتمثل في روايتي «الغربة» و«اليتيم» اللتين سماهما قصتين.

فهو في «الغربة» يثير – متوسلا بالدراما وبمحرك ذاتي هو الحب – قضية احتكاك المغرب الصدامي بأوروبا، مبرزا علاقات متداخلة، اقتصادية وسياسية وفكرية وغيرها، تطرح ظاهرة الازدواجية المجسدة للصراع الحضاري والثقافي، وهو صراع لا ترى الرواية الخلاص منه إلا بالتحرر من شقاء التقليدية.

وتكاد رواية «اليتيم» تطرح نفس النزاع الذي يعتمل في ذات شخوصه

بين الأنا والآخر، ومن خلال هذه الشخوص ومواقعها وظروفها الاجتماعية والنفسية تبرز المعادلة الصعبة التي كان التأمل فيها أقوى من الحسم.

أظنني بعد هذا التناول السريع لمصنفات الأخ عبد الله العروي، في غير حاجة إلى أن أتحدث عن المقالات العديدة التي نشرها في مختلف الصحف والمجلات الوطنية والأجنبية، أو أتحدث عن النشاط الدائب الذي عرف به في مجال المحاضرات والندوات التي يشارك فيها بفعالية وإيجاب، سواء داخل المغرب أو خارجه.

وربما كان آخر ما قدمه في هذا الصدد عرضا قيما ألقاه أواخر الشهر الماضي بالرباط حول (التطورات الأخيرة لقضية الصحراء المغربية)، أكد فيه أن المشكل في حقيقته مشكل صراع أو رهان بين المغرب والجزائر، وأن لهذا الصراع خلفيات كثيرة تمثلت في عدم قبول الجزائر استرجاع المغرب لصحرائه لسبب سيظل قائما في ذهنها مؤرقا لاستراتيجيتها، وهو أن ذلك الاسترجاع غير ميزان القوى في المنطقة لغير صالحها.

ولابدع – والزميل عبد الله العروي يشغل في ساحة النضال الفكري هذا الموقع المرموق – أن يكون لسان حال وطنه ومبلغ خطاب ملكه إلى بعض القادة الذين حمل إليهم في الصيف الماضي رسائل من جلالة الحسن الثاني نصره الله إثر قيام الاتحاد العربي الإفريقي بين المغرب والجماهيرية العربية الليبية.

حضرات الزملاء،

هذا بعض مما أود ذكره عن مسيرة الأستاذ عبد الله العروي الذي تجمعني وإياه رحاب الجامعة منذ نحو عقدين من السنين، لم يزد تواليها مكانته في نفسي ونفس زملائه إلا إعزازا وإكبارا، لما يبذله من جهود في ميدان البحث والدرس والتوجيه، ولما يتحلى به من رأي حصيف وفكر عميق وأفق رحب وخصال حميدة.

وإن هذه المسيرة الحافلة بحسن الأحدوثة وجليل الأعمال لهي مما قد خطاه إلى هذه الأكاديمية، وأضاء له الطريق نحوها، حظيا بالرضى الملكي الكريم.

فليهنأ الزميل عبد الله العروي بالثقة المولوية الغالية، وبالمكان الذي سيتبوأه بين زملائه في الأكاديمية، ولنهنأ جميعا بالتحاقه بنا، يشد الأزر ويقوي العزيمة، ويدعم الجهد، ويساهم في تحمل المسؤولية وأداء الرسالة. ولتبق أكاديميتنا معلمة عالية وذروة شامخة في ظل منشئها وراعيها جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله وأيده.

الترحيب بالدكتور ناصر الدين الأسد
في أكاديمية المملكة المغربية

* * *

ألقيت هذه الكلمة في استقبال الدكتور ناصر الدين الأسد عضوا في أكاديمية المملكة المغربية، وذلك في الجلسة العمومية الرسمية المنعقدة في افتتاح الدورة الأولى لعام 1988 بطنجة يوم 23 شعبان 1408هـ الموافق 11 أبريل 1988م.

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله
سيدي أمين السر الدائم
سيادة أمين السر المساعد
السيد مدير الجلسات
أيها الإخوة الزملاء،

يلتئم عقد أكاديمية المملكة المغربية - كمنضد الدر الفاخر النفيس - ينظم في سلكه صفوة الأعلام من أقطاب العلم والمعرفة وأفذاذ الفكر والأدب الحاظين بكريم إنعام مؤسسها جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله، وبجميل ظنه وغالي ثقته في أن يحققوا متآخين متآزرين - سياقا إنسانيا تلتقي فيه الثقافات وتتواصل الحضارات، على ما بينها من تفرد وتمايز.

وإذا كنا - جميعا - نشعر بغامر الابتهاج وفائق الاعتزاز ونحن نستقبل في هذه الجلسة ثلة من الرصفاء الملتحقين بعضوية مجمعنا التكريمية الدائمة، فإني - شخصيا - لا أخفي عظيم استبشاري بالتكليف المشرف الذي عهدتم به إلي لأنوب عنكم في الترحيب بأحد هؤلاء الزملاء الجدد، هو معالي الأستاذ العلامة الدكتور ناصر الدين الأسد؛ فإن له في نفسي مكانة متميزة ما إخالكم إلا ستشاركونني فيها، كما يشاركني كل أصدقائه وأحبائه والذين يتصلون به من قريب أو بعيد.

ولتسمح لي - أيها الأخ العزيز - أن أبادر في مستهل هذا التقديم إلى القول بأن السبل التي قادت خطاك إلى هذه الأكاديمية وأحظتك لدا راعيها - سدد الله خطاه - كثيرة ومتعددة، لعل أقربها علمك الغزير وأدبك الوفير، وتفانيك في خدمة وطنك وأداء رسالة أمتك، ومانلته من عظيم التقدير وحسن الأحدوثة وجميل الذكر، ثم عواطفك نحو المغرب الذي منحت ملكه

وشعبه خالص الحب وأصفاه.

وقد أسعدني الحظ فاقتفيت أثرك في هذه السبل ولقيتك في بعض شعابها، على الرغم من أنها بالنسبة لي طويلة أو تطول؛ ولمست من سابغ فضلك وعالي قدرك ما يجعلني أتحدث عنك حديث العقل الذي للقلب عليه تأثير، وإن كنت أخشى أن يقصر باعي عن التعبير، فأعجز عن إيفائك الحق وما أنت به جدير.

عرفتك أول الأمر من خلال بحوثك العلمية الرصينة؛ كان ذلك عام سبعة وخمسين وتسعمائة وألف، كنت آنذاك طالبا حديث الالتحاق بكلية آداب جامعة القاهرة، وكنت أنت قد تخرجت فيها قبل ذاك بسنتين، حاصلا على درجة الدكتوراه. ولكن أصداء أطروحتك عن «مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية» كانت ما تزال تتردد في رحاب الجامعة، بل في مصر كلها فأسرعت إلى قراءتها في طبعتها الأولى المنشورة عام ستة وخمسين، ساعيا إلى توضيح الموقف من الذين ضعفوا وسيلة حفظ الشعر الجاهلي ووهنوا طريقة نقله وروايته، فلم ألبث أن اقتنعت معك بأن النظر في المصادر هو الخطوة الأولى الصحيحة التي تسبق غيرها في سبيل دراسة هذا الشعر، وأن بحثه بحثا مجديا لا يتم إلا عن طريق دراسة خارجية أولا تعنى بمصادره جملة في مجموعها، ثم تتتبع تلك التي استقى منها أولئك الرواة خطوة خطوة حتى تصل بين هؤلاء الرواة والشاعر الجاهلي نفسه. وكنت مؤهلا للنظر في تلك المصادر بالدراسة التي أنجزت من قبل في رسالة الماجستير عن «القيان وأثرهن في الشعر العربي في العصر الجاهلي»، وإن لم يتسن لي أن أفيد منها إلا حين نشرتها أول مرة عام ستين.

وقد دل تأليفك عن القيان ثم عن المصادر أن همتك في البحث لا تتعلق بموضوعات سهلة التناول قريبة المأخذ، مما حثك - وقد تمرست بالصعب من الدرس - على خوض غمار مجهولة أو تكاد، فأخذت في التنقيب عن أدب الأردن موطنك الذي أنبتك ورعى نبوغك، وكذا أدب فلسطين التي أتاحت

لك قسطا من التعليم تخرجت به في الكلية العربية بالقدس الشريف؛ وأخرجت بذلك عام سبعة وخمسين كتابا قيما عن «الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن» أتبعته بعد أربع سنوات بسفر نفيس أفردته لجانب محدد من جوانب الحياة الأدبية، هو «الشعر الحديث في فلسطين والأردن»؛ وهما في الأصل محاضرات ألقيتها علي طلاب معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية. وأظنني في غير حاجة إلى الإعراب عن كبير اغتباطي يومئذ بهذين المؤلفين، بما فتحالي من واسع الآفاق المعرفية، وكذا الآفاق المنهجية التي تمس إشكالية إقليمية الأدب في علاقتها بوحدة الأدب العربي عامة. وهو منحى قادك - لوضوحه عندك - إلى مزيد من العناية بالإبداع المحلي، فنشرت عام ثلاثة وستين كتابا عن «خليل بيدس رائد القصة الحديثة في فلسطين»، أخرجت بعده سنة سبعين دراستك عن «محمد روحي الخالدي رائد البحث التاريخي في فلسطين».

وعلى الرغم من أن اهتمامك بإنتاج جنوب بلاد الشام بدا وكأنه أبعدك عن مجال البحث الأول المتصل بالعصر الجاهلي، فإنك بقيت مرتبطا بالتراث العربي الإسلامي تعالج نصوصه بالمقابلة والتحقيق، مما أتاح لك أن تخرج بالاشتراك مع الصديق الدكتور إحسان عباس عام خمسة وخمسين «جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى» لابن حزم، وأن تنشر بعد ذلك على التوالي «تاريخ نجد» لحسين بن غنام سنة إحدى وستين، و«ديوان قيس بن الخطيم» عام اثنتين وستين، و«ديوان شعر الحادرة» سنة تسع وستين، ثم «مختصر» ابن صمادح التجيبي الأندلسي لتفسير الطبري عام سبعة وسبعين.

ولم يقتصر اهتمامك العلمي على التأليف والتحقيق فحسب، ولكنه تعداهما إلى الترجمة التي نقلت فيها من اللغة الإنجليزية إلى العربية بالاشتراك مع نفس الصديق كتاب «يقظة العرب» لجورج أنطونيوس، وقد طبع سنة اثنتين وستين. وفي هذا الإطار راجعت تعريب الدكتور نقولا زيادة للكتاب الذي وضعه مجيد خدوري عن «ليبيا الحديثة»، وكان نشره سنة ست

وستين.

إن جهودك العلمية أكبر وأضخم من أن يستوعبها هذا التقديم. ولو كان المجال يسمح لتحدثت عن محاضراتك الكثيرة ومقالاتك العديدة، ولتوسعت في هذا الحديث؛ ولكن لابد من أن أشير إلى بعض دراساتك اللغوية التصويبية العميقة، ككتابتك عن «عشرينات وعشرينيات» المنشورة في العدد الأول من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، وكتابات أخرى عن «معاجم ومعجمات» و«نواد وأندية» و«وديان وأودية» و«حماس وحماسة»، وهي منشورة في أعداد متفرقة من مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

بهذه البحوث وغيرها مما قد أكون أغفلت ذكره أو اختصرته، تسنى لك أيها الصديق الأود أن تخدم وطنك الأردن الذي حظك القدر فجعل تاريخ ميلادك فيه بالعقبة عام ثلاثة وعشرين مقترنا بإعلان استقلال دولته التي أقام صرحها جلالة الملك المغفور له عبد الله بن الحسين الهاشمي طيب الله ثراه.

وإنك بتلك البحوث لم تؤد الواجب نحو وطنك الصغير فحسب، ولكن أتيح لك أن تؤدي ما عليك كذلك نحو وطنك الكبير، وتشارك في صنع تاريخه الحديث وبناء نهضته الفكرية والأدبية.

ولقد كان هذا الوطن وفيا لك كما كنت أنت وفيا له، وكان معترفا لك بما لم تكن لتذكره أنت عن نفسك أو يذكره عنك الناس من فضل وجميل، فحلاك بأرفع الأوسمة، وأنالك أسنى الجوائز، ومنحك عضوية مجامع ومجالس علمية عديدة، ودعاك لحمل المسؤوليات الجسام، فاتحا أمامك الباب واسعا لتتدرج في مراكز عالية بدأت فيها بمناصب ثقافية في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة من سنة أربع وخمسين إلى تسع وخمسين، ثم توليت عمادة كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية ببنغازي، قبل أن تدعى عام اثنين وستين لتأسيس الجامعة الأردنية في عمان حيث نهضت بتدريس

اللغة والأدب العربيين، وأسندت إليك عمادة كلية آدابها ثم رئاسة الجامعة التي استمر إشرافك عليها إلى عام ثمانية وستين. وفيه عدت إلى جامعة الدول العربية وكيلا لإدارتها الثقافية، فمديرا عاما مساعدا مشرفا على الشؤون الثقافية بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وقد استمر عملك في هذا المجال القومي زهاء عقد كامل. وعلى امتداد سنتي سبع وسبعين وثمان وسبعين تشرفت بتمثيل المملكة الأردنية الهاشمية سفيرا لها لدا المملكة العربية السعودية؛ ثم ألقيت إليك مقاليد تسيير الجامعة مرة ثانية. وفي عام ثمانين أسس جلالة الملك الحسين المعظم المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت)، وأسند إليك رئاسته التي مازلت تقوم بأعبائها يحالفك التوفيق والسداد، إلى جانب مهمة وزارة التعليم العالي التي عينك فيها - أيده الله - منذ سنة خمس وثمانين.

إن المتتبع لهذه المسيرة المجيدة ليأخذه العجب من ملاءمتك النادرة بين متطلبات العمل العلمي الدؤوب في مختلف مجالات البحث والتدريس والتأليف والتحقيق، وبين مشاغل المسؤوليات الإدارية الكبرى التي تتحمل أعباءها، فتبدو وكأنك تغني هذه بتلك أو تلك بهذه؛ بل تبدو وكأن القدر ألقى إليك مقاليد حياتك فصغتها - كما تشاء - مجيدة حافلة بجلائل الأعمال.

وقد حظتني العناية الإلهية فعرفتك - شخصيا - بعد أن عرفتك من خلال كتاباتك. وأذكر أن أول مرة لقيتك فيها كانت في عاصمة الكنانة أوائل السبعين، بمناسبة أحد الاجتماعات التي كانت المنظمة العربية للثقافة تدعوني إليها للمشاركة في أعمال بعض لجان خبرائها المتخصصين. وتوالت الاتصالات بعد ذلك في أرض المغرب، حين كنت تحل به في نطاق دورات اللجنة الاستشارية لمكتب تنسيق التعريب، أو لحضور مهرجانات ومؤتمرات ثقافية تكون فيها بين جلة القوم كوكب النظراء وحلية الأكفاء. ثم بلغت لقاآتنا أوجها على صعيد المجمع الملكي الذي شرفتني بالدعوة إلى جمعه

التأسيسي وماتلاه من مؤتمرات سنوية حضرتها فخورا بالانتساب إليه.

وإذا كانت هذه الاتصالات قد نسجت بيننا علاقات فكرية وروحية متينة، فلست أخفي أني منذ رأيتك لأول مرة، شعرت بالاقتراب منك والألفة إليك، مأخوذا بوقار طلعتك، وبجاذبية شخصيتك التي التقى فيها جلال العلم بجمال الأدب، واجتمعت فيها سعة النفس ورحابة الصدر بصفاء الفكر وجودة الرأي، مع ذهن حاضر وبداهة قوية وإحساس مرهف ولسان مطواع يسخر الخطاب ويمهد الصواب ويذلل القول لينقاد لك بين المنهج سهل المخرج، فتجيد وتتفنن في غير تكلف ولا تعقيد، حتى لكأنه يتابعك ويواتيك في لفظ سليم صحيح، وتعبير مصقول فصيح، وأسلوب بليغ وضيح وفي نقاء يستفظع الغلط والركيك والقبيح. تسحر سامعك إذا حدثت كما تسحر قارئك إذا كتبت، وتجعل كلا منهما يدهش لجمال عبارتك ويعجب لتميزها عن المألوف المتداول، مذكرة بأساليب كبار الكتاب البلغاء ومشاهير الخطباء المفوهين الذين انصاعت لهم مقاليد البيان السلس المرسل، فنفذوا به إلى القلوب قبل العقول. ولست أبالغ إذا قلت إن التعبير الفني الجميل قد انساب لك حتى لإخالك لا تبدع إلا شعرا، بل حتى لإخالك لا تعاني في حياتك وفكرك غير هذا التعبير، تملك ناصيته وتمزجه بالطريف من النوادر والرائع من النكات والحلو من الفكاهات والعذب من الدعابات، تفيد بذلك كله وتتحف وتمتع في نفس الآن.

وهل أفشي سرا إذا قلت إن في حياتك الحافلة جانبا أستسمحك في إثارته، وإن أبيت إلا السكوت عنه في الترجمة التي كتبت بقلمك؛ ذلك هو جانب الشعر. وكيف لا أشير إليه وأنت شاعر بتعبيرك وإحساسك، وبذوقك وعينك كذلك.

وهل تأذن لي - أيها الخل الوفي - أن أربط بين هذا الشعر الرائق وبين حبك للمغرب الذي تعلق عشقه بشغاف قلبك فغدا لا يفارقه ولا يسلوه.

وإن أصدقاءك وأصفياءك وعشاق الشعر مازالوا يرددون قصيدتك الرائعة التي عارضت بها قافية ابن زيدون الزهرائية، ينشدونها ويتغنون بها، وكنت أنشأتها من وحي المهرجان الذي نظم في الرباط لهذا الشاعر الأندلسي الشهير في أكتوبر عام خمسة وسبعين، وأهديتها إلى زميلنا جميعا وصديقنا الأديب المبدع الكبير معالي الأستاذ الحاج محمد أباحنيني، وكان الداعي إلى هذا المهرجان ووزيرا للدولة مكلفا يومئذ بالشؤون الثقافية. ومنها أقتطف هذه الأبيات:

قال ابن زيدون قولا في الهوى راقا ... «إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا»
وافتن في وصفه زهراءه ومضى ... يبثها نفسه وجدا وأشواقا
أحيا لنا ذكرها شعرا نردده ... وكلما زاد عتقا زاد إشراقا
نشدو بأشعاره فيها وننشدها ... حتى أقمنا لهذا الشعر أسواقا
وضمنا في رباط الفتح منه سنى ... في مهرجان سما مجدا وأعراقا
ولم أزل أنكر الزهراء في شغف ... والقلب يهفو إلى الزهراء تواقا
حتى تمثلت الزهراء لي بشرا ... كأنها ملك... كالنور رقراقا

حضرات الإخوة الأعزاء

هل قلت كل ما كنتم تتوقعون أن أنوب عنكم به في الترحيب برصيفنا الجديد؟ وهل ذكرت في حقه جميع ماكان ينبغي أن أقدمه به؟

لا أزعم أني قمت بذلك أو قريب منه، ولكن حسبي فيما ألقيت أن أكون نقلت إليكم بعض ما انطبع في نفسي عن مكانة متميزة لأخ عزيز، لعله أن ينطبع في نفوسكم كذلك. فلنهنأ نحن بانضمامه إلينا في عضوية أكاديمية المملكة المغربية، وليهنأ هو بالتشريف الذي حظي به والتكريم الذي هو به جدير.

وشكرا على انتباهكم، والسلام عليكم ورحمة الله.

الترحيب بالدكتور عبد اللطيف بربيش في مؤسسة آل البيت

* * *

نص الكلمة التي ألقيت في تقديم الدكتور عبد اللطيف بربيش عضوا جديدا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية «مؤسسة آل البيت»، وذلك في أولى جلسات المؤتمر التاسع للمجمع، زوال يوم الثلاثاء 22 محرم 1414هـ الموافق 13 يوليوز 1993م، بالمركز الثقافي الملكي بعمان (المملكة الأردنية الهاشمية)

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

معالي الأخ الأعز رئيس المجمع الملكي الموقر

زملائي الكرام

حضرات السيدات والسادة

من بين دياجي مغالبة قاسية وحوالك مكابدة عاتية، ومن نطاق رحم كليلة أرادتها الأقدار محملة بأحزان آسرة وأشجان مكبلة، انبثق خيط نور رفيع دقيق يشع الإشراق ويشيع الضياء، مبشرا بميلاد فجر جديد يلقي أحرف صحائف كتابه وحكمته، محبرة عبر ما ينفحه آل البيت الأطهار في مشرق الأمة ومغربها، ينثرون ريحان أفانينهم يانعة بهية، وينشرون روح أزاهرهم طيبة ندية، فواحا عبيرها بما يبعث الكوامن والأمنيات ويقوي الهمم والعزمات.

في رحاب المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن الكريم العريق، ومن أبهاء أكاديمية المملكة المغربية وطنكم الحبيب الشقيق، ومنذ ما ينيف على عقد من السنين، انبلج هذا الشعاع بصيص أمل يراود المتطلعين إلى غد باسم رفيه. وهو اليوم يتسع ويعلو قوي الأسباب متين الأوصال ممدود الأفياء مبسوط الظلال.

فما أعظم سعادتنا جميعا في لحظات هذا الحفل البهيج، والعرى التي شدت القطبين النيرين يزيد اليوم أصرها باستقبال اثنين من علماء المغرب

الأماثل الأفذاذ أحظاهما جلالة الحسين المعظم بعضوية المؤسسة الشريفة التي يرعاها حفظه الله بكريم عنايته وسديد توجيهاته.

وإني لأشعر ببهج غامر وقد عهد إلى أن أكون مقدم الرصيف الجديد السيد عبد اللطيف بربيش إلى أخلاء المجمع الموقر، والمرحب به في هذه الجلسة الحفية الحافلة.

زميلي الكريم وصديقي الحميم

إلى أرومة عرب بني حسان ينتمي عزيز محتدك وعميق منبتك، أولئك المعاقلة الذين وفدوا إلى المغرب من شبه الجزيرة العربية في القرن السادس الهجري، ليستقروا في جنوبه وينطلقوا من بلاد شنقيط إلى ما بعدها من الأقطار الإفريقية حتى نهر النيجر، ساعين إلى نشر الدين الحنيف. وما تزال منهم في هذه البقاع أسر تحافظ على اسمها حتى اليوم.

وقد كان قدومهم مبكرا إلى مدينة الرباط حيث اشتهروا بالفضل والخير والصلاح، ونبغ فيهم علماء أعلام أمثال محمد بن عبد الله بربيش المتوفى عام 1316هـ = 1898م، وكان إلى جانب مشاركته المعرفية الواسعة مبرزا في النحو إلى حد لقب ب «سيبويه عصره وشيخ نحاة مصره»، والمكي ابن أحمد بربيش المتوفى سنة 1373هـ = 1953م، ويعد طليعة في الأساتيذ المقرئين وحجة في قراآت الكتاب المبين، وعنه أخذ الوالد بعضها مجازا منه، وحظني السعد فتلقيت في طفولتي جملة من الأحزاب تبركت فيها منه بالتلقين.

في كنف هذا البيت الكريم كان مولدك يوم ثاني صفر سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف هـ، الموافق سابع عشر ماي من عام أربعة وثلاثين وتسعمائة وألف م. وفي أحضانه نشأت وترعرعت، متابعا تعليمك في شتى مراحله، بدءا من مدرسة أبناء الأعيان إلى ثانوية مولاي يوسف وليسي كورو، لتلتحق بعد ذلك بصفوف طلاب الطب في جامعات فرنسا، فتحرز

الدكتوراه من مونبوليي سنة إحدى وستين، وشهادة التخصص في أمراض الكلية والإنعاش الطبي من باريز عام أربعة وستين.

ولا بدع وقد غدوت كامل الأهلية لحمل رسالة نبيلة سامية أن تتألق طبيبا باطنيا في مستشفيات المغرب، وأن تسند إليك رئاسة مصلحة هذا التخصص والإنعاش الطبي في مستشفى ابن سينا بالرباط، ثم أن تكمل عالي تكوينك بنيل شهادة التبريز في الطب الباطني عام سبعة وستين، لتتبوأ بعد ذلك كرسي الأستاذية في كلية الطب بالرباط ومنصب عمادتها.

وفي جميع هذه المجالات كنت بحرص ودؤوب تصرف عنايتك وتجد استطاعتك، تلتمس الوعر فينقاد لك ويأتيك، وتراهن علي المنيع البعيد فيمكنك ويواتيك، وينتظم لك من صعب أمره ما تراود وتروم، فيتسق لك سهلا يسيرا ويستقيم.

وإذا كنت لا أستطيع أن أعدد مكارمك ومفاخرك ومعاليك ومآثرك – وأنى لي ذلك – فلا أقل من أن أشير إلى مفيد تدريسك وسديد توجيهك في روح عربي ونفس إسلامي كنت بهما سباقا إلى تقديم أطاريح بلسان الضاد تشرف عليها وتناقشها، إحياء للبحث العلمي في لغتنا بعد أن ران عليها الإهمال وتوالى الاتهام، وأن أشير كذلك إلى ما أغنيت به هذا البحث من دراسات رصينة، كأطروحتك عن «أسباب تضخم الطحال بالمغرب» وموضوعات مختلفة نشرتها في مجلات محلية وعالمية حللت فيها أمراض الطحال في شمال إفريقيا، وأدواء التسمم وقضايا الصحة العمومية، وداء السرطان والأمراض الدورية وإصابات الكلية؛ وكنت قد أشرفت على أول عملية لزرعها في المغرب سنة ثمان وستين، وأنشأت أول مركز فيه للكلى الاصطناعية عام ستة وسبعين.

بهذا وغيره مما لا يتسع المجال لتتبعه من أعمالك الرائعة النافعة، حظيت بما أنت به جدير حقيق وبه قمين خليق، فحلي صدرك بأعلى الأوسمة

وأرفعها وطنية وأجنبية، وانتظم اسمك درة في عقد مجامع علمية وجمعيات متخصصة مغربية وأوروبية وإفريقية ودولية.

وحظيت قبل هذا وبعد بمكان حللته في كل قلب، إذ تفردت وأنت خل وفاء وخدن صفاء، لا يطوع أي لسان عنك إلا بطيب الذكر وجميل الخبر، فلمع نجمك الساطع وعلا بدرك الطالع، وكنت غرة الأقران وزهرة الإخوان.

طلبت المراتب العلية وتطلعت إلى المراقي السنية، فأدركت العلى وتسنمت الذرى، ونلت من النباهة والجاه ما رقيت به وبلغت الغاية. وأية غاية أسمى من الوصول إلى أجل موقع وأشرف موضع حيث تسعد بالقرب من مولانا أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني يزلفك عنده ويدنيك، ويحظيك لديه ويجزيك، فيعينك في زمرة أطبائه الخواص، ويؤمنك على سر أكاديمية المملكة المغربية، ويعهد إليك بجليل المهمات، يقينا منه – نصره الله – بما تتميز به من نقاء سريرة ونفاذ بصيرة، وما تتحلى به من مضاء عزم ونهوض حزم. وما إيفاده إياك سفيرا لجلالته في الجزائر عامي ثمانية وثمانين وتسعة وثمانين إلا أحد الدلائل على ما أنت به حري أثير.

أيها الرصيف العزيز

هل تراني – على تقصيري في تقديمك – أغفلت شيئا مما يجب ذكره والإشادة به والتنويه؟ لقد حزت الصدارة بين زملائك من طلائع الأطباء الأولين الرواد، واشتهرت بدماثة خلقك ولين طبعك، وبرجاحة عقلك وسماحة شيمك، مع إباء نفس وعلو همة، وفي تواضع جم قل مثيله بين ذوي العلم والجاه. وعرفت بين الناس برقة شعورك ودقة حذقك، وبسداد تشخيصك للأمراض والأدواء، فأشاروا إلى نبوغك في تعليلها واكتشاف خباياها بحس خفي وفراسة موحية. وذاع بين المرضى حنوك عليهم والرفق بالفقراء منهم والإحسان إليهم والسعي الدائم لإسعافهم وإسعادهم. واعترف لك تلاميذك من الأطباء الشبان إذ تبلغهم كوامن المعرفة وتلقنهم أسرار السلوك وتبث

فيهم صدق اللهجة وتنير لهم سبل الممارسة. وشهد لك العارفون أنك لم تتخذ الطب مهنة فقط، ولكنك طلبته علما تعمق البحث في خباياه، وتسبر أغوار شائك قضاياه، وتتوسل لذلك بألوان من المعارف الإنسانية تراها - كما رآها النطس الأقدمون - أس إدراك الحكمة وعلومها التي لا حدود لها ولا فواصل بينها.

وإن شغفك بهذه الحكمة وعلومها وما أتاح الإسلام لها في ظل حضارة راقية وثقافة سامية لفي مقدمة الأسباب التي قربت خطاك إلى هذا البلد المعروف بحسن الإلطاف والإدناء، وجميل الترحيب والاحتفاء، وأحظتك بالانتماء إلى مجمعه الملكي المؤسس في رحاب آل البيت الأصفياء؛ أنت الذي بهم كان دائما تعلق قلبك، وإليهم هفو نفسك، فياضة منهما مشاعر حب صادق وتفان خالص تغمرك وتنديك.

وإن تشريف جلالة الحسين المعظم لك بهذا الانتماء لأكبر دليل على تقديره - أيده الله وأعز أمره - لنبيل شخصك ومميز علمك وعالي مكانتك. فهنيئا لك أخي ما نلت من إكرام وإنعام، وهنيئا لنا جميعا إذ التحقت بنا في انضمام والتئام.

وشكرا لحضراتكم ما تفضلتم به من إصغاء وإنصات. وسلام الله عليكم ورحمة منه تعالى وبركات.

القسم الثاني

وفاء وعرفان

ابو شعيب الدكالي
رائد الإصلاح الفكري في المغرب الحديث

* * *

محاضرة ألقيت في قاعة المسرح البلدي بمدينة الجديدة في نطاق مهرجان دكالة الثالث مساء الإثنين 21 يوليوز عام 1986م. هذا، وكانت وفاة الشيخ أبي شعيب الدكالي ليلة السبت 8 جمادى الأولى 1356هـ الموافق 17 يوليوز 1937م ودفن بضريح مولاي المكي بالرباط.

بسم الله الرحمان الرحيم
سيادة عامل صاحب الجلالة
السادة رجال السلطة والمنتخبين الموقرين
حضرات السيدات والسادة

أود أن أعرب عن السعادة الكبيرة التي أشعر بها تخالجني وأنا أشارك في المهرجان الثالث لدكالة، هذا المهرجان الذي يقام في نطاق الأيام البهيجة التي يحتفل فيها الشعب المغربي بعيد الشباب المجيد وبذكرى ميلاد صاحب الجلالة أيده الله. وهما مناسبتان عزيزتان تصادفان هذا العام احتفال الأمة المغربية بالذكرى الخامسة والعشرين لاعتلاء جلالة الحسن الثاني نصره الله عرش أسلافه المنعمين.

المحاضرة التي أسعد بإلقائها عليكم في أمسية اليوم تتعلق بشخصية نبغت في هذا الإقليم، ولعلها من أبرز الشخصيات التي عرفها المغرب في هذا القرن، وفي أوائله بصفة خاصة؛ تلكم هي شخصية أبي شعيب الدكالي. وسأتحدث عن صاحبها من زاوية محددة باعتباره رائد الإصلاح الفكري في المغرب الحديث.

لكي نفهم الدور الكبير الذي قام به أبو شعيب الدكالي، لابد أن نعرف الظروف العامة التي ظهر فيها، حتى نتمكن من تحديد مكانة هذا الدور وأهميته. وأول ما تجدر الإشارة إليه أن المرحلة التي نسميها المرحلة الحديثة في تاريخ المغرب نحددها في الدرس الأدبي - اتفاقا - ببداية عهد يؤرخ له باحتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م.

ابتداء من هذا التاريخ، تعرض الفكر المغربي، بل تعرض المغرب كله لاختبار شديد سواء على الصعيد العسكري أو الفكري، وكذا على مختلف المستويات التي سيمتحن فيها هذا الفكر، بل ستختبر فيها جميع بنيات المغرب وهياكله السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

حين احتلت فرنسا بلاد الجزائر، وقف المغرب - بحكم روحه الإسلامي ومواقفه المعروفة وشجاعته المعهودة ومساندته الدائمة لإخوانه - إلى جانب الجزائر. ولكن هذا الموقف المشرف جعل فرنسا تضيق به، واعتبرت أن المغرب باتخاذه خرج عن الاتفاقيات التي كانت تربط بين البلدين بأواصر الود والتعاون. ومن ثم أعطت لنفسها الحق والحرية في أن تخرق هذه العلاقات وتتدخل بواسطة الجيش. وبالفعل في عام 1844م كانت حرب إيسلي التي هزم فيها المغرب. وبعد سنوات قليلة، وبالضبط عام 1859م، حاولت إسبانيا أن تجرب حظها لتضرب المغرب، مما جعله يواجه تحديا ثانيا كانت نتيجته احتلال مدينة تطوان لمدة سنتين.

كانت هذه الأحداث بمثابة اختبار عسكري كشف - في الداخل - عن ضعف البنيات التي لم تستطع أن تواجه دولتين كبيرتين: فرنسا من جهة، وإسبانيا من جهة أخرى. وكانت تلكم بداية تلتها أزمات متعددة أفرزت مشاكل كثيرة عاناها المغرب، كمشكل الحمايات الأجنبية والديون وما إليها من ظروف صعبة تخبط فيها طوال النصف الثاني من القرن الماضي وأول القرن العشرين.

ومن حسن حظ المغرب أن الملوك الذين تعاقبوا في هذه المرحلة - ابتداء من المولى عبد الرحمن إلى سيدي محمد بن عبد الرحمن فالمولى الحسن الأول - كانوا ملوكا كبارا. ولهذا استطاعوا أن يواجهوا الأزمة الشديدة الخانقة التي كانت تهدد المغرب في سيادته، وحاولوا أن يقوموا بعمليات إصلاحية. والمفكرون المغاربة كانوا يكتبون ويساعدون في تصور

الإصلاح الذي يمكن أن ينقذ المغرب من الظروف الصعبة التي يتخبط فيها. ومن ثم وجد من العلماء من كتب في إصلاح الجيش، ومن تناول إصلاح الإدارة، ومن بحث في موضوع الحمايات الأجنبية التي كانت منتشرة. إلا أن الأزمة كانت أقوى من كل هذه المحاولات. ومع ذلك، استطاع المغرب بفضل هؤلاء الملوك - ولاسيما الحسن الأول - أن يرد الخطر أو أن يؤجل حدوث كوارثه. ولهذا، وعلى الرغم من كل التحديات، ظل المغرب محافظا على سيادته إلى سنة 1912م حين عقدت الحماية. والحقيقة أن المغرب بهذه الوثيقة لم يفقد سيادته، ولكن قبل أن يكون محميا لدولة أخرى تساعده على تنظيم نفسه، وخاصة في المجالات الأمنية والمالية.

هذا هو الظرف الذي ظهر فيه الشيخ أبو شعيب الدكالي؛ وهو ظرف صعب ومتأزم. لست هنا للحديث عن حياته، أنتم تعرفون قليلا أو كثيرا عن هذه الحياة، ولكني أريد فقط أن أطرح بعض الملامح التي تساعدنا على أن نتصور دوره باعتباره رائدا للأصلاح؛ وهو دور ثقافي فكري كان الرجل مؤهلا للقيام به. كيف كان مؤهلا؟ هناك جملة ملامح يمكن أن أطرحها عليكم، كلها تبرز هذه الأهلية التي كانت للدكالي.

أبو شعيب - كما تخبر ترجمته - ولد سنة 1295هـ أي في عز الأزمة المذكورة؛ ولكنه ظهر بنبوغ مبكر، وهو نبوغ يكفي أن أشير إليه من خلال حادثة بسيطة - حادثة علمية - وقعت له وهو طفل صغير وعمره يومئذ لا يتجاوز الثلاثة عشر عاما، إذ وقعت بالضبط سنة 1308هـ. وتتلخص في أن القصر الملكي - بأمر من الحسن الأول - أعلن أن مباراة ستنظم في حفظ مختصر الشيخ خليل المعروف في الفقه المالكي والمتداول في حلقات الدرس إذ ذاك، وأنها ستجرى بقصر مراكش.

تقدم عدد من المرشحين كان من بينهم الطفل الصغير أبو شعيب الدكالي، ونجح في المباراة، إذ تبين أنه يحفظ المختصر. إلا أن بعض

أعضاء لجنة هذه المباراة أراد أن يختبره اختبارا آخر، فسأله: «هل تحفظ القرآن الكريم؟» أجاب: «نعم وأحفظه بالروايات السبع» قال له: «اقرأ؟» فقرأ سورة الرحمن بجميع هذه الروايات. وصل الخبر على الفور إلي الحسن الأول الذي أمر بإدخاله عليه، فأخذ بنظراته ونباهته وبداهته، وبعلمه الذي تجلى في قوة الاستظهار والحفظ. وأراد مداعبته والزيادة في اختياره، فقدم له سؤالا في النحو، إذ طلب منه أن يعرب جملة هي «الرمان حلو حامض»، قصده أن يثير معه قضية معروفة في النحو تتعلق بالخبر حين يتعدد بالنسبة لمبتدأ واحد. أجابه الشيخ – بل الطفل – أبو شعيب الدكالي، بما أكد للسلطان معرفته ونبوغه. ثم إن الحسن الأول أراد أن يمازحه ويثيره فقال له: «أنت فقيه ولست بنحوي» فأجابه: «أنا أعلم بالنحو مني بالفقه، ولكني أنشد لمولانا قول الشاعر». وأنشد له بيتا فيه تلميح لما شعر به. يقول هذا البيت:

يداك (يخاطب السلطان)

يداك يد للورى خيرها   وأخرى لأعدائها غائرة

هنا تدخل بعض من كان حاضرا في المجلس وقال له: «أفصح؟ ماذا تريد أن تقول لمولانا؟» أجاب: «يكفيني أن أتلو قول الله تعالى: والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات». أعجب به السلطان أيما إعجاب، وضحك كثيرا، وأمر له بصلتين وكسوتين، وكتب له في توقيع ذكر الشيخ أنه يحتفظ به ويعتز: «يضاعف لأبي شعيب، لصغر سنه وكبر فنه».

إذن، كان للدكالي نبوغ مبكر في سن الطفولة قبل أن يتاح له أن يرحل إلى الخارج. ذلكم أنه سافر إلي مصر وأخذ عن علماء الأزهر؛ وزاد فذهب إلى الحجاز وخاصة إلى مكة فأخذ عن علماء الحرم؛ واستطاع أن يبرز فقيها وعالما مشاركا مؤهلا لأعلى المناصب الدينية. وبالفعل عينه الأمير عون أمير مكة خطيبا في الحرم المكي، وعينه كذلك مفتيا للمذاهب الأربعة.

بهذا وغيره اكتملت شخصية الدكالي وقدراته العلمية، وعاد إلي المغرب، وتمت هذه العودة عام 1907م قبيل تولية السلطان المولى عبد الحفيظ. وحين اعتلى العرش في السنة الموالية – وكان عالما كبيرا كما كان ملكا كبيرا وإن كانت الظروف يومئذ أقوى منه – قرب أبا شعيب وعينه في القضاء بمراكش، وأذن له أن يلقي الدروس في مدن متعددة، وخاصة في الرباط وفاس ومراكش، لأنه كان يدرك قيمته العلمية وقدراته الفكرية، ولأنه كان لاشك متجاوبا معه في النزعة الإصلاحية.

وقد تسنى للرجل أن يحتفظ بهذه المكانة في عهد المولي يوسف، وكذا في أوائل عهد الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه. وبعد القضاء أصبح وزيرا للعدلية، وهو المنصب الذي به تسنت له الإقامة في الرباط. ومع هذه الوزارة كلف برئاسة الاستيناف الشرعي، بالإضافة إلى الدروس.

يتضح من هذا أن هناك جملة عوامل: النبوغ المبكر، والرحلة إلي الخارج للاستزادة مما في العالم الإسلامي واكتساب خبرات جديدة، ثم المناصب التي تولاها؛ كل هذه العوامل جعلته شخصية مهيأة للقيام بدور المفكر المصلح.

هنا نتساءل: أين يتمثل هذا الدور الذي قام به أبو شعيب الدكالي؟وكيف نهض به؟ ونجيب على الفور بأنه دور فكري بالدرجة الأولى. ولو أردنا أن نعبر عنه في جملة تخلص ماهيته من خلال العمل الفكري الذي قام به الرجل وما يميزه لقلنا في كلمة إنه الإصلاح أو السلفية.

ولكن كيف أبرز دوره باعتباره رائد الإصلاح ورائد السلفية؟ وكيف قام به؟ الإجابة غير صعبة، لأن الأمر تم له عن طريق التدريس. هنا تطرح العلاقة بين تدريس الدكالي ودوره باعتباره زعيما سلفيا ومفكرا إصلاحيا، ومعها يطرح التساؤل الآتي: كيف استطاع النهوض بهذا الدور عن طريق التدريس؟

أبو شـعيب الدكـالي درس علوما كـثيـرة، ابتداء من النحـو إلى الفـقه فالقراآت، ولكن هنـاك بعض العلوم التي ارتبطت بتلكم الرسالة الإصلاحية، وقلما ينتبه الناس إليها. درس التفسير. والذين تلمذوا عليه وعاشوا في هذه الفترة يعرفون أن التفسير لم يكن يدرس في المغرب. لماذا لم يكن يدرس؟ يبدو أن دراسته توقفت في عهد مولاي سليمان الذي نعرف جميعا أنه كان معجبا بالشيخ أحمد التيجاني. ومرة كان هذا الشيخ في فاس ودخل إلى بعض المساجد، فوجد أحد العلماء – هو الشيخ الطيب بن كيران – يدرس التفسير، فقال للمولى سليمان مستغربا ومستنكرا: «مثل هذا العالم يدرس التفسير؟ سيكون ذلك وبالا وخرابا على الأمة والسلطان».

توقف التفسير منذ ذلكم الوقت، وأصبح يقرأ تلاوة وسردا وليس دراسة علمية. جاء أبو شعيب فأحيى دراسته، وكان يدرسه بتفسير النسفي، وهو معروف. ومن خلال التمعن في القرآن الكريم وآيات الكتاب المنزل بعث وعيا فكريا جديدا، باعتبار الوحي القرآني أول مصدر في مسيرة التصحيح والتقويم، للعودة بالأمة إلى الطريق السليم، بعيدا عن الخرافات ومظاهر الشعوذة التي كانت شائعة يومئذ.

ومن ثم كان إحياء دراسة التفسير لبنة أولى في عملية الإصلاح التي نهض بها أبو شعيب الدكالي، قواها بلبنة أخرى هي بعث الاهتمام بالسنة فأخذ يدرس الحديث. المغاربة في هذه الفترات المتأخرة لم يكونوا يتعاملون علميا مع الحديث النبوي، وإنما كانوا يقرأونه كأن يسردوا صحيح البخاري أو مسلم مثلا، دون إجراء الدرس المتمعن في اللفظ والسند وتناول الأحكام وغيرها. وهذا يعني أنهم كانوا يقرأون الحديث كما يقرأون القرآن، أي يتعبدون به فحسب؛ في حين أن الذي يتعبد به هو القرآن الكريم، وما سواه فإنه قابل للبحث والتحليل. جاء أبو شعيب الدكالي وأدخل دراسة علم الحديث، ودرس كتبه الستة غير مقتصر على الصحيحين. وعن طريق دروسه

الحديثية التي كانت موزعة في كل مكان، وضع لبنة أخرى استطاع بها أن يفتح الأذهان وأن يبعث وعيا جديدا في الأمة.

لماذا أركز على دراسة التفسير والحديث؟ هنا لابد من كلمة حول مفهوم السلفية. هذا المصطلح ينبغي الانتباه إليه، لأنه يستعمل في معنيين اثنين: يستعمل في معنى إيجابي كما هو السياق الآن ونحن نتحدث عن أبي شعيب الدكالي زعيم السلفية أو رائد السلفية. ويستعمل بمعنى قد حي عند الذين يرفضون الرجوع إلى الماضي وإلى التراث؛ فكل ماهو رجعي أو مرتبط بالماضي يقولون عنه إنه سلفي.

إذن مامعنى السلفية؟ هي الرجوع إلى الأصول. ماهي الأصول؟ بالنسبة للإسلام، وبالنسبة للفكر الإسلامي، الأصول هي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. ولهذا كان الدكالي يركز على تدريسهما، ملحا على حك الفكر المغربي من خلال تفسير آية أو شرح حديث. وبذلك استطاع أن يبث الرأي السلفي في أبعاده الجديدة المتفتحة، بواسطة الرجوع إلى الأصل للتغلب على كل السلبيات الذائعة، وعلى كل الشوائب التي تفشت، وعلى كل البدع المنتشرة. وهو تغلب يقتضي الرجوع إلى الإسلام في نبعه الصافي وأصله الحق. ولهذا كان أبو شعيب الدكالي يركز على هذين المصدرين.

ثم إن أبا شعيب، وهو صاحب رسالة تهدف إلى التوعية وإلى بث روح جديد في المغاربة، لم يقتصر على دراسة العلوم الإسلامية مع التركيز على التفسير والحديث، ولكنه كان يدرس الأدب كذلك، إذ درس «أمالي أبي علي القالي» وهو كتاب في الأدب واللغة. سوف تقولون إن الأدب ليس شيئا كبيرا. اليوم توجد إحدى عشرة كلية للآداب في المغرب. نعم، ولكن في بداية القرن حين كان الدكالي يلقي دروسه في الأدب، كان هذا الفن لا يدرس في حلقات المساجد؛ وفي أحسن الأحوال، كانت تستغل مناسبات كالمولد النبوي

فتقرأ «البردة» و«الهمزية» و«بانت سعاد»، وقد يشرحها بعض العلماء شرحا خفيفا. لهذا يعتبر حدثا كبيرا أن ياتي أبو شعيب الدكالي في أوائل القرن ويلقي درسا في المسجد من هذا القبيل يستمر في إلقائه غير مقيد بموسم أو مناسبة.

بذلك يتضح أن فكر الرجل كان فكرا سلفيا اقتضاه الرجوع إلى الأصول، واقتضاه كذلك أن يلجأ فيه إلي التدريس، أي أن يتخذ التدريس وسيلة، لأنه لم يكن كاتبا. وحتى لو أنه أراد أن يكتب لأعوزته وسائل النشر، لأن المغرب في هذه المرحلة التي نحن بصددها لم تكن متوافرة فيه الصحف والمجلات، ولم تكن المطبعة فيه نشيطة. ولهذا، وهو وا ع بالواقع، لجأ إلى التدريس باعتباره خير وسيلة للتبليغ. حين نقول التدريس ينبغي أن نفهم شيئا، ذلكم أن التدريس لم يكن كما هو حادث الآن في صيغة تقتضي من فلان يشتغل معلما في مدرسة ابتدائية أو مدرسا في ثانوية أو أستاذا في جامعة أن يكون له عدد معين من الحصص مضبوطة بساعات تشكل مجموع عمله الذي يتقاضى الأجر عليه. أبو شعيب كان وزيرا للعدلية، ولكن كانت عنده دروس تمتد من الصباح إلي المساء. وإذا سافر إلي مدينة أخرى، فإنه يلقي فيها دروسه.

في الرباط كانت له دروس رسمية، في الزاوية الناصرية، وفي جامع القبة، وفي سيدي العربي بن السايح، وفي مساجد وزوايا أخرى، مما يعتبر عملية جهاد علمي مستمر كان يقوم به الشيخ الدكالي. ولكن سوف تقولون: كان هناك علماء آخرون يشغلون أيضا مناصب ويقومون كذلك بالتدريس، ولم يكن لهم نفس الدور الذي كان لأبي شعيب. هذا صحيح، ولكن هناك عوامل ساعدت الدكالي على أن يقوم برسالته الإصلاحية. هذه العوامل المساعدة كثيرة، يمكن أن نذكر منها مثلا: التفتح الذي تميز به. كان يوجد علماء كبار في ذلكم الوقت يدرسون، ولكنهم لم يكونوا متفتحين، علما بأنه

كان في الرباط يومئذ علماء متخصصون كبار متميزون في نفس الوقت بالمشاركة في شتى المجالات العلمية والأدبية كأبي حامد البيطاوري ومحمد المدني ابن الحسني. كان التزمت يطغى بصفة عامة على الفكر المغربي وعلى العلماء، ليس في فاس فحسب حيث جامع القرويين ولكن في مختلف المدن على الرغم من وجود بعض الاستثناآت كما ذكرت.

وقد اكتسب أبو شعيب تفتحه من عناصر متعددة: أولا بحكم ثقافته الواسعة، لأن الثقافة حين تتسع تساعد على تفتح الذهن. فالرجل لم يكن مجرد فقيه ولا مجرد محدث ولا مجرد مفسر للقرآن ولا مجرد قارئ أو مقرئ لكتاب الله، ولا مجرد نحوي... ولكن كان ذا ثقافة تتسم بعمق التخصص واتساع المشاركة. وزادت في هذه الظاهرة تلكم الفترة التي قضاها في الخارج، ولاسيما في مصر والحجاز. ولا ننسى بأن مصر في هذه المرحلة كانت تعيش حركة إصلاحية كبيرة، وهي الحركة التي برز فيها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ثم رشيد رضا. وقد استطاع الدكالي وهو يحتك بهذه الحركة أن يتأثر بها، خاصة وهو في عنفوان الشباب. وفي الحجاز حدث له نفس التأثر، إذ من المعروف أن الحجاز في هذه الفترة ومنذ عهد محمد بن عبد الوهاب المعاصر للمولى سليمان كانت تسير على المذهب الذي يسمى بالمذهب الوهابي. صحيح أنه وقعت فيه بعض الأشياء التي تتسم بالتطرف، ولكن بصفة عامة، محمد بن عبد الوهاب كان يدعو إلى السنة وإلى العودة للأصول. وهذا ما جعل أبا شعيب الدكالي يستفيد كذلك من إقامته في الحجاز ومن احتكاكه بعلمائه.

ثم إن هناك – ثانيا – عناصر أخرى ساعدت بدورها على قيام أبي شعيب برسالته الإصلاحية. فعلى الرغم من أنه كان وزيرا للعدلية، وعلى الرغم من أنه كان في عهد الحماية يتولي المسؤولية، فقد كان وطنيا. وهذا جانب قلما يتحدث عنه الدارسون، بطبيعة الحال، في هذه الفترة التي

نبحثها، الوطنية مازالت لم تولد بالمفهوم الحديث، أي بالمفهوم الذي ربطها بالعمل السياسي. ذلكم مفهوم لم يتبلور إلا في سنوات الثلاثين، وربما جاز التأريخ لبدايته بأحداث الظهير البربري. ولكن الوطنية التي نتحدث عنها كانت كامنة في الروح وفي العمق وفي الرسالة التي يقوم بها الشخص. ومع ذلك توجد مواقف تسجل لأبي شعيب تدل على وطنيته وعلى صرامته فيها. يذكر مرة أنه كان - وهو وزير - حاضرا في مأدبة إلى جانب المارشال ليوطي الذي تعرفون أنه كان أول مقيم عام لفرنسا بالمغرب. ووضع على المائدة شواء أي كبش مشوي، فالتفت المارشال إلى الدكالي وقال له: «هذا النوع من الطعام لم يعد موجودا إلا في المغرب، أما في الجزائر فإنهم لم يعودوا يعرفون ماهو الكبش المشوي» أجابه على الفور: «ياسعادة المارشال، إن بقيت فرنسا في المغرب، نحن كذلك سنفقد الكبش المشوي». فغضب ليوطي من كون هذا الفقيه الوزير يجيبه ويرد عليه بكلام فيه مس بفرنسا، يعني أنها إن استمرت فستجعل الأمة تفقد مظاهر أصالتها. ومن مظاهر وطنيته كذلك نسوق هنا ما يقال من أنه طلب الإعفاء من الوزارة أو أقيل منها لأنه رفض أن يوقع قرارا بإنشاء دار للبغاء في مدينة القنيطرة. رفض وأخذته الغيرة الإسلامية وامتنع ولزم بيته. الرجل إذن كان وطنيا بكل ما يفهم في الوطنية من حماس وروح وثبات على المبدأ وقول الحق وعدم الخوف من قوله.

أما بعد هذا فإن مما قرب الدكالي إلى الناس - وخاصة في بعض المدن، لاسيما الرباط التي أقام بها مدة طويلة - تلكم اللهجة التي كان يخاطب الناس بها ويؤدي دروسه؛ لأن هذه الدروس كان يحضرها العلماء والطلبة ويحضرها كذلك العوام. والذين عاشوا في هذه الفترة يقولون إنه حين كان يقترب وقت درس أبي شعيب، تمتلئ الزواية الناصرية عن آخرها، ويقفل الناس دكاكينهم ليتمكنوا من الحضور. وهذا يعني أن الرجل كان له جمهور واسع، وأن هذا الجمهور كان معجبا به. بطبيعة الحال كان هناك

العلماء والطلبة الذين كانوا معجبين بعلمه ويستفيدون من هذا العلم، ولكن كان هناك كذلك الذين يعجبون به لأشياء أخرى تجنبهم فيه. من ذلك أن أبا شعيب كان بليغ اللسان فصيح العبارة، مما لم يكن معهودا يومئذ، وكانت له نبرة صوتية خاصة ولهجة متميزة، وكانت له صرامة في التعبير، بل كانت له تعابير ينزل فيها أحيانا إلى المستوى العامي لكي يبسط فكرة ما أو يقرب شرحا معينا للأذهان. في اعتقادي أن هذه المجموعة من العوامل - علمية وذاتية ووطنية وغيرها - جعلت من أبي شعيب الدكالي الشخص القادر على أن يبلغ رسالة إصلاحية، وأن يتوسل في تبليغها بطرق العلم والفكر.

بعد هذا يبقى سؤال: ماهو تأثير أبي شعيب الدكالي طالما أنه لم يحرر ولم يخلف لنا تراثا مكتوبا، وأن كل ما قام به يتمثل في دروس ألقاها على امتداد سنوات عمره؟ مامدى تأثيره إذن؟ ولماذا نصفه بأنه رائد الإصلاح الفكري؟

يمكن القول بأن تأثيره تم على صعيدين اثنين:

أولا على صعيد الرأي العام، لأنه كان عالما شعبيا متصلا بالجماهير التي كانت تقبل على دروسه، أي أنه كان على التحام بها واحتكاك مباشر. وهذا مهم بالنسبة للقيادة الفكرية بل بالنسبة للزعامة كيفما كانت، سياسية أو فكرية. فأبو شعيب بطريقة تلقائية لا افتعال فيها ولا اصطناع، وبعلمه وإخلاصه فيه وصدقه في أدائه، استطاع أن يجلب الجماهير لتلتف حوله، واستطاع عن طريق اتصاله بالجماهير أن يلقح الأفكار. هذا العنصر قد نستهين به اليوم، ولكن ينبغي أن نتصور المغرب في أوائل عهد الحماية كيف كان؟ ليست هناك لا إذاعة ولا تلفزة ولا صحف وطنية، باستثناء جريدة «السعادة» التي كانت لسان حال حكومة الحماية. والتعليم كان محصورا في الكتاتيب القرآنية وحلقات المساجد والزوايا؛ والعلماء يغلب عليهم التزمت؛ والعوام غارقون في الشعوذة والانحراف؛ والحالة متأزمة على وجه العموم.

وقد تعمدت أن أبدأ محاضرتي بالحديث عن بعض جوانب هذا التأزم العام: عسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية. ولهذا كون أبي شعيب كان يخاطب مباشرة ولسنوات طويلة جماهير الأمة وينبه إلى ضرورة العودة إلى الكتاب والسنة وضرورة الرجوع إلي الإسلام الصحيح، والابتعاد عن الخزعبلات والخرافات التي كانت منتشرة؛ كل ذلك يدخل في نطاق التوعية بفكر جديد لم يكن المغاربة يعهدونه من قبل؛ علما بأن التاريخ القريب يحمل بذورا سلفية غرسها ملوك مصلحون كسيدي محمد بن عبد الله والمولى سليمان.

هذا على صعيد الرأي العام، أما ثانيا فعلى صعيد الطلبة والعلماء، فقد خلف أبو شعيب الدكالي تأثيرا كبيرا تجلى في تلاميذه، أولئك التلاميذ الذين نهضوا بالرسالة الإصلاحية وحملوا أعباءها، سواء في مدينة الرباط التي استقر فيها واتخذ بها إقامته، أو في مدن أخرى كفاس ومراكش حيث وجد جيل من الطلبة الذين أخذوا عنه وتأثروا به، وربما ذكر بعضهم ونسي هو. فمثلا نجد غير قليل من الدارسين والكتاب إذا تحدثوا عن الإصلاح وعن السلفية لا يذكرون أبا شعيب وإنما يذكرون أشخاصا آخرين كالشيخ محمد بن العربي العلوي الذي كان كذلك من زعماء السلفية في فاس، ولكنه لم يكن سلفيا في البداية، بل كان تيجانيا متطرفا. إلا أنه بعد أن أخذ علي أبي شعيب الدكالي، أصبح من تلاميذه الذين حملوا المشعل في فاس، مما يبرز فضل الدكالي على هذه المدينة وعلى الحركة السلفية فيها عن طريق محمد بن العربي العلوي، وكذلك عن طريق التلاميذ المباشرين الآخرين الذين حضروا دروس أبي شعيب.

أما في الرباط فقد قام تلاميذه - وهم كثيرون - بنهضة فكرية متشعبة، هي في الحقيقة من غرس يده؛ وكان ذلك في وقت مبكر، أقصد في سنوات العشرين. حين نقول سنوات العشرين ينبغي أن نتمثل حال المغرب وفق ما سبقت الإشارة إليه. وغير خاف أنه منذ عقدت الحماية، والمغاربة

يقاومون في البوادي والجبال وفي كل مكان. واستمرت المقاومة إلي سنة 1935م. وحين وضعوا السلاح تحرك الفكر ليحمل مشعل الكفاح في واجهات متعددة تصدى لها تلاميذ المدرسة السلفية، مما خلق نهضة كانت أساس كل ما عرفه المغرب بعد.

ماهي هذه النهضة؟ وماهي مظاهرها التي تجلت على يد تلاميذ أبي شعيب؟ أولا في مجال التعليم: الذين قاموا بإنشاء مؤسسات تعليمية عصرية أوائل سنوات العشرين كانوا من تلاميذه الذين تخرجوا في مدرسته مشبعين بفكره وبالوعي الجديد الذي بثه فيهم وتحملوا هم مسؤولية توسيع نطاقه. من مجموع تلكم المدارس الحرة، يكفي أن أشير في الرباط إلى مدرسة درب والزهراء والمدرسة المباركية والمدرسة العباسية.

المظهر الثاني كان كذلك في هذه الفترة المبكرة، ويتمثل في الكتابات السلفية. ذلكم أنه وجدت نخبة من تلاميذ أبي شعيب تصدوا لإظهار السلفية والدفاع عن فكرها، ومحاربة الشعوذة والخرافات؛ وهو ما يسمى عادة بالحركة السلفية أو الصراع بين القديم والجديد، أو الصراع بين الطرقية والسلفية، أو المعركة بين الشيوخ والشباب. على أنه لا ينبغي أن يفهم من طبيعة هذا الخلاف أن السلفيين كانوا ضد التصوف، بل إنهم كانوا متصوفة كذلك؛ وأبو شعيب الدكالي كان يحمل سبحة الذكر باستمرار. ولكن هناك فرق بين أن يكون الإنسان متصوفا وأن يكون مشعوذا. ففي هذه الفترة من سنوات العشرين، كانت الشعوذة طاغية، والاستعمار كان يساعد على انتشارها. ولذلك تصدى العلماء السلفيون لتنقية الأفكار ولإبعاد المظاهر الخرافية عن الدين الإسلامي. ومن ثم، فإن الشبان الذين دخلوا معركة السلفية ضد الطرقية لم يكونوا ضد التصوف، ولكن كان لهم موقف ضد المظاهر الخارجة عن الإسلام. وهذا يعرفه من عاشوا في تلك الفترة. من ذلك ما كانت تقوم به بعض الطوائف كحمادشة وعيساوة ومالها من

الممارسات التي كانت شائعة يومئذ، والتي وقف العلماء الشبان ضدها، على اعتبار أنها ليست من الإسلام ولا التصوف في شيء. ولعلي في غنى عن الإشارة إلى كثرة عدد هؤلاء الذين وقفوا يناهضون الطرقية ويقاومون الخرافات ويدعون إلي العودة بالإسلام إلى أصله.

ويكفي أن أذكر من بين أبرز التلاميذ الذين قاموا بالحركة السلفية محمد اليمني الناصري وأخاه محمد المكي ووالدنا المرحوم عبد الله الجراري. هؤلاء تصدوا في تيار السلفية وفي تيار التجديد لمواجهة الذين كانوا يمثلون الاتجاه الطرقي. وقد كانوا - كما قلنا - تلاميذ ملازمين ومخلصين ينقلون الأفكار التي تلقوها عن أبي شعيب الدكالي، ويطورونها لتتكيف مع المعطيات الطارئة في تلكم المرحلة الحاسمة. هذه المعركة - وهي معركة كبيرة في تاريخ الفكر المغربي الحديث بحكم الواقع الذي كان يعانيه هذا الفكر كما سبق القول - كانت تجد لها مجالا في الجزائر حيث كانت الحركة الإصلاحية قوية والحركة الطرقية قوية كذلك؛ فكان كتاب السلفية ينشرون في مجلة «الشهاب» مثلا، وكتاب الاتجاه الآخر ينشرون في مجلة «البلاغ».

إننا اليوم قد نستهين بهذا الدور الذي اضطلع به تلاميذ المدرسة السلفية، ومع ذلك تبقى قيمته الحقيقية، وهي قيمة كامنة ليس في الصراع الذي كان بين فئة تدعو إلى الرجوع للأصول، وفئة أخرى تدعو إلي التشبث بما هو سائد، ولكن في الروح الجديد الذي بعثته في العقل المغربي؛ هذا الروح الذي سوف يخرج من حيز الصراع بين فئتين تتناقشان حول حقيقة الإسلام إلي صراع من نوع آخر يتلاءم مع الظروف الجديدة التي أصبح يعيشها المغرب.

وكان أول اختبار للمدرسة السلفية - أي أول اختبار للمدرسة الشعيبية - وتلاميذها على الساحة الوطنية هو حادث الظهير البربري

الصادر في 16 مايو عام 1930م. ذلكم أن الذي تصدى له في بداية الأمر، ووقف يخطب في الناس ويوعيهم بخطر القضية، كان من تلاميذ الشيخ، وهو الذي نادى بعبارة «اللطيف» التي غدت مشهورة، بل غدت سلاح المغاربة في كل أحداث المقاومة، وفيها يقول والدنا رحمه الله: «اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر».

على أن أهمية أحداث الظهير البربري تكمن في أنه استطاع أن يخرج بالعمل الفكري الصرف إلى مجال العمل الوطني السياسي. من هنا فإن الظهير البربري يعتبر في الحقيقة نقطة تحول من العمل الثقافي الذي كان يقوم به العلماء في المساجد عن طريق بث الأفكار والتوعية إلى عمل له صبغة وطنية سياسية تتلاءم مع متطلبات المرحلة الجديدة وما أفضت إليه وضعية الاستعمار بعد أن أوشكت المقاومة المسلحة على أن تتوقف.

لم يقتصر الدور الذي قام به تلاميذ مدرسة أبي شعيب الدكالي على خوض المعركة السلفية وعلى البروز في الظهير البربري وعلى إحداث المدارس، ولكن تعدى ذلك إلى فتح آفاق جديدة أمام الفكر والإبداع في المغرب، على الرغم من طغيان الجمود يومئذ، أقصد في سنوات العشرين. وسوف تستغربون إذا عرفتم أن بعض تلاميذ الدكالي استطاعوا أن ينشئوا فرقا مسرحية، وأن يؤلفوا مسرحيات، وأن يتصلوا بالجمهور عن طريق المسرح.

فالمسرح الذي نعتز اليوم بوجوده - ونحن نلقي اليوم هذه المحاضرة في إحدى قاعاته - لم يكن موجودا ولم يكن الناس يعرفونه في تلكم الحقبة. فأن يأتي بعض تلاميذ هذه المدرسة ويكتبوا مسرحيات فيها قصص وطني، وفيها توجيه للفضائل والأخلاق وحث على العلم، وفيها نتيجة ذلك مواجهة الاستعمار، كل ذلك كان شيئا مهما، ومهما إلى حد بعيد.

ذلكم - حضرات السادة - هو الدور الذي قام به أبو شعيب الدكالي،

انطلاقا من ثقافته المتفتحة المتسعة، وانطلاقا من تشبعه بالفكر الإصلاحي الجديد الذي أخذه مباشرة من منابعه. لكن حين نقول إنه أخذه من منابعه - أي من الحجاز ومصر - ينبغي أيضا أن نعرف أن المغرب كانت له مبادرات في مجال الفكر السلفي، إلا أنها مبادرات لم تتح لها فرصة الانطلاق. وقد سبق أن أشرت إلى أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان سلفيا، وأن السلطان المولى سليمان كان سلفيا كذلك، وهو صاحب رسالة كتبها ضد البدع ينتصر فيها للسنة؛ إلا أن ظروف المغرب التي كانت تتأزم يوما بعد يوم حالت دون أن تثمر هذه البذور لتنتج فكرا جديدا تتولد عنه مدرسة أو اتجاه حتى يكون فعالا.

ولهذا فإن أبا شعيب الدكالي - بعلمه وعمله وتجربته وتفتحه وما اكتسبه من خبرة، وكذلك بالمدرسة التي أنشأها، وبالتلاميذ، وبالوعي الذي خلفه في الأمة - بهذا كله استطاع أن يكون بحق وجدارة رائد الإصلاح الفكري أو الفكر الإصلاحي في المغرب. ولا يناقش في ذلك إلا جاهل بتاريخ المغرب. لماذا أقول هذا الكلام وأكرره؟ لأن بعض الذين يتحدثون عن السلفية وعن هذه المرحلة يهملون ذكر أبي شعيب ويذكرون أشخاصا آخرين هم من تلاميذه أو ممن يمكن أن يعدوا كالتلاميذ.

والآن، ونحن نتحدث عن هذه الفترة بعد أن أصبحنا نجني ثمارها، لأن تلك النهضة بحركتها التعليمية وبدورها التصحيحي وبمقاومتها الوطنية كانت ثمرة للوعي الذي بثه أبو شعيب الدكالي وأمثاله الذين كانوا مجندين للتدريس. أقول إننا الآن ونحن نجني ثمار هذا كله، من حقنا أن نؤدي ما علينا نحو أولئك الرواد.

إن أبا شعيب الدكالي لن تكفي فيه أن تلقى حوله محاضرة أو يكتب عنه مقال أو مؤلف. إنه في الحقيقة يستحق أكثر من ذلك؛ وينبغي أن تجند طاقات فكرية لجمع تراثه. وكان ولده العلامة المرحوم عبد الرحمن الدكالي

قد ذكر لي أن له مجلدين يضمان ما كتب علماء المغرب والمشرق عن والده، يعني شهادة لصالح أبيه. أين هما الآن هذان المجلدان؟ قبل أن آتي إلى هذه المحاضرة زرت مقر المجلس العلمي لإقليم الجديدة، ووقفت على المكتبة القيمة التي كان حبسها عليه المرحوم عبد الرحمن الدكالي، واطلعت على بعض الأوراق لاشك أنها من هذين المجلدين. ولكن في مثل هذا المهرجان وفي مثل هذه المناسبة، لا ينبغي أن نستمع إلى كلام ثم ننساه. المسؤولون - سواء في المجلس العلمي أو المجلس البلدي أو على صعيد العمالة - مدعوون جميعا للتعاون في هذا الصدد. ينبغي أن تتكون هنا لجنة لجمع تراث أبي شعيب؛ بل ينبغي - وأعطي لنفسي هذا الحق وأغتنم وجود زميلي الأستاذ الدكتور محمد الديباجي عميد كلية آداب الجديدة حاضرا بيننا - أقول ينبغي أن يخصص كرسي في كلية الآداب لأبي شعيب، وأن يقام مدرج باسمه، لأن أبا شعيب الدكالي يستحق أكثر مما قيل أو كتب عنه. أسوق هذا الكلام وأنا أعرف وأنتم جميعا تعرفون أن الذي كتب عن أبي شعيب وعرف به هو والدنا رحمه الله. عرف به في كتاب «الإعلام» ثم كتب عنه عددا في سلسلة «شخصيات مغربية». ولكن أبا شعيب الدكالي مازال في حاجة إلي دراسات موسعة نقوم بها نحن أبناء هذا الجيل، نحن الذين نجني اليوم ثمار الفكر الجديد الذي بثه الرجل وأمثاله طوال هذا القرن. إن علينا واجبا يقتضي منا أن نتجند لكي نجمع هذا التراث وندرسه، وحين أقول التراث أعني جميع ما يتصل به وبمدرسته وتلاميذه وما صدر عنهم من حركات تجديدية. ومدينة الجديدة أصبحت فيها كلية للآداب، وكثير من الطلبة الجديديين يدرسون عندنا في الرباط لإنجاز مرحلة الدراسات العليا. ويمكن، بل ينبغي أن تنجز دراسات جامعية مستوفية لمختلف شروط البحث العلمي حول أبي شعيب والدور الذي قام به، لأنه لو كان كاتبا لخلف مكتبة ينكب عليها الدارسون اليوم لبحثها وتسجيل أطروحات حولها، ولكنه لم يخلف إلا تلاميذ، وهؤلاء عاشوا في فترة انتهت الآن، وكان بعضهم قد أدى الرسالة.

لهذا نحن مطالبون بأن نتتبع السلسلة ونتمعن في الدور الذي قام به الشيخ وتلاميذه، ونفرد لذلك دراسات. وإني سعيد بوجود طالبة أخبرتني قبل الدخول إلى القاعة أنها كتبت بحث الحصول على الإجازة حول حياة المرحوم عبد الرحمن الدكالي وشعره، مما يكشف عن الوجه المشرق الذي لهذه الأسرة في إقليم دكالة وعلى صعيد المغرب كله.

وأظنني في غنى عن القول بأن أبا شعيب الدكالي يعد في الحقيقة من كبار علماء الإسلام، ويعتبر رائدا ليس فقط للفكر الإصلاحي المغربي، ولكن رائدا للفكر الإصلاحي الإسلامي عامة، لأنه ألقى دروسه في الأزهر وفي الحرم المكي وفي غيرهما، بل في كل مكان زاره. وكان في تلك الدروس ينشر الفكر الجديد ويبث الوعي بهذا الفكر، ولهذا فنحن حين نعلي شأنه أو نحيي ذكراه، فإننا بذلك نرفع رأس المغرب عاليا وسط العالم العربي والإسلامي. وأكرر القول فأرجو - ليس فقط من حفدة الشيخ ومن الذين ينتمون لأسرته، ولكن من جميع العاملين المخلصين في هذا الإقليم ابتداء من سيادة العامل، إلى المجلس العلمي والمنتخبين، إلى كلية الآداب والجامعة - أن يتعاونوا جميعا لإبراز الدور الحقيقي الذي قام به هذا الشيخ المصلح الرائد.

وشكرا لكم، والسلام عليكم ورحمة الله.

جلسة مع مولاي مبارك

* * *

عرض مقدم في الندوة التي نظمتها كلية اللغة العربية بمراكش يومي 12, 13 جمادى الأولى 1414هـ الموافقين 28, 29 أكتوبر 1993م في موضوع «ثلاثون سنة في خدمة التراث العربي الإسلامي» وذلك بمناسبة مرور ثلاثين سنة على تأسيس كلية اللغة العربية 1963-1993م وقد كانت وفاة مولاي مبارك بمراكش يوم السبت 26 رمضان 1381هـ الموافق 3 مارس 1962م.

بسم الله الرحمان الرحيم

في هذا العرض الذي يسعدني معتزا أن أشارك به في هذه الندوة الموقرة، سوف أتناول لقطات من جلسة علمية سجلها والدي، جمعته بمولاي مبارك العلوي الأمراني في منزل صديقهما أحمد بن العياشي سكيرج بسطات، رحمهم الله جميعا.

وهي جلسة تنم عن جوانب من شخصية مولاي مبارك ومدى الإشعاع الذي كان لجامعة ابن يوسف[1] من خلاله، وهو يومئذ رئيس مجلسها العلمي.

وأود أن أشير في البداية إلى أن الوالد تحدث عن ابن يوسف في كثير من مؤلفاته، على نحو ما ورد في:

1- رحلته «عشرة أيام في مراكش»، وهي كلها عن هذه المدينة الجميلة. وقد اتخذها الأستاذ عبد المجيد عينية موضوعا للعرض الذي يشارك به في هذه الندوة.

2- «الرحلة السطاتية» التي ضمنها الحديث عن اجتماعه بمولاي مبارك.

3- «التأليف ونهضته بالمغرب في القرن 20»، حيث ترجم لعدد من المؤلفين المراكشيين، منهم:

أ- محمد بن إبراهيم السباعي ت 1913م.[2]

---

(1) تم بناء جامع ابن يوسف عام 514هـ في عهد علي بن يوسف اللمتوني.
وفي سنة 1938م دخله النظام الجديد. وفي سنة 1942م أحدث فيه السلك العالي.
(2) ص 80.

ب- محمد التهامي بن عبد القادر المراكشي ت 1917م.[3]

ج- محمد بن عثمان المسفيوي الذي تولى رئاسة المجلس العلمي لابن يوسف، وقد توفي عام 1945م.[4]

د- محمد بن محمد الموقت ت 1949م.[5]

هـ- عباس بن إبراهيم ت 1959م.[6]

و- محمد بن عبد الرازق.[7]

ز- عبد الله إبراهيم.[8]

ح- عبد القادر حسن.[9]

4- «بطل التحرير» حيث تعرض للتنظيم الجديد لابن يوسف عام 1357هـ الموافق 1938م[10] وللزيارة الملكية لها عام 1945م[11].

5- الجزء الأول من «أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين»، وفيه تناول هذه الزيارة بتفصيل[12]، واقفا عند تدشين بعض المدارس الحرة كمدرسة بني دغوغ ومدرسة الفلاح والمدرسة العبدلاوية ومدرسة القصبة، وما قدم في مهرجان ابن يوسف من أناشيد ومحاورات، خاصة المحاورة الشعرية التي أنشأها محمد بن إبراهيم بعنوان «بين القديم والجديد» والتي ألقيت أمام

(3) ص 122.
(4) ص 169.
(5) ص 215.
(6) ص 321.
(7) ص 167.
(8) ص 390.
(9) ص 378.
(10) ص 9.
(11) ص 70.
(12) ص 107 فما بعد وص 113 فما بعد.

مولاي الحسن الذي كان يومئذ وليا للعهد، وكذلك الكلمة التي ألقاها الطالب محمد رحال باسم زملائه في الكلية اليوسفية. وساق المؤلف كذلك بعضا من قصيدة مولاي الطيب المريني ثم قصيدة المرحوم أحمد النور أثناء زيارة سمو الأمير لمدرسة الباشا.

6- «هذه مذكراتي» حيث تحدث عن مراكش في أماكن متفرقة من جزءيها المرقونين.

وسوف أقتصر في هذا العرض على ما كتبه في رحلته السطاتية عن جلسة جمعته بأحد أعلام مراكش تولى رئاسة المجلس العلمي لابن يوسف، كما تولى رئاسة المجلس العلمي للقرويين. إنه مولاي مبارك الحسني العلوي الأمراني.

1- سماها «الرحلة السطاتية» نسبة إلى مدينة سطات التي كانت إليها الرحلة.

2- قام بها ابتداء من 20 جمادى الثانية 1357هـ الموافق 18 غشت 1938م.

3- قضاها ضيفا على صديقه الفقيه الأديب القاضي أحمد سكيرج (ت 1363هـ الموافق 1943م ودفن إزاء القاضي عياض)؛[13] وكان يومئذ قاضيا بسطات.

4- وهي تتضمن مذاكرات علمية وفوائد أدبية كثيرة.

5- وقد سجل فيها كاتبها مجموعة من المعطيات تعرف بالقاضي سكيرج ومؤلفاته وتقريظه لبعضها، كما دون نصوصا شعرية من إبداع القاضي،

---

(13) انظر ترجمته في:

أ- الأدب العربي في المغرب الأقصى لمحمد بن العباس القباج ج 1 ص 56 طبعة الرباط 1347هـ الموافق 1929م.

ب- التآليف ونهضته بالمغرب في القرن 20 لوالدنا رحمه الله. ج 1 ص 42 الطبعة الأولى الرباط 1406هـ الموافق 1985م.

لاسيما تلك التي قالها معربا عن عواطفه نحو مؤلف الرحلة.
6- وتحدث كذلك في هذه الرحلة عن بعض زوار القاضي أثناء المدة التي قضاها عنده في سطات.
7- من هؤلاء الزوار: مولاي مبارك العلوي، وكان برفقة مولاي العربي بن الحسن العلوي[14].
8- يصف صاحب الرحلة هذا اللقاء[15] وما راج في جلسته من مذاكرات تناولت موضوعات أربعة:

الأول: التغني بالقرآن الكريم.

الثاني: الافتاء والمفتون.

الثالث: التأثر بالطرب.

الرابع: صوت المرأة وهل هو عورة.

كان الدخول إلى الموضوع الأول - وهو التغني بالقرآن الكريم - على إثر ماجاء في تقديم القاضي سكيرج صديقه الجراري لضيفيه بقوله: «وهو اليوم يقرأ القرآن بمذيا ع المغرب ونعمت التلاوة إذ أخذت حظها من التجويد والإتقان، بيد أنني أرجو إضافة شيء من التغني بآي الذكر الحكيم».[16]

وبعد أن أبدى صاحب الرحلة رأيه في الموضوع، متحدثا عن مقتضيات التلاوة الصحيحة، انتهى إلى أن التزام هذه المقتضيات «لا يترك القارئ يترنم ويتغنى حسب طبع من الطبوع الموسيقية التي لا يلبث القارئ لو سلكها أن يقع في الإثم إذا هو اندفع يتلو غير مكترث لقواعد

(14) تولى فيما بعي مندوبية المعارف ثم باشوية سطات وكانت وفاته يوم الخميس 27 جمادى الثانية 1370هـ الموافق 1951م.

(15) من ص 24 إلى ص 30.

(16) ص 24.

التلاوة».[17]

هنا تدخل مولاي مبارك مبينا «أن الجراري يميل إلى مذهب مالك... الذي لا يقول بالتلحين في قراءة القرآن إذ يعد الغناء والتلحين نوعا من الهزل المنزه عنهما القرآن العظيم. أما الإمام الشافعي فإنه يقول بالتلحين في التلاوة. كذلك تجد الشافعية في مصر وغيرها يترنمون بالتلاوة ويلحنونها بما يدفع السامع لاستعذاب السماع فالاتعاظ».[18]

واستمر مولاي مبارك في عرض جوانب هذه القضية فأشار إلى رأي أبي بكر بن العربي المعافري الذي أيد التغني في «أحكامه» لدا قوله تعالى في الآية 10 من سورة سبأ: «ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير».

وقد ساق الجراري في رحلته نص كلام ابن العربي مع الإشارة إلى أن المواق نقل منه في شرح مختصر خليل، كما ساق ما جاء في الموضوع عند القرطبي في الجزء الأول من تفسيره،[19] حيث «أتى بكل ما ورد دالا على الترجيع والتلحين، غير أنه مال لمذهب الإمام مالك كابن حنبل. وساق تأويلات جمهرة من العلماء للأحاديث الواردة في التغني بالقرآن، كحديث: زينوا القرآن بأصواتكم، وحديث: ليس منا من لم يتغن بالقرآن. قال العلامة القرطبي في آخر بحثه: والترجيع في القراءة ترديد الحروف كقراءة النصارى، والترتيل في القراءة هو التأني فيها والتمهل وتبيين الحروف والحركات».[20]

وأما الموضوع الثاني فدار حول «مسألة الإفتاء والمفتين». وفيها أبدى

---

(17) ص 24.
(18) ص 25.
(19) ص 8-14.
(20) ص 26.

القاضي سكيرج ما يظهر له من «أن الإفتاء في العصر الحاضر لم يبق له كبير جدوى حيث تهيأ المجلس الأعلى لاستيناف الأحكام الشرعية»[21].

واستمرت المذاكرة تتناول ما «عليه مفتو الوقت من التكالب على ما بأيدي الخصوم، لا عليهم في حقوق العباد حتى لتجد المفتي الواحد يفتي للخصمين في آن واحد»[22].

هنا «يسرد الشريف مولاي مبارك قصة عن قابادو[23] الشاعر التونسي المشهور حيث قال بعض التطوانيين:

أصبحت يا قابادو فينا مفتيا غلط الزمان بذاك أم جن الفلك

إن كنت تفتي بالقريض فربما أما بشرع محمد من أين لك

ولقد أحسن هذا المغربي إذ برز في الهجو من غير أن يعلن بالفحش»[24].

وأما الموضوع الثالث فانطلق مما حكاه مولاي مبارك «عن نفسه وقتما ذهب للأراضي المقدسة قصد أداء فريضة الحج أن بعض المصريين سأله: أيهزك طربنا؟ قال: لا. قيل له: ولم ذاك؟ قال لسائله: إن طربكم كله تحزين وما كانت أغاني الحزن لتهزني»[25].

وقد كانت هذه الحكاية مناسبة لتبادل الحديث عن الطرب وارتباطه بالبيئة وطبيعة الناس، مما جعل ابن القاضي سكيرج السيد عبد الكريم

---

(21) ص 27.

(22) ص 27.

(23) قابادو هو الشيخ أبو الثنا محمود بن علي قابادو الشريف (ت 3 رجب 1288هـ)، الفقيه الأديب. تولى التدريس بجامع الزيتونة وقضاء باردو والفتوى على المذهب المالكي.
ترجمه الشيخ محمد النيفر في ج 2 من كتاب (عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب) ص 127-130 (الطبعة الأولى تونس 1351هـ).

(24) ص 27.

(25) ص 27-28.

الذي كان حاضرا في هذه الجلسة يعقب «بأن الطرب تابع للأمة مهما كانت الأمة نشيطة إلا وكان تلحينها كذلك، والعكس».[26]

والحديث عن الطرب جر إلى ذكر بعض المغنين والمغنيات، كمحمد عبد الوهاب وأم كلثوم، واختلاف الأذواق في الميل إليها أو إليه.

من هنا انتقلت المذاكرة إلى الموضوع الرابع الذي يتعلق بصوت المرأة، هل هو عورة أم لا؟ فأثير كلام خليل في باب السهو والتسبيح: «وتسبيح رجل أو امرأة لضرورة ولا يصفقن» فذكر الجراري بأن «المختار للمرأة التّسبيح، وذلك دال على أن صوتها ليس بعورة، وهو ظاهر الحديث: من نابه شيء في صلاته فليسبح، وتمامه: إنما التصفيق للنساء. وهذا سيق في معرض الذم. وهذا الظاهر مقدم على ما احتمله الحديث كما لا يخفى. إنما هناك من يخالف في القضية ويميل إلى هذا الاحتمال. وينشد في معرض ذلك الأدباء:

أذني لبعض نساء الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا[27]

والقول هذا أمس بسد الذرائع الذي هو أصل من أصول الإمام».[28]

هنا تدخل مولاي مبارك «مستدلا لهذا القول الثاني. قال تعالى: «فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا»[29] أمرهن الله تعالى أن يكون قولهن جزلا وكلامهن فصلا ولا يكون على وجه يحدث في القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين المطمع للسامع وأخذ عليهن أن يكون

---

(26) ص 29.

(27) البيت لبشار بن برد، وهو في الرواية الواردة في الديوان:

ياقوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

(ديوان بشار بن برد - ت محمد الطاهر بن عاشور ج 4 ص 217 - نشر الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر).

(28) ص 29.

(29) الآية 32 من سورة الأحزاب.

قولهن معروفا».[30]

واستدل مولاي مبارك بقول ابن العربي في أحكامه بأن «المعروف هو السر» و«أن المرأة مأمورة بخفض الكلام».[31]

وختم الجراري حديثه عن هذه الجلسة المباركية بفقرة عرف فيها بالضيف المراكشي، فقال:

«والشريف مولاي مبارك العلوي الذي استفدناه في هذه اللحظة القصيرة هو مولاي مبارك بن عبد الله العلوي الأمراني، زيد بمراكش سنة 1301هـ. وبعد أن شب بها تعاطى لدراسة العلم فأخذ بمسقط رأسه عن الفقيه المرحوم السيد الحاج العربي الرحماني[32] وعن العلامة المرحوم السباعي،[33] وبفاس أخذ عن العلامة سيدي محمد القادري[34] وسيدي أحمد بن الخياط[35] وسيدي محمد بن جعفر الكتاني[36] والفقيه السيد عبد العزيز بناني.[37] وللشريف المترجم تقاييد في البديع. ومما ذكره للكاتب من ابتكاراته استخراج جمل تدور على حروف 3-4-5 ككلمة: لا إلاه إلا الله تدور على ثلاثة حروف. وله أيضا تقاييد في الفقه. فأكرم به من شريف عالم أنس به الجراري في لحظة لا جعلها الله آخر عهد بحضرته العالمة».[38]

وبعد، فإننا مما ورد في «الرحلة السطاتية» نستفيد معلومات – هي

(30) ص 30.

(31) ص 30.

(32) توفي الحاج العربي الرحماني عام 1354هـ الموافق 1935م.

(33) لعله محمد بن إبراهيم السباعي المتوفى يو 6 رجب عام 1332هـ الموافق 1913م.

(34) لعله محمد بن إدريس القادري المتوفي يوم الأحد 8 ربيع الثاني 1350هـ الموافق 1932م.

(35) توفي أحمد بن الخياط يوم الإثنين 12 رمضان 1343هـ الموافق 1924م.

(36) توفي محمد بن جعفر الكتاني ليلة الأحد 16 رمضان عام 1345هـ الموافق 1927م.

(37) توفي عبد العزيز بناني يوم السبت 24 جمادى الثانية 1347هـ الموافق 1928م.

(38) ص 30.

على اختصارها - كبيرة الفائدة بالنسبة لاستكمال ترجمة مولاي مبارك. هذا بالإضافة إلى أننا من المذاكرة التي دارت في الجلسة نستنتج ثلاثة أمور:

1- أن مولاي مبارك كان ذا ثقافة دينية فقهية واسعة.

2- أنه كان ذا حس أدبي وفني.

3- أنه كان كثير الاستحضار.

وإذا كان الوالد قد ساق في رحلته جوانب من ترجمة مولاي مبارك، بدءا من تاريخ ولادته، فإنه في «وفياته» سجل أنه توفي يوم السبت 26 رمضان 1381هـ الموافق ثالث مارس 1962م، إثر حادث سيارة وهو في الطريق بين مراكش والرباط؛ ودفن بمقبرة الأشراف بمراكش.

وفي «إتحاف المطالع» للمرحوم عبد السلام بن سودة أن وفاته - أي وفاة مولاي مبارك الحسني العلوي الأمراني - كانت يوم السبت 25 رمضان 1381هـ ولعله تاريخ مضطرب.

ومعروف أن مولاي مبارك عين رئيسا للمجلس العلمي بالقرويين في يناير 1940م، بعد أن كان قد شغل منصب رئيس مجلس كلية ابن يوسف. وكان في ذلك يخلف مولاي عبد الله الفضيلي.(39)

وكان لمولاي مبارك فضل فرض تطبيق النظام الذي كان قد صدر به ظهير شريف عام 1348هـ الموافق 1930م. وظهير مسنون عام 1349هـ الموافق 1931م ولكن تطبيقه كان اختياريا.

إلا أن مولاي مبارك وجد مصاعب في ذلك، مما جعله يتخلى عن منصب الرئاسة ليعود إليه مولاي عبد الله الفضيلي.(40)

---

(39) توفي مولاي عبد الله الفضيلي عشية الأحد 14 شوال 1363هـ الموافق فاتح أكتوبر 1944م.

(40) انظر: جامع القرويين للدكتور عبد الهادي التازي ج 3 ص 762-763، والهامش 30 من ص 784 طبعة دار الكتاب اللبناني 1972م.

ومعروف بعد هذا أن مولاي مبارك شغل في أعوامه الأخيرة منصب كاتب (وزير) للخليفة السلطاني بمراكش.

ولعله المنصب الذي توفي وهو يتولاه. رحمه الله ورحم جميع الذين ضمتهم جلسة سطات.

وشكرا لكم والسلام عليكم ورحمة الله.

إبراهيم رضا الله الإلغي
(مكانة متميزة)

***

نص الكلمة التي كان مقررا إلقاءها في حفل التأبين الذي دعا له المجلس العلمي الإقليمي بتارودانت والذي لم يكتب له أن ينظم ويعقد لأسباب مجهولة إذ تم الإخبار بتأجيله في آخر لحظة.

وكانت وفاة المرحوم الإلغي صباح الخميس 2 صفر 1406هـ الموافق 17 أكتوبر 1985م، وصلى عليه بمسجد السنة ودفن بمقبرة الشهداء بالرباط.

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله رب العالمين،

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

أخي وزميلي سيادة رئيس المجلس العلمي الإقليمي بتارودانت

أصحاب الفضيلة العلماء والأساتذة

حضرات السيدات والسادة أعضاء أسرة الفقيد العزيز

ما أصعب أن يتحدث مثلي في هذا المحفل العظيم، ليعرب عن الرزء الجسيم الذي أصابه بوفاة سيدي إبراهيم رضا الله الإلغي تغمده الله برحمته؛ هذا الرجل الذي تجمعت في شخصه النبيل صفات تفرد بها بين معاصريه من الفقهاء المتمكنين والأدباء المبدعين والعلماء العاملين وأصحاب السلوك الزاهدين. وهو إلى جانب ذلك كله يعد بالنسبة لي في مكان العم الذي واكب غير قليل من أطوار حياتي، بدءا من لحظة مولدي الذي ابتهج له، مما ظل دينا علي لا أخفي أن كاهلي ينوء به.

أيها الإخوة الكرام.

إن المشاعر التي تغمرني في هذا الموقف الرهيب نابعة من الأواصر العميقة والروابط المتينة التي جمعتني بالفقيد العزيز والتي أتاحت لي به معرفة كبيرة ودقيقة وثقتها السنون منذ أول يوم شهدت فيه الحياة إلي أن فارقها هو.

ذلكم أني عرفت الفقيد العزيز علي مستويات أو مراحل ثلاثة. ترجع

معرفتي الأولى به إلى فترة صباي حين بدأت أدرك الأشياء، ومنذ الخطوات الأولى التي كان يدرجني بها والدي رحمه الله في طريق التوعية والتلقين والتثقيف؛ إذ أخبرني فيما نقل إلي بهذا الصدد أن سيدي إبراهيم كان من أول أصدقائه الذين هنأوه بولادتي، وأن تهنئته كانت شعرا لم ألبث أن حفظت أبياته التي كان يحلو لي ترديدها، وهي التي يقول في أولها:

يقولون عبد الله زيد له نجل فقلت لهم لا غرو إن أنجب الفحل

وماهو إلا من سلالة ماجد ومن شأنه أن يستهل له الطفل

كان ذلك يوم الإثنين ثالث ذي الحجة سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف، الموافق خامس عشر فبراير عام سبعة وثلاثين وتسعمائة وألف، وكان قد مضى على قدوم الشاعر الإلغي إلى الرباط نحو خمسة عشر شهرا منذ غادر مراكش ليلتحق بهيئة التعليم في مدرسة جسوس التي كان أسسها يومئذ الأستاذ المكافح الحاج أحمد بلا فريج شفاه الله.

لم تدم إقامة المعلم الوافد بالرباط سوى أعوام قليلة رحل إثرها إلى تطوان، ولكنها كانت حافلة بما كان له فيها من مكتسبات معرفية وإنسانية، وكانت بذلك حاسمة في حياته، إذ فيها أتيح له أن يأخذ على جماعة من كبار الشيوخ الذين كانت تزخر بدروسهم حلقات مساجد العاصمة وزواياها، وفي طليعتهم أبو شعيب الدكالي ومحمد المدني ابن الحسني ومحمد السايح، ومن إليهم من العلماء الذين كان قد بدأ الأخذ عنهم هو وأخوه العلامة المرحوم محمد المختار السوسي حين انتقلا إلى الرباط أول مرة في أواخر سنوات العشرين، قبل أن يرحلا إلى مراكش التي اشتغلا فيها بالتعليم والتي غادرها سيدي إبراهيم ليعمل في مدرسة جسوس على حد ما أسلفت.

وفي هذه الفترة الرباطية كذلك تسنى لراحلنا المنعم أن يحتك بنخبة من المثقفين الشبان الذين كانوا وقتئذ يتصدرون طليعة الجهاد الوطني في واجهاته المختلفة والفكرية منها بصفة خاصة. وقد تحدث هو نفسه عن هذه

الفترة من حياته في الكلمة التي شارك بها في الذكرى الأربعينية لوفاة والدي، والتي جعل لها عنوانا موحيا بالموضوع هو: «ذكريات عن الفقيد». وفيها تناول بعض ما رآه ملائما للمناسبة مما ظل مرتسما في مخيلته عن مرحلة إقامته الرباطية، مركزا على علاقته بصاحب الذكرى وناديه العلمي الجمعي الذي التقى فيه ببعض علماء الرباط وأدبائه، من أمثال العلامة مصطفى بن المبارك والشاعر أبي بكر بناني حفظهما الله، والذي اعتبره أطول الأندية الرباطية، إذ وجده بعد العودة إلى العاصمة إثر الاستقلال، مازال ينعقد كما كان العهد به؛ وكان في فترة الثلاثين قد زار بعض هذه الندوات، ولاسيما تلك التي كانت تقام في بيت الخالين المرحومين الفقيه محمد البرنوسي والمؤرخ محمد بن علي دينية.

ويبدو أن وجود مثل هذه اللقاآت الثقافية حثت الضيف الإلغي على أن يجعل من مقر إقامته في الرباط – وكانت بباب الأحد – ملتقى لأقرانه من العلماء والأدباء الذين كانوا في معظمهم من أعضاء ندوة الوالد السالفة الذكر.

وإذا كانت معرفتي بالفقيد العزيز لم تتجاوز في هذه المرحلة ما كان نقله إلي الوالد مما ظل منطبعا في ذاكرتي منطلقا من تلكم التهنئة الشعرية، وإن لم أكن قد اتصلت بشخصه بعد، فإن مستوى آخر من المعرفة به سيتيسر لي عن طريق ماكتبه هو أو كتب عنه.

فمنذ أواخر سنوات الأربعين، ومع بداية تعاملي مع المكتبة المغربية لقراءة ما تزخر به من مؤلفات والتمرس بمطالعتها حتى ما كان منها يومئذ فوق مستواي، أتيح لي أن أعرف جانبا بل جوانب من حياة مؤبننا الذي كنت مشدودا إليه ومتطلعا إلي مزيد من التعرف إليه. فقد قرأت في «عشرة أيام في مراكش» – وهي الرحلة التي ألفها والدي إثر زيارته الأولى للحمراء في جمادى الثانية عام ثلاثة وخمسين وثلاثمائة وألف الموافق سنة أربع

وثلاثين وتسعمائة وألف – أنه زار المدرسة الحرة التي كان يديرها صديقه سيدي إبراهيم، وأجري مع تلاميذها بعض المذاكرات وقدم لهم جملة من النصائح، وزاد – باقتراح من المدير – فلقنهم نشيدا ملحنا حفظوه ورددوه. ومما كتبه عنه أخوه في الجزء الثاني من «المعسول» علمت أن هذه المدرسة أسست عام خمسين وثلاثمائة وألف، وأنها مرت بعدة أطوار إلى أن أصبحت مدرسة «الحياة» التي اقترنت بأستاذها سيدي ابريك الغراس.

وفي منتصف سنوات الخمسين، وصل من تطوان كتاب جليل ألفه الأديب رضا الله عن تاريخ الأدب العربي وفق المنهج المقرر لقسم الباكالوريا بمدارس المنطقة الشمالية يومئذ ومعهد تطوان خاصة؛ وجعله جزءين: أحدهما خصصه للأدب المعاصر بالعالم العربي، والثاني خص به تاريخ الأدب في المغرب والأندلس. فالتهمت السفرين معا وأفدت منهما ما لم أكن وجدته في كتب تاريخ الأدب العربي المتداولة.

وزادت في ذهني وقلبي تكبر صورة المؤلف الإلغي الذي كنت في هذه المرحلة أقرأ بعض مقالاته، وكذلك القصائد التي كان ينشرها في صحف الشمال ومجلاته، ولاسيما تلك التي كان يقولها في مناسبات وطنية مرتبطة بالخليفة السلطاني المرحوم مولاي الحسن بن المهدي. وفي بعض تلك الصحف والمجلات شاهدت رسم سيدي إبراهيم، وكنت في مخيلتي أحاول مقارنته مع شكل أخيه سيدي المختار الذي كانت معرفتي به في هذه السنوات قد توثقت، إذ كان يزور والدي في كل مرة يحل بالرباط؛ وغالبا ماكان في تلك الزيارات يجلسني إلى جانبه أو يأخذني من يدي ويسير بي جيئة وذهابا في غرفة الجلوس، ويطرح علي أسئلة في اللغة العربية وقواعدها، في إلحاح على الإعراب الذي لم يكن رحمه الله يقبل مني أي عذر فيه، وكان يقول لي «إيوا وخا انت تتقرا فالسكويلا دالنصارى خاصك اتكون تتعرف هذا الشي».

على أني لم أقتصر في قراءة ما كتبه الفقيد العزيز على شعره ومقالاته وكتابه عن تاريخ الأدب، ولكني اطلعت كذلك على مؤلفه المدرسي الذي كتبه عن الدين الحنيف، كما اطلعت فيما بعد على ما أورده له أخوه في «المعسول» وكذا ما كتبه عنه والدي في الترجمة التي خصصها له في أول الجزء الثاني من كتابه عن «التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين».

ومع ذلك، فإني لم أتعرف إلى شخص المرحوم الإلغي إلا بعد عودته إلى الرباط إثر الاستقلال، واستقراره فيه عضوا بالمجلس الأعلى للقضاء، ثم صاحب مكتب للاستشارة القانونية بعد أن أحيل على التقاعد. وكنت أثناء الأعوام الأولى من هذه المرحلة لا أراه إلا في عطلة الصيف، حين أعود من القاهرة التي كنت أدرس بجامعتها في أواخر سنوات الخمسين، والتي عملت في سفارة المغرب بها أوائل الستين. وكان ملتقى الجمعة في بيت والدي فرصة مقابلة أخيه المختار الذي كان قد استقر بدوره في العاصمة بعد أن أسندت إليه وزارة الأحباس ثم وزارة التاج.

وقد تسنى لي بعد العودة النهائية من عاصمة الكنانة عام خمسة وستين، والتحاقي بهيئة التدريس في الجامعة المغربية، أن ألازم هذا الملتقى الذي كان فقد من أعضائه المرموقين العلامة المختار السوسي الذي وافته المنية سنة ثلاث وستين، والفقيه الحاج محمد بن عبد الله والأديب المكي بن مسعود اللذين انتقلا إلى رحمة الله عام أربعة وستين. وبعد هؤلاء، فقد النادي الفقيه أحمد بن صالح عام ثلاثة وسبعين والأديب مصطفى الغربي سنة خمس وسبعين، والوجيه مولاي محمد الرفاعي عام سبعة وسبعين، والمؤرخ عبد السلام بن سودة والفقيه محمد بن عمر بن سودة اللذين توفيا عام ثمانين، والأديب الحسن البونعماني سنة اثنتين وثمانين، ثم منشئ النادي نفسه أبا العباس الجراري الذي كتب له أن يلقى الله شهيدا في

العام الموالي رحم الله الجميع.

وإذا كنت في هذه المرحلة قد سعدت بالاتصال المباشر بسيدي إبراهيم، فإني قد أحسست منذ لقاآتي الأولى معه بشعور لم أتردد في إخبار والدي به، إذ لاحظت في شخصيته ملامح تختلف عن السمات التي كانت له في ذاكرتي ومن خلال مقروءاتي عنه، والتي يطبعها التفتح والمرح وروح النكتة والدعابة؛ فقد وجدته على عكس ذلك ميالا إلى الانزواء والانكماش وإطالة التأمل والصمت. ولعله في هذا التحول كان متأثرا بإقامته التي امتدت سنوات عديدة في تطوان، بعيدا عما ألفه من أجواء علمية وأدبية، وبعيدا كذلك عمن عاشرهم في هذه الأجواء من رفاق وخلان، سواء في مراكش أو الرباط، وإن أتيح له في تلك المدينة الشمالية الهادئة أن يتأهل ويسعد بحياته الجديدة. ولعله كان متأثرا أيضا بوفاة السيد المختار الذي كان له أخا وأستاذا وسندا، والذي كان فقده بالنسبة له صدمة لم يتحملها ولم يستطع التحرر من مفعولها القوي على ذاته وفكره.

وشيئا فشيئا كنت أشعر في سلوك الفقيد العزيز بمزيد من الانطواء كاد يؤدي بل أدى بالفعل إلى انعزال شبه تام حتى عن الأصدقاء والأقرباء، في نزوع صوفي مغرق لم يكن يفلت منه إلا في حالات نادرة، كحضور ندوة أو محاضرة أو مناقشة جامعية يعنى بموضوعها أو يهمه أمر صاحبها. وأظنني لم أقابله طوال السنوات الثلاثة التي سبقت وفاته إلا مرات معدودة، أذكر من بينها يوم تقديم البحث الذي نال به الأستاذ محمد خليل دبلوم الدراسات العليا والذي تناول فيه بالدرس شخصية محمد المختار السوسي وشعره، وكذا يوم تقديم رسالة الأستاذ عبد الله الدرقاوي عن شعر الطاهر الإيفراني للحصول على نفس الشهادة، وكان قدتم إنجازهما بإشرافي في كلية الآداب بالرباط.

ولعلي ألا أنسى موقف المواساة الذي كان له أثناء المحنة التي عشتها

بفقد والدي، وكذا حضوره في كل مناسبات ذكراه. فقد كانت هذه المحنة بالنسبة لصديقه الإلغي مثارا شعوريا هز كيانه وخرق جدار صمته الطويل، وحفزه إلى أن يشارك في تأبينه بحديث عاد به إلى سالف العهد من ذكريات الشباب الحلوة الجميلة المفعمة بروح وثابة متطلعة يسودها الود الصافي والإخاء الصادق. وما إخال العودة إلى هذه الذكريات إلا تعبيرا عن إحساس باطني كان يعتمل في أعماق فقيدنا الإلغي العزيز، لم يشأ إلا أن يكشفه ويعرب عنه، رافضا في لا وعيه كل ماقد يصحب العزلة من انقباض ويأس، وإن كان لجأ في هذه العزلة إلى محراب التعبد يستشف بملازمته كنه الحياة ويستشرف آفاق المصير.

ولا أخفي أن هذا الحديث الذي أظنه من آخر ما كتبه المرحوم رضا الله شجعني على أن أفاتحه في موضوع إخراج إنتاجه الشعري والنثري وتسهيل أمر دراسته بتقريبه للباحثين وإمدادهم به. وكان رحمه الله يحاول الهروب من الموضوع، مكتفيا بالابتسامة وإغراقي بعبارات الثناء والتقدير وصالح الدعاء. وحين ألح عليه في ذلك يبدي كامل الاستعداد، وإن في استصغار لشأن هذا الإنتاج، مما يعد تواضعا لم يكن له في الحق مجال أو تبرير.

وإني لأغتنم هذه الفرصة لأخاطب في الأمر الزميلة الفاضلة الأستاذة الدكتورة آمنة اللوه، لأن إحياء تراث رفيق حياتها بالنشر والدرس هو وحده الكفيل باستمرار الرسالة العلمية التي تحملها وتحملتها معه، والكفيل كذلك بإبقاء عرى الرباط المقدس الذي جمعهما في حياة متجددة على الدوام.

وبعد، فذلكم حضرات الإخوة بعض ما تسنى لي استحضاره في هذا الحفل الذي يقيمه المجلس العلمي الإقليمي بتارودانت لأحد أعضائه البارزين وأحد أعلام المغرب المتميزين. وإني لأرجو أن أكون به أعربت عما يعتلج في مشاعري من بعض ما أدين له به، على ما بين الموقفين من بون شاسع:

موقف الابتهاج عند الإقبال على الحياة وموقف التأبين لدا توديعها . ولعلي لذلك أن أعود مرة أخرى أو مرات لتفصيل الحديث عن الراحل المنعم، مستمطرا له سحائب الرحمة والغفران، وداعيا لأهله بجميل الصبر والسلوان. وإنا لله وإنا إليه راجعون والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الحاج امْحمد ابا حنيني: المربي (شهادات وذكريات)

* * *

شارك الكاتب بهذا العرض في الندوة التي نظمتها جمعية فاس - سايس - حول المرحوم الحاج امحمد ابا حنيني في قصر المؤتمرات بفاس طيلة يوم السبت 15 ربيع الأول 1411هـ الموافق 6 أكتوبر 1990م. وكان قد توفي في مستشفى بباريز يوم الثلاثاء 17 صفر 1410هـ الموافق 19 سبتمبر 1989م، ونقل جثمانه إلى الرباط وصلى عليه بعد عصر يوم الأربعاء بضريح مولاى المكي، ودفن في زاوية سيدي السايحي قبالته.

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه.
أصحاب المعالي والسعادة
زملائي الأساتذة
أيها الإخوة الأعزة

في مستهل هذه الكلمة التي أشرف بالمساهمة بها في هذا الجمع الحافل، أود أن أعرب لجمعية فاس سايس عن أخلص آيات الشكر والتقدير، إذ تقيم ندوة تفي بها لرجل فذ من خدام المغرب الصادقين، تعتز فاس الفيحاء بأن يكون أحد فلذها البررة المخلصين.

وأود كذلك أن أكشف عن شعور ظل ينتابني منذ أذيع نعي الراحل العزيز، وجاءت دعوة المشاركة في هذا اللقاء لتضاعف فعله وتقوي في نفسي أثره؛ إنه إحساس عميق بفداحة الرزء وجسامة المصاب في علم طوي بفقده سجل جليل تحوي صحائفه أسرارا ومكنونات تشكلت بها ومن خلالها ملامح الصورة التي رسمها التاريخ لأحد صانعيه، وسيحتفظ بها في ذاكرته مثالا متفردا ينقله للأجيال على مدى الأزمان.

وإن هذه الصورة «الحنينية» لتمثل نموذج المثقف العامل الذي تحول الفكر عنده إلى فعل إبداعي مارسه في واجهات جهادية متعددة: مخزنية إدارية، وأدبية فنية، وتربوية تعليمية. ويكاد هذا الجانب الأخير – على تبريز الفقيد فيه – أن يكون أقل إثارة لاهتمام الذين يستحضرون حياته الحافلة بالعطاء الخصيب المتميز. ولعلي – لذلك – أن ألقي في هذا العرض القصير

ببعض ما يظهر الدور الذي كان للمرحوم الحاج امحمد ابا حنيني في ميدان التربية والتثقيف والتعليم.

فقد اقتحم هذا الميدان في سن مبكرة، وهو ما يزال في طور التلمذة والطلب، وكان الدافع إليه رغبة قوية صادقة في تلقيح الأفكار وتنوير الآراء وبث وعي ثقافي جديد. حدث ذلك إثر انتقال الشاب ابا حنيني إلى الرباط بعد إحرازه الباكالوريا الأولى التي اجتازها سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة وألف، متوجا بها تعليمه بثانوية مولاي إدريس بفاس.

وقد تم هذا الانتقال صحبة جماعة من زملاء الدراسة كان في طليعتهم صديق الفقيد ورفيق عمره الوفي الأستاذ السيد أحمد الزغاري الذي كان اعتمادي عليه في تحديد السنة التي وقع فيها التحاقهما بليسي كورو - ثانوية الحسن الثاني اليوم - لإتمام تعليمهما الثانوي والحصول على الباكالوريا الثانية؛ وهي السنة الدراسية اثنتان وثلاثون - ثلاث وثلاثون؛ بعدها انخرط الطالب الوافد في معهد الدروس العليا لتهيئ الإجازة في الحقوق والآداب العربية، وكذا شهادة الدروس الإدارية والقانونية المغربية.

وبدافع الطموح الذي كان له، وانطلاقا مما كان تلقاه في فاس، ولاسيما من دروس أستاذ اللغة العربية بالثانوية الإدريسية العلامة المرحوم محمد أقصبي الذي حبب إليه أدب هذه اللغة وما يتميز به بيانها الساحر، تسنى له في الرباط أن ينمي المطالعات التي أرهفت حسه الأدبي وذوقه الفني، مستفيدا من ذخائر خزانة الرباط العامة، ومن صداقته لنخبة من المثقفين الرباطيين لعل أقواهم تأثيرا في حياته الأديب المرحوم محمد بن العباس القباج.

كانت العاصمة يومئذ تعج بحلقات العلم في مختلف الزوايا والمساجد، وحتى الكتاتيب القرآنية التي كان بعضها في هذه الفترة قد تحول إلى

مدارس عربية عصرية. وكان يوجد إلى جانب هذا التعليم بشكليه التقليدي والمتطور نمط جديد يختلف التلاميذ إلى فصوله في ليسي كورو وثانوية مولاي يوسف، وهذه بصفة خاصة، حيث كان يلتقي أبناء العدوتين مع القادمين من شتى الأقاليم بعد أن يكونوا قطعوا مرحلة التعليم الابتدائي في المدارس القليلة التي كانت أنشأتها إدارة الحماية في كبريات المدن.

وبوعي وطني عميق تنبه العاملون في حقل التربية والتعليم إلى ضرورة القيام بما يجنب الناشئة أي ازدواج ثقافي قد يفضي إلى صدام فكري نتيجة تباين هذين النوعين من التكوين، فسعوا إلى التقريب والإيصال. وكانت لقاآت الخلايا الوطنية والثقافية مناسبة للجمع والإلحام. ونهضت جمعية قدماء الثانوية اليوسفية بالرباط - كمثيلتها جمعية قدماء الإدريسية في فاس - بعبء كبير في هذا المضمار، كان فيه للمرحوم ابا حنيني دور متفرد بما كان يلقيه من دروس في الأدب العربي تهفو إليها عشية كل جمعة بمقر الجمعية الواقع يومئذ في زنقة سيدي فاتح - نخبة من الشباب، كان من بينهم المرحومان عبد الكريم الفلوس ومحمد المدور وغيرهما من أبناء العاصمة المتطلعين إلى تلقيح الأفكار وتجاوز الهوة الفاصلة بين خريجي التعليم في نمطيه.

وقد ذكر لي الفقيه السيد محمد حكم - وكان من ملازمي تلك الدروس - أن المعلم الناشئ كان يعنى فيها بعيون البيان العربي، يعرف بأعلامه ويوضح قضاياه، كما كان مأخوذا بالتراث الأندلسي يشرح نصوصه ويبرز عناصرها الإبداعية المتميزة، في شغف خاص بابن زيدون وتذوق لشعره يسعى إلى بثهما في النفوس. وكان يشفع هذا المنهج التعليمي بتكليف التلاميذ بعروض يهيئونها، غالبا ما كانت تتناول تحليلا لأحد المصنفات التي يكون سبق هو إلى قراءتها، ككتاب «الامتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي و«طوق الحمامة» الذي ذكر لي السيد حكم أنه كان - وحياة مؤلفه

ابن حزم – موضوعا لعرض أنجزه وألقاه في إحدى الجلسات.

وبنفس هذا الحماس المتدفق كان المعلم الطالب، في زياراته المتكررة لفاس، يلتقي مع شبابها في نطاق المحاضرات التي كانت تنظمها جمعية قدماء تلاميذ الثانوية الإدريسية، والتي كان يتناول فيها موضوعات أدبية شبيهة بما كان يلقيه في الرباط.

وفي هذا الصدد أكد لي السيد الزغاري ماكان كتبه في تأبين رفيق عمره، من أن مسامراته الفاسية كانت تنصب كذلك على فن الملحون، وخاصة على تراث التهامي المدغري الذي كان المحاضر الفنان معجبا بقصائده. وتحتفظ ذاكرة فاس بالمحاضرة الملحونية التي كان ألقاها بمدرج الثانوية الإدريسية، والتي عززها بأداء بعض الأشياخ المنشدين، مما عد في النشاط الثقافي حدثا غير معهود.

بهذه التجربة الغنية في مجال التربية والتثقيف، وبما توافر لصاحبها من قدرة وإمكان، وبما اكتسبه من متابعة تكوينه العالي الذي هيأه لمنصب القضاء بالمحكمة العليا الشريفة، وبحسن الأحدوثة التي فاز بها بين الأقران والزملاء، كان مؤهلا لكي يختاره ملك البلاد جلالة المغفور له محمد الخامس، أستاذا للغة العربية وآدابها بالمعهد المولوي الذي دشنه – رضوان الله عليه – يوم الثلاثاء ثالث محرم سنة إحدى وستين وثلاثمائة وألف الموافق للعشرين من يناير عام اثنين وأربعين، ليتابع به دراسته الثانوية ولي العهد آنذاك صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله.

وقد وقفت على نسخة تقرير عن أحد دروسه، رفعه إلى الملك المقدس والدي رحمه الله، باعتباره مفتش التعليم بمندوبية المعارف يومئذ مكلفا من قبل جلالته بتفتيش المعهد، وهو مؤرخ بيوم الخميس ثاني ذي الحجة عام أربعة وستين وثلاثمائة وألف الموافق ثامن نونبر سنة خمس وأربعين وتسعمائة وألف. وفيه تناول درسا صباحيا في الأدب العربي بدأ في الساعة

التاسعة. وقد استهله الأستاذ بمراجعة موضوع سابق عن الخنساء ومرثيتها الرائية في أخيها صخر، وأولها:

قذى بعينيك أم بالعين عوار   أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

وبعد نقاش أداره المفتش حول النص وشاعرية الخنساء، وماكان لولي العهد من إجابات جيدة، انتقل الأستاذ إلى درس جديد عن كعب بن زهير انطلق فيه من قراءة سمو الأمير لبعض أبيات لاميته التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول

وقد كان النص مناسبة لطرح عدد من القضايا أثارها المفتش مع التلاميذ، كاستفهامهم عن سر افتتاح الشعراء قصائدهم بالتشبيب والنسيب، مما أجاب عنه الأمير الشاب، مبرزا أن ذلك من محسنات الكلام وحوافز المستمع إلى الإقبال على الغرض المقصود.

وبعد وصف ما راج أثناء الدرس، لاحظ التقرير عسر التعبير عند بعض التلاميذ، فنصح بتشجيع مشاركتهم للمعلم والتركيز معهم على تبادل الحديث والحوار؛ كما لاحظ ضرورة الاهتمام بالجانب البلاغي الذي به تدرك أسرار الأدب ويتم تذوق معانيه. ثم وجه عناية الأستاذ مرشدا إياه إلى أن يعطيهم من فينة لأخرى قطعا شعرية يحللونها، مستقلين في التعبير عن أفكارهم، مما لاشك سيزيد في إطلاق العنان لأقلامهم وألسنتهم. وختم التقرير بشهادة المفتش أن الأستاذ نشيط في سيره، مقتدر في أدائه، حكيم في أسلوبه، مما يدعو إلى الاطمئنان على تقدم القسم وبلوغه الشأو المنشود.

وللمكانة السامية التي حظي بها الفقيد العزيز في نفس الملك المجاهد، فقد كان يسند إليه مهمات تربوية خاصة، ويعينه لعضوية بعض اللجان التي كانت تنظر في أمر التعليم الحر الذي كان – نور الله ضريحه – يشرف عليه بنفسه. ويكفي لإبراز هذا الدور الذي كان يضطلع به المرحوم ابا حنيني أن أشير إلى الكلمة التي ألقاها أمام جلالته وولي عهده في حفل وضع الحجر

الأساسي لبناء مدارس محمد الخامس بالرباط، يوم الأربعاء تاسع عشر رجب عام خمسة وستين وثلاثمائة وألف الموافق تاسع عشر يونيو سنة ست وأربعين وتسعمائة وألف؛ وهو الحفل الذي زانه وخلده خطاب سمو الأمير الجليل.

ومر عقد من السنين عانى المغرب في خضمه محنا وأزمات، واجهها العرش والشعب بشجاعة وتضحية أفضتا إلى استرجاع الحرية والاستقلال؛ واقتضت المرحلة الجديدة دعوة الكفاة المخلصين من أبناء الوطن لتحمل مسؤوليات الدولة. وعلى الرغم من أن السيد ابا حنيني تقلد كثيرا من المناصب الوزارية، فإنه ظل بموازاتها عاملا في الحقل التعليمي، إذ عاد إليه وإلى درس الأدب العربي، بعد تجديد مولانا أمير المومنين جلالة الحسن الثاني أيده الله للمدرسة المولوية، وإعدادها لتستقبل فلذات أكباده، يتقدمهم قرة عينه ولي العهد المحبوب سمو الأمير سيدي محمد الذي كان يومئذ يجتاز العام الرابع المشكل لنهاية الطور الأول من الثانوي.

فقد افتتحها - أعزه الله - صباح الاثنين السادس والعشرين من محرم عام سبعة وتسعين وثلاثمائة وألف الموافق سابع عشر يناير سنة سبع وسبعين وتسعمائة وألف، في حفل كبير شهدته قاعة المحاضرات بالمدرسة. وفي بدايته أسند جلالته إدارة المؤسسة إلى الأستاذ الزميل السيد محمد شفيق، ثم استمع إلى الخطاب الذي ألقاه الحاج امحمد، وهو آنذاك وزير للدولة مكلف بالشؤون الثقافية؛ وفيه ربط ماضي المدرسة في عهد الملك المنعم بالمرحلة الحاضرة التي يشرف عليها سيدنا المنصور بالله، محاطة بشامل الرعاية وسابغ العناية، محفوفة بمظاهر اليمن مقرونة بأسباب المسرات. إثر ذلك تقدم سمو ولي العهد الأمير سيدي محمد، فألقى كلمة استحضر فيها بعضا من ذكريات عطرة عاشها والده رعاه الله في رحاب هذا المعهد، ممزوجا فيها عناء الدرس بلحظات زاهية زاهرة؛ وأكد وعده أن يسير على

نهج أبيه حتى ينتهي به مطاف الدراسة والتحصيل في ظل جلالته السامق المديد إلى ما يجعله - حفظه الله - منشرح الصدر قرير العين. وبعد زيارة لمختلف مرافق المعهد، التحق جلالته بقسم سمو الأمير، حيث حضر طرفا من درس في الأدب العربي ألقاه الأستاذ الوزير.

في هذه الفترة التي كان فيها السيد ابا حنيني مسؤولا عن الثقافة، طوقه مولانا أمير المومنين بتكاليف تربوية اقتضتها ظروف المرحلة، فأسند إليه رئاسة اللجنة الوزارية المنوط بها إصلاح دار الحديث الحسنية بقصد إعادة النظر في مناهجها وبرامجها وشروط الالتحاق بها ومنافذ العمل للمتخرجين منها ومعادلة شهاداتها. وقد استمرت اجتماعات هذه اللجنة التي شاركت فيها ممثلا لهيئة الجامعة طوال عامي ستة وتسعين وسبعة وتسعين وثلاثمائة وألف الموافق سنة ست وسبعين وسبع وسبعين وتسعمائة وألف، وأفضت إلى بعض التغييرات الإدارية والتربوية وإلى تكوين مجلس موقت للدار عينت عضوا فيه. كذلك أسند - نصره الله - إلى وزيره في نفس هذه المدة رئاسة اللجنة التي شكلت لمراجعة المصنفات المدرسية بغية وضع الكتاب المناسب للمدارس الثانوية. وفي نطاق أعمال هذه اللجنة كلفت بفحص مقررات النصوص الأدبية الخاصة بسنوات السلك الثاني من الثانوي، وقدمت تقريرا عنها يستجيب لما هو مطلوب من إبداء الرأي الصريح حول المحتوى والمنهج.

في هذا السياق التربوي التعليمي، وانطلاقا مما له فيه من تجربة غنية، سعى - رحمه الله وهو مسؤول عن الشؤون الثقافية - إلى إحداث مؤسسات لإعداد الأطر العاملة في بعض حقول وزارته. وفي هذا الصدد حدثني أكثر من مرة عن رأيه في ضرورة فتح مركز للمنشطين الثقافيين، وآخر للتخصص في علوم الآثار، وثالث لتخريج المسرحيين؛ ودعاني فحضرت إلى جانبه عدة اجتماعات لتهيئ مشروع إنشاء هذا المعهد الأخير.

وكذا لإعادة النظر في التعليم الموسيقي، وكنت - بطلب منه - قد كتبت تقريرا عن تطوير برامج هذا التعليم ومناهجه.

لهذا وغيره، وثقة من الملك الأب في معلمه وماله من قدرة وحنكة في الميدان، لم يكن بدعا أن يعينه وزيرا مشرفا على تربية الأمراء والأميرات، خلفا للأستاذ السيد محمد عواد الذي اقتضى النظر الشريف فيما بعد إسناد مهمة أخرى إليه، يكون فيها وزيرا مستشارا لجلالته. وفي خطاب كريم وجهه الملك المعظم، وهو يجري هذا التعديل الذي مس كذلك هيئة الإدارة والتعليم بالمدرسة المولوية، أبرز مدى أهمية المواد العربية الأصيلة التي يعتبرها ركائز لكل تثقيف وتكوين. وقد كان اعتزازي كبيرا بحضور هذا الاستقبال الذي شرفني - حفظه الله - فعينني بمناسبته أستاذا للفكر الإسلامي، ثم كلفني بعد ذلك بمادتي التربية الوطنية والأدب العربي الذي استمر الحاج امحمد يزاول درسا تكميليا فيه، إلى جانب حصة منتظمة للغة العربية كان ينهض بها الأستاذ السيد محمد السولامي. وأذكر أن هذا التعيين تم في القصر الملكي بمراكش زوال يوم الثلاثاء تاسع عشر صفر عام أربعمائة وألف الموافق ثامن يناير سنة ثمانين وتسعمائة وألف.

وقد أتيح لي في إطار هذا العمل الذي جمعني بالمرحوم ابا حنيني طوال عقد كامل، أن أعرف المزيد من مزاياه التربوية والتعليمية التي كانت تتجلى في اجتماعاته بالأساتذة. ولاسيما في المجالس التي كانت تعقد تباعا إثر امتحانات الدورات الثلاث لأقسام أصحاب السمو الأمراء والأميرات. وفيها كان يظهر عمق تجربته واتساع فكره واتزان رأيه، إذ يصغي إلى كل أستاذ، يناقشه ويبادله النظر في متعلقات مادته، بمعرفة ودماثة وتوجيه لبق خفي، وفي متابعة دقيقة لحال كل تلميذ على حدة.

حضرات السيدات والسادة

لو شئت أن أستعرض ذكرياتي مع الزميل الراحل في هذا المجال أو

في غيره مما أحظتني به الصلة الحميمة والوثيقة التي جمعتني وإياه، منذ عرفته في زياراته لوالدي رحمه الله وأنا طفل صغير، إلى أن تسنى لنا اللقاء في ميادين شتى مشتركة، لاحتجت إلى أكثر مما يسمح به وقت هذه الكلمة العجالية التي لم أقصد منها سوى إثارة الانتباه إلى جانب من اهتماماته أحسب أنه لم يحظ بالعناية اللازمة عند من تحدثوا عنه.

رحم الله الفقيد العزيز، وتغمده بواسع مغفرته ورضوانه، وأجزل له عظيم الأجر والثواب جزاء ما قدم لملكه ووطنه.

وشكرا لكم والسلام عليكم ورحمة الله.

الرحالي الفاروق
علم بارز في سجل الخالدين

* * *

نص العــرض الذي قــدم في الجلســة الأولى من ندوة «الحركة العلمية بمراكش ابتداء من الثلاثين» التي نظمتها كلية اللغة العربية بمراكش أيام الخميس والجمعة والسبت 6-7-8 جمادى الأولى 1412هـ الموافقة 14-15-16 نونبر 1991م.

وكان المرحوم الفاروق قد توفي بعد منتصف ليل الأحد 17 جمادى الثانية 1405هـ الموافق 10 مارس 1985م ودفن بعد الظهر بمقبرة باب اغمات بمراكش.

بسم الله الرحمن الرحيم

أصحاب الفضيلة والسعادة

إخواني الطلاب وزملائي الأساتذة

حضرات السيدات والسادة

في جلسة افتتاح الدورة التي عقدتها أكاديمية المملكة المغربية بمدينة فاس في أبريل عام خمسة وثمانين، والتي جاءت مباشرة إثر وفاة عضوها العلامة الرحالي الفاروق رحمه الله، طلب إلي أن أؤبن الراحل العزيز، فبدرت إلى نفثة كان الحافز إليها فيضا من شعور نابض بالحب وفورا من إحساس غامر بالوفاء، علي ما في القلب من حزن أليم وكلم عميق، لتوديع زميل كريم فقد الوطن بغيابه علما شامخا من أقطاب المعرفة الإسلامية والبيان العربي، أبى الله إلا أن يستأثر به مرتضيا إياه لجانبه.

يومئذ قلت إن حياة مجمعيي مختلف الأكاديميات تقترن - فيما هو شائع عنهم من قول - بصفة لعلهم يتفردون بها، تطلق عليهم دون غيرهم؛ تلكم هي صفة الخالدين. وإنه إذا كان للبقاء الإنساني من معنى ملموس لا يتعارض في أي من أبعاده مع مصير البشر المحتوم، فهو ارتباطه بالصالحات وبما لا ينقطع به عمل ابن آدم بعد انتقاله للعالم الآخر. ثم غلبت الظن أن يكون كامنا في هذا السياق مدلول الخلود المجمعي، متجليا في توارث الانتماء وتداول المسؤولية، والتعاقب على أداء الرسالة يتحملها الواحد بعد الآخر والجماعة تلو الأخرى بدون توقف أو انقطاع، وفي غير كلل ولا ملل، وبحرص شديد على الأمانة، وفي تكامل وتضافر، وتلاحق وتواتر، حتى يتابع السير في خط التطور والتقدم، ويستمر البنيان ثابت الأركان متين

الدعائم.

ولكن شيئا من ذلك لا يمكن أن يتحقق إلا باستحضار دائم لأعمال أولئك الذين استحقوا هذا التميز، وتمثل متواصل لملامح حياتهم، واستمداد مدى الآباد مما كانوا به متفردين.

وها قد مرت ست سنوات من غير أن تحيى ذكرى هذا الرجل الفذ، بل من غير أن يثار حديثه إلا ما يدور عنه في مجالس خاصة يسترجع فيها اسمه بعض رفاقه وخلانه، آسين لهلكه وفقدانه، وكأن المصاب فيه لم يجل بخطب جُسيم ورزء عظيم، إلى أن قيض الله لأداء هذا الواجب كلية اللغة العربية بهذه المدينة العامرة. وقد أحسنت صنعا إذ جعلت الندوة التي تنظمها عن «الحركة العلمية بمراكش ابتداء من الثلاثين» مناسبة لتكريم عميدها المرحوم.

فإليها، وإلى قيدومها الصديق الأستاذ الدكتور حسن جلاب، وإلى أساتذتها الزملاء الكرام، أزجي عبارات الشكر والامتنان أن وفقوا لعقد هذا اللقاء العلمي، وأن شرفوني بالدعوة للمشاركة فيه.

حضرات السادة،

لو شئت أن أتحدث عن الفقيد العزيز لاحتجت إلى كتابة لا يتسع لها المقام، فإن له في ذهني وقلبي صورا وانطباعات ممتدة إلى عهد بعيد، للعلاقات الحميمة التي كانت تربطه بوالدي تغمدهما الله بواسع رحمته، والتي تسنى لي أن أعيش لحظات من صادق تجلياتها منذ طفولتي الأولى، من خلال بعض لقاآتهما في مراكش أو الرباط. وكانت هذه الآصرة الوطيدة كفيلة بتعميق مشاعر المحبة والتقدير، وترسيخ أحاسيس الود والإخاء التي كانت تصلني بالعلامة الفاروق، قبل أن تجمعني وإياه أبهاء أكاديمية المملكة المغربية؛ مما وثق التعارف بروابط كان قد قوى العمل العلمي الجامعي لحمتها، وكذلك كان قواها التقاءنا في مجالات موازية لهذا العمل، كلجان

إصلاح التعليم الأصيل ومراجعة مقررات بعض مؤسساته العالية، وكالدروس الحسنية التي تلقى في حضرة مولانا أمير المومنين لأول تشرفي بحضورها والمشاركة فيها، والأستاذ الفاروق آنئذ في مقدمة شيوخها المبرزين.

وقد تسنى لي بهذا الاتصال الوثيق أن ألمس جوانب خفية من علم الرجل الواسع الغزير ووطنيته الصادقة الصارمة، وأن ألمس كذلك ملامح من نبله الكبير وسماحته الفائقة.

ولا أريد أن أطلق العنان للعواطف والذكريات، فمكانها في غير هذا العرض المحدود الذي أسعد بالإسهام به في هذه الندوة العلمية، والذي لا أقصد منه إلا تقديم معالم من حياة الشيخ الفقيد.

وأول ما أود تسجيله في هذه المعالم ما كان - رحمه الله - يؤكده من أن اسمه الخاص هو الرحالي وإن جاء على صورة النسب، وأن لقبه واسم أسرته هو الفاروق وليس الفاروقي كما شاع، وبه كان يمضي رسائله ومقالاته. وقد قرأت في ترجمة خاصة له حررها بقلمه أنه أبو عبد الله الرحالي بن رحال بن العربي الحمومي السرغيني الفاروق، وأن والده اختار له هذا الاسم تيمنا بأحد أولاد رحال الكوش الذي يعد في صلحاء القرن العاشر الهجري، وضريحه معروف في أنماي بناحية مراكش. وكان هذا المتيمن به قد انتزح عن قومه وأوى إلى عشيرة الفاروق وحالفها، وكان معروفا بالرحالي.

ومثل هذا التبرك ينم عما كان عليه الأب من تعلق بأهل الفضل والصلاح والاقتداء بهم في فعل الخير، مما بوأه مكانة بين أفراد قبيلته في السراغنة، وهي مكانة كان احتلها من قبل جده الذي تواتر عنه أنه كان يسأل الله أن يقبض روحه ولما يفقد المغرب استقلاله، فمات قبل عقد الحماية بعام.

ذكر الفقيد فيما كتبه عن نفسه أنه أبصر نور الحياة أواخر سنة عشرين وثلاثمائة وألف للهجرة، وهو تاريخ يوافق عام ثلاثة وتسعمائة وألف للميلاد. وما كاد يبلغ السادسة من عمره حتى ألحقه والده - على العادة المألوفة - بالكتاب القرآني، حيث حفظ القرآن الكريم علي المقرئ أحمد بن المختار الرحالي، برواية ورش أولا ثم بالروايات السبع، مما أتاح له أن يتدرج إلى مرحلة أخرى ليأخذ جملة من العلوم الأولية تلقاها على الفقيه محمد اجسيم السوسي. ودامت هذه المرحلة ثلاث سنوات أهلته بما حصل فيها من متون أن يلتحق بمدينة مراكش التي كانت جامعتها اليوسفية آنئذ مزدهرة بالحلقات في مختلف فنون المعرفة، فلازم دروس بعض الشيوخ الكبار، خص منهم بالذكر أبا شعيب الشاوي المعروف بابن الرامي، ومحمد ابن عمر السرغيني، وعبد السلام بن المعطي السرغيني، ومحمد بن أبي بكر السرغيني، ومحمد بن التاودي السرغيني، والعربي الرحماني البربوشي، وأبا شعيب الدكالي، الذي قال إنه أخذ عنه في مراكش وفي الرباط.

وما كان رحمه الله ليقنع بما أفاده طوال سبعة أعوام قضاها بالحمراء، فتاقت نفسه إلى فاس حيث تسنى له أن يجلس إلى نخبة من علمائها المشهورين، كأحمد بن الجيلالي الامغاري، وعبد الرحمن بن القرشي، وعبد الله الفضيلي، ومحمد بن الحاج السلمي، والراضي السناني، والحسين العراقي، وغيرهم ممن كانت تزخر جامعة القرويين بما يلقنونه من معارف وعلوم.

وبعد أن قضي في رحاب هذه الجامعة نحوا من عامين ونصف، عاد إلى مسقط رأسه، وفكر في مشروع تعليمي يتكفل والده بالانفاق عليه، إلا أنه لم يلبث أن فضل الانتقال إلى قلعة السراغنة لمكانتها في الإقليم؛ وفيها نهض برسالة التدريس مدة أربعة أعوام اضطر بعدها - وقد توفي والده - إلى أن يرجع لقبيلته، حتى يتمكن من رعاية شؤون الأسرة. وكان ذلك في

شـهـر ربيع الأول عـام سـتين وثـلاثمـائة وألف الموافق سنة إحدى وأربعين وتسعمائة وألف.

وقد أتاحت له هذه التجربة التي استمرت بضع سنوات أن يصبح - على حد قوله - مرتاضا في أمور الدنيا، ولكنه لم يغفل عما هو مهيأ له، فقرر الانتقال إلى مراكش للإقامة والاستقرار ومزاولة مهمة التعليم، فبدأ بدروس في الجامع الأعظم قبل أن يلتحق نهائيا بكلية ابن يوسف التي ذاع فيها صيت أستاذيته، إذ أقبل عليه الطلاب والتف حوله المتعطشون للمعرفة من جمـهـور أبناء هذه المدينة، أولئك الذين كان يرعاهم بالوعظ والإرشاد ويتعهدهم بالتوعية والتوجيه.

وقد توقف هذا النشـاط الدائب في مـيدان التـربيـة والتـعليم بسـبب الموقف الوطني الذي كان للراحل العزيز إبان الأزمـة الخانقـة التي عرفها المغرب في أوائل الخمسين، والتي أدت إلى نفي جلالة السلطان المغفور له محمد الخامس وأسرته الشريفة في العشرين من غشت عام ثلاثة وخمسين وتسعمائة وألف. وتعرض الزميل الفقيد بسبب موقفه الثابت ضد اللاشرعية إلى السجن وإلى مقاساة ألوان من المحن والشدائد. وكانت فترة حالكة لم تلبث بما حثت عليه من نضال شعبي - أن أفضت إلى عودة الملك المكافح يوم سادس عشر نوفمبر عام خمسة وخمسين وتسعمائة وألف يحمل بشرى إنهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية.

وكان طبيعيا في هذه المرحلة الجديدة المليئة بالتطلع والطموح أن يستأنف المرحوم الفاروق مسيرته العلمية التي فسح لها مجال الانطلاق في أول عهد جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله بتنظيم جديد للتعليم الأصيل. وفي نطاق هذا التنظيم أسست بمراكش سنة اثنتين وستين وتسعمائة وألف كلية اللغة العربية، فأسند العاهل المؤيد عمادتها إليه.

وتقديرا منه أعزه الله لعلم الرجل وفضله وما أدى لوطنه، عينه عضوا

في أكاديمية المملكة المغربية لأول إنشائها سنة ثمانين وتسعمائة وألف، كما عينه رئيسا للمجلس العلمي بإقليم مراكش لدا تأسيس المجالس العلمية للمملكة عام واحد وثمانين وتسعمائة وألف.

وقد ظل - رحمة الله عليه - في جميع هذه المراكز والمناصب يؤدي رسالته أحسن أداء، يعلم ويثقف، ويوجه ويرشد، ويدعو إلى الله بصدق وتفان وإخلاص، إلى أن وفاه الأجل المحتوم بعد منتصف ليل الأحد سابع عشر جمادى الثانية سنة خمس وأربعمائة وألف الموافق عاشر مارس عام خمسة وثمانين وتسعمائة وألف.

وإذا كنت في هذه الكلمة القصيرة لا أستطيع أن أتحدث عن الرصيف الكريم في مختلف جوانب حياته الثرية العامرة، ولا أن أعدد مناقبه وأياديه وما قدمه لأمته، مما لا حاجة بي ولا بكم إلى التذكير به، فهو ماثل أمام أعيننا، وحاضر في ذهننا، وحي في قلوبنا لم ننسه أبدا ولم يغب عنا قط، فلعلي أن أكتفي بالإشارة إلى ما خلفه من إنتاج علمي وأدبي أغنى به تراث المغرب الفكري في الميادين المتعددة التي كان فيها من المساهمين والسباقين.

فقد ذكر من هذا الإنتاج - في ترجمته - مجموعة من المصنفات هذه أسماءها:

1- طرر على توحيد عبد الواحد بن عاشر سماها: «فتح العلي القادر على توحيد الإمام ابن عاشر».

2- تعليق على مقدمة «بداية المجتهد» لأبي الوليد بن رشد أطلق عليه: «الاعلام والإشادة بما انطوت عليه مقدمة البداءة»، وقد وصفه بأنه تعليق خفيف.

3- كلمة في ذكر التوحيد والإشادة بفضله واعتبار حكم العقل فيه.

4- كلمة تتعلق بالجناب المحمدي صلى الله عليه وسلم.

5- تعليق على تفسير الإمام ابن عطية في سورتي البقرة وآل عمران.

6- تقييد نبه فيه إلى بعض الأغلاط الموجودة في معجم «أقرب الموارد إلى فصح العربية والشوارد» لسعيد الخوري الشرتوني اللبناني.

7- مجموعة فتاوي فقهية وأحكام شرعية قال عنها إنها «لو جمعت لكانت جزءا زاهيا بسحر البيان وناطقا بالحجة والبرهان».

8- لمحات في النظام الاقتصادي الإسلامي.

9- مطارحات أدبية صدرت عنه أيام الشباب.

10- مصارعة بين العدل والظلم والحق والباطل، قال حين ذكرها مع مطارحاته إنها «لو كتب لها البقاء لأقرت العيون وأبهجت النفوس، وكانت فنا من فنون الأدب، ولكن الظروف لم تكن تساعد على الاحتفاظ به ولا تشجع على وضع مثله».

هذه كلها أعمال جليلة لم يتح للأستاذ الرحالي أن ينشر منها - فيما أعلم - سوى كتابه الاقتصادي الذي صدر ضمن مطبوعات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي عام سبعة وسبعين وتسعمائة وألف. وقد كان في نيته النهوض ببعض ما تيسر له في هذا المضمار لولا أن الأجل وافاه.

وليس يخفى أن للعلامة الفاروق - بالإضافة إلى ما ذكر - مجموعة من المقالات الوطنية والبحوث الإسلامية، نشرها في الصحف والمجلات ولا سيما في الأعداد الخاصة من مجلة (دعوة الحق). ولعلنا في هذا الصدد الإنتاجي الثر أن نذكر مسامراته المتميزة التي شارك بها في الدروس الرمضانية التي يرأسها جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله؛ وهي أكثر من أن تحصى وأرسخ من أن تنسى. وتكفي الإشارة منها إلى الدرس الذي أداره حول حديث السبعة الذين يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وكان ألقاه عام ثمانية وثمانين وثلاثمائة وألف الموافق سنة ثمان وستين وتسعمائة وألف؛ وكذا إلى الدرس الذي انطلق فيه من قول الله عز وجل (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله

واليوم الآخر) إلى آخر الآية الكريمة من سورة البقرة، وكان قدمه عام أربعة وتسعين وثلاثمائة وألف الموافق سنة أربع وسبعين وتسعمائة وألف. وفي هذا السياق يذكر الدرس الذي ألقاه بجامع كتبية مراكش مساء الخميس التاسع والعشرين من محرم سنة تسع وثمانين وثلاثمائة وألف للهجرة الموافق سابع عشر أبريل عام تسعة وستين وتسعمائة وألف أمام أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني شارحا حديث «الدين النصيحة» وقد نشرته المطبعة الملكية في الرباط بهذا العنوان في نفس العام.

وإن هذه المحاضرات وما إليها من كتابات لتدل جميعها علي سعة في المعرفة القرآنية والحديثية والفقهية، وقدرة على الاستحضار والإملاء، مع الإحاطة والاستيعاب، والتثبت والتمكن، ومع طاقة علي الغوص في أعماق الكتاب والسنة، لإدراك أسرارهما في فهم دقيق ورأي سديد، انطلاقا من الشرح والتفسير، والموازنة والموازاة، والمناقشة والترجيح، في نزعة أصولية اجتهادية يتوسل فيها بأدوات منهجية تستند إلى المنطق والعقل، مع رحابة في الأفق وعمق في التحليل، وقدرة فائقة على تناول قضايا العصر المتغيرة وعرضها على النصوص الشرعية الثابتة. كل هذا في نفس طويل ممتد، ومطاوعة لسانية يساعده فيها طبعه السليم الأصيل، وتسعفه فيها أداة الخطاب، لإبداع بيان عذب رائق، في نسج محكم رصين، وديباجة شفافة صافية، وعبارة مشرقة جميلة، وأسلوب منسق يعلوه التنميق والتحسين، وإن في غير تكلف أو افتعال.

وإنه ليخيل للمستمتع بهذا الإبداع والمسفيد منه، أن منشئه امتزج تفكيره بالتعبير الجميل، وأنه – لطول ما راض نفسه على هذا التعبير – غدا متمكنا منه، إن لم أقل إن ذلك النوع من الإنشاء أصبح عنده ملكة إلى الحد الذي يجعله لا يلجأ إلى غيره، سواء في حال التحرير أو الارتجال، وما أكثر ما كان يرتجل رحمه الله.

وقد جدر بهذا أن يكون في طليعة المدرسة البيانية التي تفرد المغرب باحتضانها والمحافظة على أسلوبها، وإغنائه بما عز له اليوم نظير، على امتداد أمة العرب وما ينشئه أدباؤها المبدعون في شتى فنون القول.

ولو أن المجال يسمح لقدمت لكم نماذج من كتاباته، وأطرافا من أحاديثه التي نسجها علي هذا الطراز المتميز الرائع، والتي مازال صدى إيقاعها المطرب يرن في الآذان، ملحا على التذكير بما كان بلغ من مضامينها القلوب والأذهان.

وإن الأمل معقود على هذه الندوة الحفيلة الحفية أن تفضي إلى لم شتات ما خلفه الشيخ الفاروق من ذخيرة علمية وأدبية، والعمل على نشر ماهو منها مجموع أو موزع في الدفاتر والطروس، وكذا السعي إلى تدوين الذي مازال محفوظا في الصدور مما بثه من توجيهات ودروس، عسى الأجيال الصاعدة والقادمة أن تطلع من خلالها على معالم الجهاد الذي خاضه هذا العالم المرموق، في مختلف سوح الفكر وشتى رحاب المحامد، والذي تأهل به ليكون أحد رموز الوطن الثابتين وعلما بارزا في سجل الخالدين.

رحمه الله وأجزل له مغفرة المرضيين المنعمين وجزاه بثواب السابقين المقربين.

والسلام عليكم وعلى جمعكم الوفي الأمين.

عمر بهاء الدين الأميري
وشعرية الجهاد

* * *

كلمة ألقيت في الحفل التأبيني الذي أقامته جمعية العمل الاجتماعي والثقافي للمرحوم عمر بهاء الدين الأميري، بمسرح محمد الخامس بالرباط، صباح الأحد 28 ذي القعدة 1412هـ الموافق 31 مايو 1992م؛ وكان قد توفي بالرياض يوم السبت 21 شوال 1412هـ الموافق 25 أبريل 1992م.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة

أخواتي إخواني أعضاء أسرة الفقيد العزيز

حضرات السيدات والسادة

شاءت إرادة الله تعالى ومضى قدره الذي لا راد له، أن يختار إلى جواره في أعلى عليين برفقة المرضيين المنعمين، أحد أقطاب العمل الإسلامي يعد فذا فيما قدمه من جهاد صادق على مدى سنين طوال، لم يفتر فيها لسانه وقلمه عن الدعوة إلى الله والإرشاد إلى سبيل هداه؛ موظفا لرسالته السامية هاته كل ما أوتي من إيمان قوي والتزام ثابت، وفكر متفتح، وروح شفاف.

إنه المرحوم بكرم الله الأستاذ الشاعر عمر بهاء الدين الأميري الذي حل لفقده بالشعبين الشقيقين - السوري والمغربي - ومعهما الأمة الإسلامية كافة، رزء جسيم تهدم به بنيان ركن من الآساس، يشعر الجميع بالحاجة الملحة في الظرف الراهن الدقيق إلى قيامه دعامة ثابتة راسخة، وواجهة مشرقة شامخة.

وعلى أن المصاب جلل فادح يفيض في النفس مشاعر الأسى والأحزان، ويكمد الجنان ويقبض اللسان، فإنه لا أقل من كلمة عرفان أشارك

بها من زاوية معرفتي بهذا المجاهد الكبير، في الإعراب عما له من أياد ناصعة بيضاء، رفع بها راية الدين وأعلى كلمة الحق في كل مكان.

وقد تسنى لي أن ألقاه شخصيا وأتعرفه في منتصف الستين بفاس، حيث كنا نجتمع في كلية آدابها، ألقي أنا محاضرات عن أدب الدعوة والشعر والسياسي في الإسلام، إلى جانب الأدب العربي في المغرب؛ ويدرس هو مادة الحضارة الإسلامية، مضيفا إياها إلى مقرر عن الإسلام والتيارات المعاصرة كان يخص به طلاب دار الحديث الحسنية بالرباط.

وعلى الرغم من أن التفرغ لمهمته في هذه الدار حال دون لقاآتنا المنتظمة في فاس، فإن اتصالاتنا لم تنقطع قط، لاسيما بعد أن سعدت بمجاورته السكنى في شاطئ الهرهورة بضاحية العاصمة.

ولتواضعه وكريم شيمه، ولما كنا نتبادله من صادق الود وخالص المحبة، كان - رحمة الله عليه - يسبق إلى طرق باب بيتي ليهديني إنتاجا له صدر، أو ليبدر إلى تهنئتي حين يرى في بعض أعمالي ما يستحق منه ذلك، محسنا ظنه بي، مزجيا لي آيات التشجيع والتقدير، ومفضلا ألا يناديني إلا ب «الحبيب». أما إذا زرته فلا يسمح بمغادرته إلا بعد أن يتحفني بسفر جليل أو قارورة طيب. وإذا كان الكتاب أنفس ما يمكن أن يتواد به خلان العلم والأدب، فإن «الطيب يهديه الذي هو طيب» كما في قول الشاعر الأريب.

ومع أن هذه الزيارات المنزلية المتبادلة كانت لا تتأتى إلا غبا ولماما، فإنه كثيرا ما كانت المحافل العامة مناسبة لنا للاجتماع، سواء داخل المغرب أو خارجه، وخاصة في عمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية الشقيقة، لدا انعقاد مؤتمرات المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بمؤسسة آل البيت.

وأذكر أني ما قابلته أو جالسته إلا أفضى إلي بهم يحمله أو قضية

تشغله مما يعانيه المسلمون، مشعرا بمدى تردي واقعهم الأليم؛ لكن في تفاؤل بعهد جديد لابد آت. وهي نظرة لم يكن يفجأ بها سامعه حتى حين يكون الحديث منبعثا من مآس ومثبطات قد تؤدي إلى الفشل والإحباط، لأن استبشاره كان يفعم مشاعره الفياضة، متجليا في منطقه الممتع، نابعا من بسمته الوديعة، تعرب عنه حتى إشاراته الهادئة وإيماآته الموحية.

ثم هو لا يلبث أن يتسرب بتلقائية لا استئذان فيها ولا استدعاء إلى قلب مذاكره والمصغي إليه، بما يلقي من ملح ونكات وأطاريف يخلل بها ماله في موضوع المناسبة من أشعار، ينشدها أبياتا ومقطوعات، وحتى قصائد كاملة تغري - على طولها في بعض الأحيان - بالمزيد من الاستماع والاستمتاع.

ولا عجب، فإن الأميري شاعر يتميز في ساحة الإبداع بسمات ظاهرة حينا وخفية أحيانا كثيرة. فهو إذا كان للوهلة الأولى يجذب المتلقين لروائعه بعذوبة ألفاظه ورقة مشاعره ودقة صوره وجمال إيقاعه، فإنه سرعان ما ينطلق من ذلك كله - وقد صفا حسه والتهبت جذوة مشاعره وتدفق قريضه رشيقا رقراقا - ليحلق في أجواء الخلوص النفسي والسمو الروحي، مشدودا إلى أكوان علوية وآفاق بعيدة، يقوده إليها نفس صوفي متفرد، مهما تكن الرموز التي تكتنفه، فإنها لا تستقي إلا من فيض حب ذات الله الغامر والتعلق بشخص رسوله الأكرم، ولا تصب في غير حضرتهما الطاهرة المقدسة.

وإن القارئ لمجموعاته الشعرية المنشورة لينتهي إلى هذه الحقيقة؛ سواء ماكان من هذه المجموعات دالا عليها، كديوان «مع الله» و«أذان القرآن» و«قلب ورب»؛ أو ما كان منها لا ينم عنها مباشرة، كما في «أشواق واشراق» و«ألوان طيف».

وماكان لهذه الحقيقة أن تغيب حتى في شعره الوجداني الخاص الذي

يعتبر للمبدع الراحل في طليعة خصائصه، بما تناول فيه من مضامين تجاوز بها ذاته ليعانق الإنسانية في أعمق عواطفها وأرق أحاسيسها، على حد ما يثبت ديواناه «أب» و«أمي».

ويكاد هذا الملمح العاطر الزكي أن يكون طابع الملاحم التي امتزج فيها التعبير العام ببوح الكيان ونفثه المقاوم المناضل، مما يتمثل في «الأقصى وفتح والقمة» و«من وحي فلسطين» و«ملحمة النصر».

ذلكم هو مفتاح شاعرية البهاء الذي توسل بهذا الفن من القول أداة لجهاده الإسلامي، على سعة سوح هذا الجهاد وماكان له فيها من مساهمات اتخذ لها أنماطا أخرى من التعبير، كالمحاضرات التي تنوعت أغراضها، وتعددت مراكز إلقائها على امتداد بلاد الإسلام؛ يتناول فيها بالدرس المتأني والتحليل العميق جوانب حية من تراث المسلمين وما آلوا إليه، في وضع تزيد تأزيم ظروفه المضطربة علاقات غير متوازية ولا متوازنة مع الذين غدوا يسعون إلى التحكم في العالم وفرض ما ينشئون من نظم وقيم عليه. وهذا ما يظهر في عناوين بعض منشوراته عن «الإسلام والمعترك الحضاري» و«المجتمع الإسلامي والتيارات المعاصرة» و«الإسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة» و«وسطية الإسلام وأمته في ضوء الفقه الحضاري».

في غمرة هذا العمل الإسلامي المتشعب الحفيل، وتحفزا من كل المشاعر العميقة التي تحث عليه، لم يكن المؤبن المنعم – وهو الفلذ الوفي لسوريا الإباء وحلبها الشهباء – يغفل لحظة واحدة عن البلد الذي اختاره لنفسه وأسرته محط سكن واستقرار، والذي كان كبير الاعتزاز به دائم الافتخار به، مقاما طيبا لا يفتر لسانه وقلمه عن اللهج به؛ يشيد بطبيعته، ويثني على ملكه وشعبه، وينوه بتاريخه ومواقفه البطولية ومبادراته الإسلامية، ويعرف بقضاياه الوطنية، ويساند وحدته الترابية وعنها يدافع

وينافح.

وإنه ليكفي الرجوع إلى كتابه «لقاآن في طنجة» ليتضح من خلال ما فيه من «تاريخ وفكر وشعر» بعض ما كان الشاعر الراحل يكنه للمغرب الذي دامت إقامته فيه نحوا من ثلاثين سنة بدءا من أوائل الستين.

ولا أراني أبالغ في شيء، إذا قلت إن شعور أبي براء بمغربيته بلغ عنده حدا جعله يعتبر نفسه سفيرا للمغرب حين يكون في أي قطر آخر. وقد شاهدته في مؤتمرات كثيرة بالخارج يرتدي الجلباب المغربي، يزهى به في غير قليل من الازديان والازدهاء، معتزا بما هو دال عليه من انتساب وانتماء.

هكذا - أخواتي إخواني - عرفت الفقيد العزيز، وكذلكم كانت صورته في عيني، وكذا في ذهني وقلبي، منذ أول لقاء معه إلى الاجتماع الذي لم يتسن لي بعده أن أراه. وإني لأسترجع الآن آخر مرة قابلته فيها يوم عدته في مرض موته، قبيل سفره للعلاج في المملكة العربية السعودية الشقيقة. فقد امتدت اللحظة التي كانت تقتضيها العيادة إلى نحو من ساعتين، كان أثناءهما - وهو في الفراش - يطلب بإلحاح وإصرار إحضار ملفاته ودواوينه المخطوطة والمرقونة، ويتحامل على نفسه ويأبى إلا أن يقرأ لي منها جميعا. ولا أخفي أني كنت في إشفاق كبير عليه، لم أحاول إظهاره، وأنا أتابعه وأصغي إليه، في تجاوب مندمج شغف يتقطعه ما كان يود إثارته من تعليق خفيف؛ وهو على سريره يكاد يهتز فرحا طربا تترقرق ومضات الانتشاء في عينيه، راسمة على محياه ملامح من الاطمئنان والانشراح ابتهج لهما يومئذ ابنه البار الأستاذ السيد محمد يمان، ذاكرا لي أنها حال لم يره عليها قط في هذه الفترة المرضية.

إلا أن أمر الله كان قدرا مقدورا وقضاء محتوما، فقد توقفت حياة هذا الصديق «الحبيب»، وكتب لجثمانه الطاهر أن يوارى في ثرى البقاع

المقدسة التي كان قلبه إليها دائم الهفو، ولسانه بها صادح الشدو.

ولكان ما مات من كان حياته يتطلع إلى المراقي اللدنية، يرقب تجلياتها بالنور الذي قذف الله في قلبه؛ ومن غدا بعد وداع الدنيا يغتبط بما كان يفيض عليه هذا النور من نفحات، ويقوده إليه من صالحات، راجيا مرضاة ربه وجزاءه الأوفى مقيما في دار الخلد منعما بروضات الجنات.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى والبركات.

الأستاذ محمد الفاسي
كما عرفته

* * *

كلمة ألقيت في حفل التأبين الذي أقامه قدماء تلاميذ المدرسة المولوية للأستاذ المرحوم محمد الفاسي، تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة نصره الله، وذلك بمسرح محمد الخامس بالرباط بعد ظهر السبت 28 شوال 1412هـ الموافق 2 مايو 1992م. وكان قد توفي يوم السبت 14 جمادى الثانية 1412هـ الموافق 21 دسمبر 1991م، ودفن بضريح مولاي الحسن بالرباط بعد ظهر الاثنين.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
أصحاب المعالي والسعادة
أخواتي إخواني أعضاء أسرة الفقيد العزيز
حضرات السيدات والسادة

أرجو في البدء أن ألتمس منكم العذر إن لم يسعفني التعبير في الإعراب عما يعتمل في نفسي من مشاعر الحزن الأليم وأحاسيس الأسى البالغ التي خلفتها وفاة الزميل الكريم الأستاذ الكبير السيد محمد الفاسي تغمده الله برحمته؛ هذا الرجل الذي يحتل في ذهني وقلبي موقعا زاده رسوخا حين طوق عنقي بدين كبير، لعل حفل تأبينه أن يكون مجال أدائه وفرصة إيفائه، على الرغم من صعوبة الموقف وجلاله، مما هو متجل في هذا الجمع المهيب.

إن ما يتأجج في أعماقي من صدى المصاب وتأثيره، إنما هو وليد العلاقات الوطيدة التي ربطتني بصاحب الذكرى، والتي أتاحت لي معرفة به، هي على سعيها إلى المواكبة والاستيعاب، تبقى دون ما يطبع شخصه المتميز بتنوع الاهتمامات التي شغلته، وتعدد المجالات التي خاضها، في حرص شديد لاملالة فيه ولا كلول.

وإن هذه المعرفة لتبدأ من مستوى شائع عام يلتقي فيه المغاربة كافة، إذ لايكاد يوجد أحد لا يتمثل الصورة التي برز بها الفقيد في مضمار

الكفاح الوطني والتي التأمت ملامحها منذ مشاركته في تأسيس جمعية طلبة شمال إفريقيا بفرنسا آخر أعوام العشرين ورئاسته لها، إلى توقيعه وزوجه الفاضلة السيدة مليكة الفاسي - أمد الله في عمرها - على وثيقة المطالبة بالاستقلال سنة أربع وأربعين وتسعمائة وألف، وما عانى إثر ذلك من اعتقال تعرض لمحنته مرة ثانية أثناء الأزمة التي اشتدت أوائل الخمسين، والتي أفضت في العشرين من غشت عام ثلاثة وخمسين إلى نفي بطل التحرير جلالة المغفور له مولانا محمد الخامس نور الله ضريحه وقدس روحه.

ثم رحبت آفاق معرفتي بالأستاذ المأسوف عليه، عبر ما كان ينشره في الصحف والمجلات من كتابات كانت تستبد بها رغبة ملحة عنده في التعريف بالمغرب. وهو توجه حفزه إلى إخراج مسامرة مستفيضه عن «شاعر الخلافة الموحدية أبي العباس الجراوي» نشرها ضمن مطبوعات جمعية قدماء تلاميذ مدرسة جسوس أول عهد الاستقلال. ومثلها محاضرة جعلها «مقدمة لتاريخ الأدب العربي بالمغرب الأقصى»، وكان طبعها معهد الدراسات العربية بالقاهرة سنة إحدى وستين. وفي هذا الصدد يشار كذلك إلى دراسته التي قامت دار الكتاب بإصدارها عن السفير «محمد بن عثمان المكناسي». وقد تسنى له أن يجمع عام سبعين ماراه مهما من مقالاته وبحوثه في كتاب «من وحي البينة»، وكان نشرها أو أعاد ما كان قديما منها في المجلة التي كانت تصدرها بهذا الاسم وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية أوائل الستين.

وإيمانا منه بأهمية النصوص وضرورة إخراجها، عني بكتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» لعبد الواحد المراكشي، أصدره عام ثمانية وثلاثين. وقبل ذلك بنحو ثماني سنوات، ترجم بمعية المجاهد الكبير المرحوم الحاج أحمد بلا فريج وبتعليقات ضافية، كتاب «أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين» الذي ألفه الأخوان جان

وجيروم طارو.

وقد وجه عنايته بالتراث لنوع منه ميز التأليف عند المغاربة – وهو فن الرحلة – فنشر من متونه «أنس الفقير وعز الحقير» لابن قنفد، بالاشتراك مع الأستاذ أدولف فور سنة خمس وستين؛ و«الإكسير في فكاك الأسير» لابن عثمان في السنة نفسها؛ و«أنس الساري والسارب» لابن المليح السراج عام ثمانية وستين؛ و«الرحلة المغربية» لمحمد العبدري في نفس العام، ثم «الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية» لمحمد الطاهر الفاسي سنة اثنتين وسبعين.

ولولوعه بالأدب الشعبي، عني مع إيميل درمنجم Emile Derman ghem بإخراج الأقاصيص الفاسية، أولا في "les contes Fassis" عام ستة وعشرين بباريز، ثم في "les nouveaux contes Fassis" في العام الموالي وبباريز كذلك. كما اهتم في نطاق هذا الأدب بالشعر، على حد ما فعل في «رباعيات نساء فاس: العروبيات» التي نشرها سنة اثنتين وسبعين. وقد كان عزمه سنين طويلة قارا على وضع تأليف في فن الملحون الذي كان له به شغف كبير، حتى جاءت «المعلمة» التي أصدرت أكاديمية المملكة المغربية أسفارا منها أربعة توالت منذ عام ستة وثمانين. ولا أخفي أن عناية المؤلف الفاسي بهذه الأنماط من التراث الشعبي زادتني تقديرا لجهوده، لاسيما وأنها تلتقي مع اهتماماتي التي أبرزتها كتابات لي صادرة منذ الستين، أتيح لي أن أتوجها بأطروحة عن قصيدة الملحون أنجزتها آخر هذا العقد ونشرت القسم الأكبر منها سنة سبعين.

وما كانت معرفتي بالراحل العزيز لتأخذ أبعادا قوية العلائق، لو لم يكن عززها اتصال شخصي بدأ في أحضان صداقته لوالدي رحمه الله وإياه، وانطلق منذ سعدت عام ثمانية وخمسين، وأنا يومئذ طالب في جامعة القاهرة، بحضور حفل استقباله في رحاب مجمع اللغة العربية. وكان عملي

بعد ذلك في سفارة المغرب بعاصمة الكنانة أوائل سنوات الستين يتيح لي أن ألقاه كلما حل بمصر لحضور مؤتمر جامعي، وهو إذ ذاك رئيس جامعة محمد الخامس، أو للمشاركة رفقة العلامة الأديب المرحوم عبد الله كنون في دورات المجمع.

ثم توثقت الصلات بيننا حين التحقت بالتدريس في هذه الجامعة سنة ست وستين، وكذا حين شرفني جلالة الملك الحسن الثاني أدام الله عزه، فعينني عام ثمانين أستاذا لأصحاب السمو الأمراء والأميرات بالمدرسة المولوية؛ وإن لم تستمر زمالتنا في هذه المدرسة سوى سنة واحدة، لما كان بدأ يعانيه من توعك وإعياء.

وقد توجت هذه المرحلة بالتقائنا في أكاديمية المملكة المغربية بدءا من سنة ثلاث وثمانين، بعد أن كرمني راعيها مولانا أمير المومنين، مضفيا علي تكريمه مرتين: الأولى بمنحي عضويتها، والثانية حين أمر - نصره الله - بأن يكون الترحيب بي فيها على لسان الأستاذ الفاسي؛ فحملني بذلك دينا هو الذي أحاول اليوم تسديد بعضه.

هذه نظرة عجلى على حياة حافلة تبلورت من خلالها شخصية يبدو مؤبننا داخل إطارها مأخوذا بمغربيته وعروبته وإسلامه. وفي هذا الحديث الموجز عنه وعن أعماله، يتجلى ما كان يخترمه من هم نحو الوطن ومدى حبه له ومبلغ تفانيه فيه. وماكان يألو جهدا في كل ما يراه يعلي من شأن المغرب ويرفع من قدر المسلمين، ويحفظ مكانة اللغة العربية التي كان - لغيرته عليها - يألم ممن يرتكب فيها خطأ أو بها يعبث ويستهتر. وكيف وقد درج حياته يقرأ ويبحث ويعلم ويحاضر. وما منعته الشدائد التي عاناها أيام الكفاح الوطني، ولا المسؤوليات التي تحملها من متابعة الدرس والتنقيب، وكذا من مواصلة الأسفار التي كان لها دور كبير في تنمية معارفه وتوسيع مداركه وإغناء تجاربه، إلى حد يمكن معه القول بأنه رحمه الله كان مولعا بكل

شيء.

وقد تولى بحكم هذه المسؤوليات مناصب هامة، كإدارة جامعة القرويين في عهد الحماية، ووزارة التعليم ورئاسة الجامعة ثم وزارة الثقافة والتعليم الأصيل في ظل الاستقلال، إضافة إلى تمثيله المديد لبلاده في «اليونسكو» وغيرها من المنظمات.

على هذا النحو، تسنى لي أن أعرف الرصيف الفاسي، وأسعدني الحظ فالتأمت أواصر بيننا ثابتة مكينة. ولئن كادت ظروف نشأة الجامعة وما واكبها من ملابسات أن تعصف بهذه الأواصر، فإنها ما استطاعت أن تنزع المشاعر العميقة التي ألحمت بيننا بأسباب متينة.

تلكم كلمتي في هذا الحفل الذي يقيمه قدماء تلاميذ المدرسة المولوية لأحد أساتذتها البارزين، تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة أيده الله وأطال عمره، فلعلي أن أكون رددت الدين الذي ألزمني به وإن لم أوفه حسب مقتضى الحال. وما أعظم مشيئة العلي القدير، فقد أرادت أن أوبن اليوم من ابتهج لي بالأمس، وشدا مرحبا بي في مجمع الخالدين. وهو مقام لا يتسنى إلا للأبناء مع الآباء ومن إليهم من ذوي القربى الخاصة، أو من في مكانتهم الروحية. وإن لي بهذا المقام انتماء سأظل به أسعد وأعتز، سائلا الله سبحانه أن يرزق أهل الراحل العزيز وذويه ويرزقنا جميعا جميل الصبر والعزاء، وداعيا أن يفيض عليه واسع المغفرة والرضوان وعظيم الأجر والثواب، وأن ينعم عليه بما هو أهل له لقاء ما قدم لأمته.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

إلى روح المرحوم عبد السلام جبران المسفيوي
الإنسان العلامة الداعية

* * *

نص الكلمة التي ألقيت في حفل تأبين الفقيد المسفيوي بجامع ابن يوسف بمراكش بعد صلاة عصر يوم الجمعة 3 جمادى الأولى 1413هـ الموافق 30 أكتوبر 1992م، وكان قد توفي بمراكش يوم الثلاثاء 24 ربيع الأول 1413هـ الموافق 22 سبتمبر 1992م ودفن يوم الخميس.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

من نبيل غايات الحفل الذي يقام لذكرى أبناء الوطن المخلصين الكرام، وفلذه الأفذاذ الأعلام، أنه يتيح لحظة تأمل وهدوء، وارتفاع وسمو، ينأى فيها المقيمون له عن مقتضيات الزمان، وملابسات المكان، ويتجردون من كل ما يشغلهم في هذا العالم من آمال وآلام، وما يتعلقون به من أوهام وأحلام، ليحلقوا بأرواحهم في أجواء من الطهر والصفاء، علهم يلقون من حلت بهم لرحيله أفدح الخطوب وأجسم الأرزاء.

وهم حين يسعون إلى هذا اللقاء، يتوقون في غير جلبة ولا ضوضاء، ولا عجب ولا كبرياء، إلى إشهاد رب الأرض والسماء، أنهم يخاطبون فقيدهم بلسان صادق، وتواضع فائق، يعبرون له - ومن خلاله يعربون للأمة - عما يكنون له من مشاعر العرفان، وماهو حقيق به من مظاهر الامتنان، بما قدم لها ولهم من جليل الخدمات، وما أسدى من أياد بيضاء وأعمال صالحات.

يفعلون ذلك عساهم يكفرون عما سبق لهم في جانبه من إغفال ونسيان، وربما من جحود ونكران، ولا عجب فالمرء مادام حيا به يستهان.

وهاهي ذي تلكم اللحظة العلوية القدسية، تغمرنا بأنوارها المتلألئة السنية، مشعة في هذا البيت العامر الفواحة أبهاؤه بنسمات زكية عطرية؛ فماذا تراني أقول لمن فاق فقده أعظم المصائب والنوائب، وخلفني وإياكم

حيارى ما بين باك ونادب؛ وقد فاجأ موته إذ جاء مدلهمه يجري على المقدور، فانتزع من بيننا هذا الشيخ الوقور، ولا راد لما هو مكتوب ومسطور؟

* * *

سلام الله عليك أيها الحبيب الصديق، يامن أورثني محبتك أخ لك حميم شقيق، فوفيت له – يرحمك الله وإياه – وحنوت علي ورعيتها، وعلمتني كيف يكون حفظها وصيانتها، مهما بعدت الدار وشط المزار. ما رأيتك إلا وابتسامة حلوة تزين وجهك الصبيح المشرق، وما سمعتك إلا وحديث ممتع تفيض به وتغدق.

بالأمس القريب وقد حضرت إلى هذه المدينة الحمراء الفيحاء، لأسامر طلابها والعلماء، ومالي فيها من خلان أخلاء، سعيت إلي في مقر سكناي لترافقني وتأخذ بيدي، وتقود إلى مدرج كلية اللغة خطواتي؛ ثم قدمتني إلى الجمهور مبرزا ما تظنه من حسناتي، ومتجاوزا عن أخطائي وهفواتي؛ ترفع بذلك مكانتي، وتعلي حرمتي، وتؤكد مودتي؛ مما لا يمكن صدوره إلا من والد لولده، أو أستاذ لتلميذه.

ولا بدَع فقد حباك الله الحميد والجميل من الخصال، وأسبغ عليك العميم والجزيل من الأفضال، فارتقيت إلى أعلى مدارج السلوك، وخفضت الجناح ورعا وتقوى منك، فأحبك الناس جميعا وقدروك، وأثنوا عليك ومدحوك.

وماذاك إلا لأن الكبير المتعال، قد ألقى عليك منه محبة بغيره لا تنال، وجلاها عندك في جميع ما تفعله والأقوال؛ وهو ما لا يدرك بأمل أو رجاء، ولكنه فضل الله يوتيه من يشاء، فطوبى لك أن كنت من المحظوظين السعداء.

* * *

وسلام الله عليك أيها العالم الجهبذ الأريب، والمبدع المفوه الأديب؛ حملت الأمانة، وبلغت الرسالة؛ لقنت الأجيال وفر علومك وثر معارفك، ولقحت

العقول برزين فكرك، وسديد رأيك.

فسرت آي القرآن المبين، فكنت المبرز الأمثل، وشرحت أحاديث الصادق الأمين، فكنت المقدم الأفضل. تبهر إذ تملي من حافظتك وذاكرتك، وتعجب إذ تسبر أغوار تحليلاتك وتأويلاتك. تجول في رياض القدماء، وتنتقي من أفانين الحكماء، تنتخب أطيب ما عند السلف، وتنقله إلى الخلف؛ تقرب المعاني الشريفة، والفوائد الطريفة، تغري بها متوسلا بالأمثال السيارة، والأشعار المختارة، والنكات اللطيفة، والمداعبات الخفيفة.

يلتئم لك ذلك كله مع طول النفس وضبط الرواية، وفي بديهة وروية ودقة الدراية؛ يسعفك حاضر الدليل وساطع البرهان، وينساق لك رائع التعبير وجميل البيان، في ارتجال سائل دافق، ولسان مطاوع موافق؛ يقينا منك أن النص المقدس ظاهره أنيق، وباطنه عميق، وأنه في هذا ذخيرة لا تفنى من سديد الحكم وعظيم العلم، وفي ذاك كنز لا ينفد من بالغ الحكم وسحر الكلم.

وهذه دروسك وحلق إفتائك ومواقف خطابتك قد فاح نشرها الطيب العبق، مزيجا من علمك المتدفق، ونطقك المتسق؛ بل هذه محاضراتك في مجلس مولانا الإمام، شاهدة على ما حظيت به إذ انقاد لك القول في أحسن انتظام، وحزت قصب السبق وأحرزت التمام، فنلت سامي الرضى وتبوأت أعلى مقام.

فليجزك العليم الحكيم، وليشملك بفضله السابغ الكريم، لقاء ما أسديت لأبناء جلدتك من نفع عميم، ولينلك الفوز العظيم، وليجعل مأواك في مكان صدق برحاب النعيم.

* * *

وسلام الله عليك أيها الداعية المرشد، فيضك الله بما قذف في قلبك من نور، لتنعش الأرواح وتأخذ الناس بالأيد. تبلغ كلمة الله وتقود للهداية،

وتوجه لما يجدي في هذه الدار الدنيا الفانية، وفي تلك الدار الأخرى الباقية. تفتح الأبصار والبصائر، وتبشر بما به تنال الرغائب والذخائر؛ وقد رزقك الله في ذلك التوفيق والسداد، وألهمك منه بقوة الإمداد.

توصل الحق بالموعظة الحسنة والدليل الصائب، وتدحض الباطل بالحجة البالغة والذهن الثاقب. تعرف كيف تجذب وتستميل، مقنعا بالمنطق السليم والقول الجميل، في رحابة فكر، وسعة صدر، وتسهيل لما صعب من الأمر.

تتزاحم حوله المناكب، ويلتقي الحاضرون من شتى الوجهات والمشارب، سواء منهم القاصي والداني، بدءا من مراكش إلى مختلف البلدان. وقد سعدت أكثر من مرة برفقتك إلى بلاد السودان في السنغال، وشاهدت ما تلقى هناك من افتتان وإقبال؛ تأوي إلى كنفك أفواج الخلائق، تصيخ إلى ما تبثه من مواعظ وتلقيه من رقائق، تزيل بها عن القلوب صدأ الجهالة والآثام، وتكشف لها الحلال والحرام، وترفع عنها سجف الظلام، وتبين لها سبيل القوام والدعام.

فليجعلك الله بذلك من السابقين المقربين، بحوار الثلة من الأولين حيث لا تسمع لغوا ولا تاثيما، إلا قيلا سلاما سلاما.

* * *

أما نحن - أهلك وأحباءك، ومريديك وأصدقاءك، وتلاميذك وزملاءك - فدموعنا عليك سواكب، والمصاب فيك لرشدنا سالب. وإذ لا إمكان لمواجهة قضاء الله المحتوم الواجب، إلا بالاستسلام لحكمه القاهر الغالب، فلنبك عليك ما فاض بنا الشجن والوجد، ولننح ما شئنا بلا عد ولا حد؛ فلا عزاء في فقد الأعزة إلا بالصبر، به تكون البشرى ويكتب الأجر، وبه يستجلب الاحتساب والحمد، إيمانا منا بأنك لم تمت وإن ضمك اللحد. فما مات من أبقى العز والمجد، ومن أكرمه الحق سبحانه بالثناء والود، ومن وعده المقام

في جنان الخلد.

وكيف وقد لقيت ربك محسنا به الظن في غير تبديل ولا تغيير، وفي ثقة بعفوه وكرمه وطرف قرير، وانتقلت إلى جواره وأنت لديه حظي أثير، وبنيل الجزاء الأوفى جدير.

وإلى أن يزول عنا حزنك الشديد، وأنى لنا ذلك أيها الحبيب الفقيد، نبتهل إلى الباري جل شأنه أن يفيض عليك من بحر رضوانه المديد، وأن يغدق عليك من غفرانه الشآبيب، وينهل على قبرك من رحماته السحائب، فهو تعالى الرحيم الغفار، ومثيب عباده الأبرار، المتفضل عليهم من جوده الطميم الزخار. إنه إليه يؤول الخلق أجمعون، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

الفقيه محمد بن عبد الله الروداني كوثر
ولقاء في أول الطريق

* * *

نص الكلمة التي ألقيت في الحفل الذي أقامه النادي الجراري وجمعية إيليغ، لتأبين المرحوم الروداني في مدارس محمد الخامس بالرباط بعد عصر الخميس 22 جمادى الثانية 1413هـ الموافق 17 ديسمبر 1992م؛ وكان قد توفي بهذه المدينة صباح يوم السبت 25 ذي الحجة 1413هـ الموافق 27 يونيو 1992م، ودفن بعصر نفس اليوم في مقبرة سيدي الخطاب.

بسم الله الرحمان الرحيم الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين

فجع المغرب كله بدءا من رودانة والرباط إلى مختلف الأنحاء والجهات بذلكم الخطب الجسيم الذي دهمه ودهاه، لفقد أحد أعلامه وفرسانه في سوح العلم والأدب والسلوك، الفقيه المرحوم محمد بن عبد الله الروداني كوثر. ووقع الرزء أليما في نفوس رفاق دربه ومتتبعي مسيرته وجميع خلانه ومحبيه، أولئك الذين لو أتيح له اليوم أن يطل عليهم من المقام الأعلى الذي بوأه الله إياه إلى جواره وفي دار كرامته، لدهش وعجب لاشك، لكثرة عددهم، وشدة بكائهم، وطول ذكرهم له، وما ينثرون على اسمه من خالص الثناء وصادق الدعاء. فما كان - لتواضعه ونهجه الصوفي - يظن أن له فضلا يستحق به أن يسلك في مدارج ذوي الرتب الرفيعة وأصحاب الشان، وما كان لخبرته بالحياة والناس يتوقع شيئا من العرفان والامتنان. وإنه لصاحب ذلك كله وأكثر، وأهل لماهو منه أسنى وأجدر.

وقد تسنى لي أن أعرف جوانب متعددة من حياة الفقيد العزيز، وأعيش معه لقطات منها غير يسيرة، بحكم العلاقات الوطيدة التي ألحمت بيننا في أصر قوي ورباط متين.

بدأ هذا التعرف أوائل سنوات الأربعين، وأنا طفل في الخامسة أو السادسة من عمري، آنس إليه كلما زار والدي في بيته رحمه الله وإياه، وأجلس إلى جانبه مأخوذا بهيئته التي كانت تشدني إليه في شيء من

الاستغراب، والتي ظلت مرافقة له على امتداد الأعوام. وكان هذا الشعور يزيد عندي حين يصحبني أبي معه إلى الدار البيضاء ويأخذني إلى الدكان الصغير الذي كان الفقيه الروداني قد اتخذه للتجارة في حيها القديم، مستقلا بها أو شريكا فيها لغيره، كالفقيه المرحوم محمد البورقادي.

وكان والدي، رغبة منه في إزالة ما يراودني من إحساس، يبين لي أن صديقه هذا التاجر السوسي يعد من العلماء المرموقين والأدباء النابهين، وأنه إذا كان يعمل في التجارة بهذه المدينة، فإنه كان قبل ذلك قد كرع من ينابيع المعرفة الثرة في مسقط رأسه بتارودانت وما إليها ثم في مراكش، إذ يعد من نبغاء المعاهد السوسية العتيقة، ومن ألمع تلاميذ مدرسة الرميلة التي كان يشرف عليها الأستاذ المرحوم محمد المختار السوسي بعاصمة الحمراء. وحين لم يكن يسعفه العمل التجاري الذي اضطر إليه في غربته، كان ينتظم مرة في خطة العدالة بمهاجره، أو يتطوع أخرى للتعليم في بعض المدارس الحرة به، كمدرسة النجاح التي كان يسيرها الأستاذ المجاهد السيد محمد الحمداوي. وفي جميع هذه المواقع، كان التوجه الوطني حافزه ومحركه.

ولم تلبث الصلة بيني وبين الراحل المنعم أن تقوت في السنوات الأولى للخمسين بفعل هذه الزيارات المتبادلة، لاسيما في الدار البيضاء، حين كانت تطول الجلسات الليلية والمذاكرات الممتعة في المسائل العلمية والقضايا الوطنية في منزل الأديب الوفي السيد أحمد الزرهوني الموسوي أو بيت الوطني الغيور السيد محمد حنيف ابن الكبير رحمه الله.

وإني لأذكر جيدا تلك الليلة التي دعاني فيها، ونحن على مائدة العشاء بهذا البيت الكريم، إلى الكتابة في مجلة (هنا كل شيء) التي كان يشرف على إدارتها وتحريرها، إلى جانب نخبة من قدماء تلاميذ الدار البيضاء، كان من بينهم الأستاذ الحازم السيد محمد المعزوزي. وكانت نصف شهرية

وذات نزعة أدبية اجتماعية عليمة، مع اهتمام بالاستطلاعات والقضايا العامة، وعناية بصور مشاهير الفن والأدب، حتى تسيغها السلطات الاستعمارية في تلكم الفترة الصعبة من أواخر عهد الحماية؛ علما بأن بعض أصدقاء المغرب من الفرنسيين الأحرار المضادين لاتجاه الاستعمار كانوا خلف تشجيع هذه المجلة المنسية التي يضيق المجال عن التوسع في الحديث عنها. ولعل الفرصة أن تتاح قريبا لكتابة بحث مستفيض عنها إن شاء الله.

ولا أخفي أن الأمر كان بالنسبة لي وأنا يومئذ تلميذ في الثانوية اليوسفيه بالرباط، حدثا لا أجد الكلمات لوصف أهميته، إذ لم أكن أتوقع أن يفتح لي، في مرحلة مبكرة من سني ومن دراستي في هذه المؤسسة، مجال الكتابة والنشر باللغة العربية، وأن يتم لي دخوله باستدعاء من مدير المجلة ورئيسها، وأن تكون معاملته لي كما لو كنت أحد حملة الأقلام البارزين. وبالفعل، فقد نشرت على صحائف هذه المجلة مقالاتي الأولى. وكان منتظرا أن تنشر لي قصيدة في العدد الذي توقفت المجلة بعدم صدوره مع صورة لي كان أكرم الله مثواه قد ألح علي في طلبها.

وإذا كانت هذه الذكريات التي هي من قبيل هوامش الحياة الشخصية، لا تكتسي في هذا المقام وفي الكلمة التي أنا بصددها أي مدلول، إلا لوجودها في سياق الحديث عن المجلة والمسؤول عنها، فإن ما أستحضره وأرى ضرورة التذكير به هو الافتتاحيات الرائعة التي كان المرحوم الروداني يحبرها بعد استجماع رأي زملائه في التحرير، على ما ذكر لي الصديق المعزوزي، والتي كان يستهل بها معظم الأعداد موقعة ب «ابن عبد الله» أو «هنا كل شيء» على نحو ما كتب تحت هذه العناوين: «وذو الشوق القديم» «من مشاكل الصحفيين» «وعاد الصيف أيضا» «أقلوب أم حجارة» «التطور سر الحياة». وشبيه بهذه الافتتاحيات ذات النفس الأدبي الرفيع، مقالات دراسية تنم عن حس دقيق في البحث والتحقيق؛ منها

«أصول الإمضاء»، وهو مقال جاء بالإضافة إلى طرافته محلى بعلامات من أختام الأقدمين ونماذج خطها بعض قضاة الدار البيضاء.

ولم تلبث هذه الفترة الحالكة أن طواها ضياء فجر الاستقلال، فدعي الفقيه المكافح ليحتل الموقع اللائق به في المغرب الجديد، وليكون إلى جانب شيخه السوسي في ديوان وزارتي الأوقاف والتاج، ثم ليعين خبيرا للمخطوطات في الخزانة الحسنية. وقد تسنى له في نطاق هذه المهمات أن يعين أستاذه على إخراج موسوعة «المعسول» وأن يحقق كتابه «إيليغ قديما وحديثا». وعلى الرغم من أنهما كانا ملازمين لجلسة الجمعة في نادي الوالد، إلا أني، بسبب رحلتي للدراسة ثم العمل الدبلوماسي خارج المغرب، لم أكن ألقاهما إلا حين أعود في عطلة. وغالبا ما كنت أغتنم هذه العودة لأتردد على الخزانة المذكورة فأقضي ما أقصدها لأجله، ممزوجا بكثير من الاستفادة والاستمتاع من خلال التحدث إلى الأديب الروداني وهو يخبر عن مخطوط نادر، أو يحكي إحدى قصص ذكريات دراسته، أو يعرف ببعض أعلام سوس العالمة المجاهدة.

وإذا كنت بعد رجوعي النهائي إلى الوطن قد سعدت بلقائه في معظم جلسات الجمعة وغيرها حتى بعد انتقال صاحب النادي إلى عفو الله وكرمه، فإن هذه السعادة زادت بعد أن ألحق بالإدارة العلمية لأكاديمية المملكة المغربية، حيث كنت أنتهز مواعيد اجتماعاتها فأطرق مكتبه لتحيته والاستفسار عن صحته، فيستبقيني بعض الوقت ليقرأ علي ما يكون على مكتبه مما هو منكب على تحريره أو تحقيقه، ملحا في أن يعرف رأيي وما قد يكون لي من ملاحظات يتطلع إليها بتواضع جم ورغبة متناهية في الاستزادة.

وإن من الإنصاف أن أسجل له في هذا المجال كبير اعتزاز الأكاديمية وجميع الأوساط العلمية بالجهد الدائب الذي بذله – طيب الله ثراه – في

التعليق على كتاب «التيسير في المداواة والتدبير» لأبي مروان عبد الملك ابن زهر، والذي دل على سعة اطلاعه ودقة بحثه وامتداد نفسه وطول صبره وكبير تأنيه في غير كلول ولا ملال. وقد كان عزم الأكاديمية على تكليفه ب «الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة» لأبي زيد عبد الرحمان التمنارتي قصد تهييئه للطبع، لولا أن سبقت إلى هذا التكليف جمعية إيليغ للتنمية والتعاون، فلعلها أن تعجل بنشره، لمرجعيته الهامة، ولما أضفى عليه المؤبن العزيز بتحقيقه الذي كان يطلعني عليه كلما أنجز طرفا منه، وقد أكمله بالفعل. وفي هذا السياق، أذكر أنه - رحمة الله عليه - كثيرا ما كان يحدثني عن فهرسته لـ «المعسول» ورغبته في أن تكون على منهج ييسر النفع به، لاسيما بعد أن عرض مشروعها على الأكاديمية لإقراره ضمن مخطط لجنة التراث. وقد ذكر لي الأخ الكريم السيد سعيد ابن الشيخ المختار أن المرحوم الروداني كان يود كذلك كتابة تعاليق على هذا الكتاب القيم.

وعلى الرغم من ضخامة هذه المشاغل العلمية وما تقتضيه من جهود مضنية، فإن نزوعه إلي الأدب كان دائم الاستبداد به، قوي الدفع به لإبداع روائع يسبكها في نثر رصين أو شعر جميل. وأكاد أقول إنه ما كان يجد ذاته بحق إلا في هذه الرحاب، إليها تهفو نفسه وتتحرك أحاسيسه. وفي أجوائها الصافية يتنسم عبير ذكريات أيام العمر الزاهية، ويسترجع خبايا الهوى الدفين، وكيف وهو الذي كتب قبل أربعين سنة إحدى افتتاحيات المجلة البيضاوية - على نحو ما مر - مستلهما عنوانها من «ذي الشوق القديم» الذي قال عنه عمر بن أبي ربيعة:

وذو الشوق القديم وإن تعزى مشوق حين يلقى العاشقينا

وقد ساق له صاحب «المعسول» أثناء ترجمته في الجزء الرابع عشر، نماذج غير قليلة من كتاباته النثرية والشعرية البديعة، تحتاج إلى أن تضم إلى غيرها لتبرز مدى غنى الجانب الأدبي في اهتمامات الراحل المنعم. وله

فيه مرثيات متناثرة لم يلتفت إليها على إبداعيتها المتميزة، قالها في أبي شعيب الدكالي، ومحمد البيضاوي الشنجيطي، والمختار السوسي، ومصطفى الغربي، وغيرهم من شيوخه وأصدقائه. وربما كانت قصيدته التي ألقى في تأبين والدي آخر ما قال في هذا الغرض على ما أعلم، وكان قد بدأها بقوله:

هو الحكم حكم الله ليس يعقب   وما لا مرئ عما قضى الله مهرب
نراع لهول الصدع ثم يردنا   إلى الصبر وعد الأجر عنه فنرغب
وليس يطاق الصبر عن كل فائت   نحاوله، لكن نكل ونغلب

وهي أبيات يفوح بالشعر والحكمة شذاها الذي لا أدري كيف وجدتني مدفوعا بتنسمه إلى متابعة رائع قوله، مستوحيا منه قطعة أركبها عليه، أعبر فيها عما خلف في نفسي فقد هذا الأخ الكبير الذي لقيته في أول الطريق، فحباني حنو الأب والأستاذ، وسلك بي منعطفا صعب المجاز، حين أتاح لي أولى خطواتي في كتابة المقالة، وكان يود أن يفسح لي مجال القصيد كذلك. فلعله - أثابه الله وجزاه - أن يرضى عنها مثلما رضي عن تلك البواكير، وأن يتقبلها نفثة صادقة أختم بها هذه الكلمة، وفيها أقول:

وهل يصبر المكلوم يفقد خله   يغالب أرزاء القضاء فتغلب؟
غدوت بمنأى بعد ما كنت جانبي   وكنت بصفو الود للبعد تقرب
أناديك يا حبي فلا من يجيبني   وأندب حظا كنت بالروح أخطب
أناجيك والطيف المؤرق مقلتي   وأنزفها والدمع ليس يحجب
وكسرت كأسي فاض مرا حبابها   وكانت بأمسي مرها بك يعذب

....

فجعنا لفقد الإلف فقدك لا يرى   سواك هو الإلف الأليف المحبب
ففي كل قلب من رفاقك منزل   تبوأته والقلب بالحب يسلب
وأوحش نادي رفقة العمر غمة   وأوحشت الدنيا فهاهي تندب

ويبكيك فينا من عرفت وغيرهم سخين دمـوع همـع ليـس تنضب

....

إذا ما الفاجعـات جلـين يومـا فما صابني شمسـي لغيـبك تـغرب
سأحتسب الصبر الجميل تيقنا رجوعي إلى مـن لا يغـيب ويذهـب
على أن نأي الموت حتما إلى لقا وإن اللقا في «الكوثر» العذب نشرب

«وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون» صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمته تعالى وبركاته.

الأديب اللبناني الراحل توفيق يوسف عواد

* * *

أقامت الجمهورية اللبنانية حفلا لإحياء ذكرى أديبها الراحل توفيق يوسف عواد، بحضور رئيس الجمهورية، وذلك يوم الأحد 25 ربيع الثاني 1412هـ الموافق 3 نونبر 1991م. وقد كان الجراري مدعوا للمشاركة فيه باسم المغرب، ونظرا لمصادفة هذا الحفل وفاة والدته - رحمها الله - فإنه لم يحضر وألقيت هذه الكلمة نيابة عنه. هذا وكانت وفاة المرحوم توفيق ظهر يوم الأحد 16 أبريل 1989 في حادث مؤسف أليم.

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله
فخامة رئيس الجمهورية
أصحاب المعالي والسعادة
أصحاب الفضيلة والمجادة
حضرات الأساتذة
أيها السيدات والسادة

ما أروع لحظة لقاء الحبيب بعد طول المغيب، وما أسعد الحظي بها يصافح بجوارحه ويعانق بأحاسيسه، ثملا من دفين شوقه وعميق حنينه، طربا من فائق سروره وبالغ حبوره، تهتز ذاته وينتفض كيانه، ويتملكه شعور يستفز قلبه ولسانه وعينيه، فتفور جميعها متدفقة إلهاما ومناجاة وانتشاء ومناغاة، جذلى بلذة الوصال قريرة ببعث الآمال.

ذلكم ما غمرني في فيض صبابة متمكنة شاغفة إلى لبنان الوطن والأهل، وأنا أتوق إلى تنسم عبيره الطيب العبق واحتضان جوه المؤرج العطر بعد أن استبد بي من قوي الدواعي والدوافع مثلما استبد بالأخلاء الخلصاء الملتئمين في هذا الحفل البهيج المقام تكريما لفقيد الأدب العربي الكبير الأستاذ المرحوم توفيق يوسف عواد. وقد كان العزم معقودا على تلبية كريم دعوته وإسراع الخطى لحضوره، لولا أن حل بي – وأنا أستعد للسفر – مصاب أليم فجعني في الوالدة رحمها الله.

وإذا كان العهد بمرابع هذا البلد الرائقة قد تباعد والأمد قد طال، فما

ذاك بجفوة حالة أو تقصير مقصود، إذ الحب بيننا والوفاء ظلهما دون انقطاع وارف ممدود، لما يجمعنا من وثيق الأواصر ومتين الصلات، وما يشدنا من عريق العلاقات ووشيج القرابات، ولكنه معزو إلى الأزمات الأليمة المتلاحقة التي قاساها على مدى من السنين يبلغ عقدين أو يزيد، وهو البلد المسالم المطمئن السعيد، والتي عانى فيها بتحد وصبر وثبات ألوانا شتى من المحن والشدائد، دفاعا عن حريته ووحدته، وعزته وكرامته وحياده واستقراره، إلى أن انبلج فجر وليد، وعاد النور من جديد، يسطع على مراتع جماله الباهر ومجده الخالد، بعد أن دهمهما ليل دامس بهيم كاد يحيلها بهتا وذبولا، وتوهجت الشمس مرة أخرى تلقي بأشعتها على غابات أرزه السامق الصامد، وجنان زهره الذي روته دماء أبنائه الأبرار، فتفتحت أكمامه بهية يانعة.

وهل كان لبنان، بل هل يمكن أن يكون إلا باقة مسك زكي، فواح نفحه على الدوام، ومشعلا يشع بأضواءه المتلألئة على الآفاق والأنام، يبلغ رسالة القيم الكبرى والفضائل المثلى عبر الكلمة المعبرة الصادقة؟

* * *

وإن هذه الكلمة لتكتسي بتلك الرسالة قداسة تجعل منها «شيئا» متفردا هو في البدء والختام «كل شيء». كذلكم وصفها أديبنا المحتفى بذكراه، يوم كتب إلى صديقه مدير مجلة (الآداب) أخينا الكريم الدكتور سهيل ادريس، يجيبه عن خطاب وجهه إليه «يغريه بالعودة إلى ميدان الأدب الرفيع وهو من فرسانه المجلين بعد أن هجره فترة هي في حساب المعجبين به طويلة».

وقد جاء الرد العوادي الذي نشرته المجلة في عدد كانون الثاني سنة ثلاث وخمسين، بليغا منذ المنطلق بعنوانه «أبعد من المجد». وفيه عبر عن تجربة متمرسة بالكتابة وعرض رأيه فيها، باعتبارها ذلكم الكل الجامع الذي

لا إمكان لوصفه أو تحديده: «إذا قلت اللذة قصرت وإذا قلت المجادة جدفت، وإذا قلت الهناءة كلها لم أقل شيئا، لأنه كان أعمق من اللذة كلها وأبعد من المجد كله».

ويمثل روح الصفاء الذي كان يحث أصدقاء الكاتب على دعوته للعودة إلى الميدان، كان هؤلاء كذلك يبتهجون حين يعود، على نحو ما خاطبه ناسك الشخروب المرحوم ميخائيل نعيمة في مستهل رسالة بعثها إليه بعد أن أصدر تمثيليته (السائح والترجمان) عام اثنين وستين، وكانت نالت جائزة (أصدقاء الكتاب) لأحسن مسرحية، قال: «عدت وأنت الـ (عواد) إلى توفيق الذي عرفناه فأحببناه.... وكانت الفترة التي انقضت ما بين هجرتك وعودتك طويلة إلى حد أن كدنا نيأس من عودتك. وكيف عدت؟ عدت وكأنك لم تبرح الحلبة أبدا ...».

ولعل السبب في التخلي عن القلم لفترات طالت في بعضها، راجع إلى أن الكاتب عمل في الحقل الدبلوماسي، متنقلا في مختلف مراحله ودرجاته، وشغل منصب السفارة في دول كثيرة شرقية وغربية؛ ولكن ذلك لم يكن ليصرفه كليا عن الكتابة وإن لم يتابعها على النحو الذي عهده هو أو عهد فيه. وكيف وهي عنده حب متجدد يشعر بالحاجة الدائمة إليه؟ وإنها – على حد قوله – «حاجة أقرب ما تكون إلى الوصال، إلى المعرفة... وهل المعرفة في جوهرها إلا إزالة الحواجز وهل غايتها إلا الاتحاد؟»

في نطاق هذا المفهوم التأملي الذي يربط الوجود بهذا الحب السعيد حينا والشقي حينا آخر، وضع أديبنا الكتابة حين شرح تجربته الأدبية في محاضرة له ألقاها بدعوة من اتحاد الأدباء اللبنانيين سنة ثلاث وسبعين فقال: «أنا أكتب إذن أنا موجود. وراء اللذة والألم إثبات للوجود وتحد له وتجاوز».

ولا بدع أن تكون عملية الكتابة من هذا المنظور «التوفيقي» البديع

تضم النافع إلى الممتع والعام إلى الخاص، وتتطلع إلى ما فوق ذلك من نبيل الغايات وسامي الأهداف التي منها تتحفز وإليها تؤول. فالأستاذ توفيق في القليل الذي أتيح لي أن أقرأ من إنتاجه الثر الغزير، يبدو مالكا لناصية القول الآخذ بمجامع القلوب والمؤثر في أغوار النفوس، لما ينم عنه من إحساس مرهف رقيق، وحب ممزوج بالتسامح، وإيمان ثابت بالمحامد والمكارم، وتجاوب تلقائي مع واقع بيئته ومجتمعه ورؤية بعيدة لمخبآت المستقبل، في لغة أنيقة رشيقة وتلميحات موحية دقيقة وتوريات شفافة عميقة.

* * *

وقد دفعه هذا الشغف حبا بالكتابة إلى مزاولة الصحافة منذ بدء حياته العملية، والعلاقة بين الصحافة والأدب معروفة، فكتب في جرائد ومجلات، وتولى رئاسة تحرير بعضها وأنشأ أخرى، مما جعل له دورا بارزا في تطوير الصحافة اللبنانية، وكذا في كتابة المقالة والخاطرة، على نحو ما تكشف «النهاريات» التي كان ينشرها يوميا على أعمدة صحيفة (النهار) في سنوات الثلاثين. ومثلها السلسلة التي خص بها جريدة الحياة أوائل الستين، وكان يعنونها ب «فنجان قهوة» ويمهرها باسم (عبود).

وإذا كان أديبنا المكرم قد أضفى كثيرا من خصائص كتابته ومميزاتها على هذين النمطين، فإنه قد جلاها بصفة خاصة في الأعمال الرائدة التي أغنى بها الفن القصصي والروائي الذي كان كتاب هذا الوطن العزيز أسبق من غيرهم إلى تناوله والتعريف به والتوسل بقالبه الغربي الجديد، من خلال ما ترجموا منه واقتبسوا، أو ما ألفوا فيه وأبدعوا.

كان ذلك منذ أواخر القرن الماضي وأول الحالي، يوم كان هذا الفن ما يزال يحبو في أقطار عربية أخرى يحاوله الأدباء ويجربون حظهم فيه. وعلى ما أدركته القصة والرواية في مسيرتهما الطويلة من غنى وتطور منذئذ إلى

الآن، فقد كان لمبدعنا فيهما مكان طليعي تبوأه بفضل إنتاجاته التي كان لها الأثر البليغ والصدى البعيد والتي بها طار صيته وذاع ذكره.

وعلى الرغم من أنه لا سبيل إلى انتقاء قد يخل أو اختيار قد لا يفي بالمراد، فإنه لا مناص في هذا المقام من الإشارة المغنية والأمارة الهادية. ويكفيني أن أسترعي الانتباه إلى بعض مجموعاته المبكرة، ومنها «الصبي الأعرج» التي صدرت سنة ست وثلاثين، مصورة في جملة من أقاصيصها ألوانا من الظلم كانت تعانيه فئات مسحوقة في المجتمع يضطرها القهر إلى الانتقام والمواجهة العنيفة.

ومثلها مجموعة «قميص الصوف» التي نشرت عام سبعة وثلاثين، والتي جاءت أقاصيصها نابضة بالحياة المتحركة، مليئة بالمشاعر السامية المرتبطة بالأمومة والزوجية وما إليها من شريف العواطف ونبيل الأحاسيس.

وإذا كان فناننا قد برز في الجنس القصصي، فإنه كان في النمط الروائي قد حاز قصب السبق بروايته «الرغيف» التي أنشأها عام تسعة وثلاثين، يعرض فيها لقطات من وضع بلده إبان الحرب العالمية الأولى وما كان لها من تأثير عليه، وكذا ما عاشه في خضم الثورة العربية الكبرى سنة ست عشرة من أهوال ظلت مكابدتها مرتسمة في ذاكرة المؤلف وهو طفل صغير، مخلفة في ذهنه صورا قاتمة لما يطغى عليها من عنف ومأساة؛ وهي في إطارها العام تجمع السياسي إلى الاجتماعي، والإقليمي إلى العربي، في سياق صراع طبقي تنهض به فئات تواقة للحق في العيش العزيز الكريم، ومن خلال نضال عربي يسعى إلى بث وعي قومي للتحرر من الطغيان والاستبداد.

وبنفس الرؤيا كانت روايته «طواحين بيروت» التي أخرجها عام ثمانية وستين في غمرة الأزمة التي عرفها وطنه في هذا العام. وفيها عرى الواقع الذي يقاسيه، داخليا وهو يواجه بعض الظواهر المرضية المتفشية في

المجتمع، وخارجيا وهو يتحدى العدو الصهيوني؛ مع تناول في ثنايا هذا وذاك للوضع العام الذي يجتازه لبنان، وتركيز على العنصرين الحزبي والطائفي، وتوقع لما يهدد البلد من محن أظهرت الأحداث فيما بعد مصداقيته. وقد جدرت الرواية بهذا أن تنقل إلى عدد من اللغات، لاسيما بعد أن نشرتها منظمة اليونسكو ضمن سلسلة (آثار الكتاب الأكثر تمثيلا لعصرهم).

وهذا ما جعل إبداعات السيد عواد تحتفظ على مر السنين بالجدة والحيوية والاستمرار، طالما أن المشكلات والقضايا تظل هي هي، وطنية كانت أم قومية، إقليمية كانت أم عالمية، فكيف وهو يضفي على المحلي منها سمات إنسانية؟

وزاد في تخليد هذه الإبداعات تحليها بخصائص فنية متقنة، من سرد محكم وتحليل دقيق وبناء متماسك، وتكامل بين الأحداث والمواقف، في مشاعر فياضة متفجرة، وتأثير قوي عميق يذكي في النفوس المشبوبة جذوة وعي كشفت الأيام أن الحاجة الملحة ما زالت قائمة إليه. وهي ظاهرة تعزى إلى بعد نظر الكاتب لاشك وإدراكه لأسرار الوقائع، ولكنها ترجع كذلك إلى عمق التحامه الوطني وصدق معاناته التي كان من مظاهرها المباشرة السبب الذي قدر الله به وفاته، وتعرضه قبل ذلك أثناء حوادث عام ستة وسبعين لمحنة شديدة، إذ أصيب منزله في بيروت وضاعت له من جراء ذلك رسائل ومخطوطات من غزير إنتاجه.

* * *

تلكم آيات دالة في مسار حياة حافلة قضاها الراحل العزيز في أداء رسالة الكلمة الحرة الشريفة، لم أقتصر عليها لأنها هي كل ما يتفرد به، ولكن لأنها هي التي تسنى لي بها تعرفه، وقد اشتهر أمره وامتد جاهه على بعد الدار وشطوط المزار، وعلى قلة أسباب تواصل أبناء العروبة، وضعف

وسائل تبادل منتجات القرائح بينهم والأفكار. ولا أخفيكم ما انتابني من شعور بضآلة ما أعددته بعد أن أطلعت - منذ أيام قليلة فقط - على المجلد الضخم الذي يضم الأعمال الكاملة لكاتبنا الكبير، وضمنها سيرته الذاتية التي سماها «حصاد العمر» والتي جاءت كاشفة غنى حياة هذا الرجل الفذ وما قدمه من جهاد موصول الحلقات، وكان نشرها سنة ثلاث وثمانين متميزا فيها بنهج الاعتراف وأسلوب الحوار.

وإذا كنت - لضيق الوقت - لم أتمكن من إشباع رغبتي في تتبع جوانب جذابة من تلكم الأعمال، واكتفيت باقتباس بعض العناصر منها لتوثيق هذا العرض المتواضع، فإنه لفت انتباهي فيها اهتمام أديبنا بالشعر نقدا وإبداعا، في نزعة تجديدية واضحة؛ وكذا عنايته بالتراث الشعبي والأدب العامي، في تناول دقيق لما يثيرانه من قضايا شائكة؛ مما زادني تقديرا لجهوده المثمرة وإعجابا بإنتاجه الخصيب الذي جاءت أشكاله - على تعددها وتنوعها - معالم بارزة في سياق الأدب العربي الحديث والمعاصر.

وإني لأعتبر هذه الندوة الحفيلة فرصة لأستكمل الكثير مما كان خافيا علي، ومناسبة لأعرض بعض ما كان مرتسما في ذهني من ملامح عن تلكم المعالم الشامخة، لا أزعم بها أني أقدم بحثا أو دراسة مما لا يتسع له المجال، كما لا أقصد بها إلى المدح والثناء، أو التمجيد والإطراء، أو ما إلى ذلك مما لاشك أن مبدعنا يغنى عنه، ولكن لأعرب أو بالأحرى لأشارك في الإعراب عما هو به جدير من إشادة وإعزاز وتنويه وإكبار.

إن ابن لبنان البار خليق بهذا التكريم الذي أقيم له في مستوى أدبي رفيع وعلى نطاق عربي كبير؛ مشعرا بمدى التقدير والعرفان اللذين يوليهما الوطن أحد الموهوبين من فلذه وهب نفسه وفكره وقلمه لخدمته والتفاني فيه. وما إخاله في مرقد النعيم بجوار ربه إلا مبتهجا باجتماع أحبائه ورفاق الكتابة لإحياء ذكراه، متجاوبا مع نبيل أحاسيسهم، ومثبتا إياهم على عهد

الكلمة الشريفة الصادقة.

فهنيئا لروح الأستاذ توفيق يوسف عواد هذا الاحتفاء الكريم، وهنيئا لبلاده أن سعت إلى عقده ووفقت في تنظيمه؛ ولتتقبل تحيتي في هذه التهنئة المزدوجة، مفعمة بصافي المحبة وخالص الإخاء، معربة عن جزيل الشكر وعميق الثناء، معبرة عما أكنه للبنان الحبيب، داعيا أن يسبغ الله عليه موفور النعم والآلاء، ويوالي له كريم المنن والأفضال، ويبلغه كبير المقاصد والآمال؛ وأن يجزل لفقيده العزيز واسع المغفرة والرضوان، ويجزيه بأعظم الأجر والإحسان.

والسلام عليكم ورحمة الله.

مولاي الطيب المريني دنيا
الأديب المتأنق

***

نص الكلمة التي ألقيت في الحفل الذي أقامه المجلس العلمي الإقليمي لمراكش في جامع ابن يوسف تأبينا لعضوه الراحل الأديب مولاي الطيب المريني دنيا بعد عصر السبت فاتح محرم 1415هـ الموافق حادي عشر يونيو 1994م.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

«وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون».

أجل، ما أعظم مصيبة الموت، فهي الفاجعة الداهية التي تصم وتبكم، لا يكبح لها جماح، ولا تضمد منها جراح. وإن جميل الصبر والعزاء أهدى وأجدى، ولكن المآقي يغالبها الدمع فلا يستطيع أحد له صدا ولا ردا. فالجفون ذرف، والمدامع وكف، والصبر لا يسعف وإن عليه حسرة وتلهف. وكيف لا تفيض العيون، ولا يتولى هتانها المخزون، والرزء في الراحل العزيز جسيم يهز ويهد، والخطب فيه جلل يرمي القلوب ويهولها، ويخلفها هائمة غرقى في أنينها والوجد. فأي ناظر لم يذرف عليه من مائه الساخن الغدق، وأي قلب بنار فراقه لم يكتو ويحترق؟

لقد غار النبع وذوى الأيك وعاد الورد الناضر شوك قتاد، وناح الشادي وضل الحادي، وخلا النادي بعد أن هشم الساقي كؤوسه وصرف شربه، وانزوى الشعر في حداد، ومزقت الطروس وكسرت الأقلام وأهرق المداد.

هنا في مراكش وهناك في الرباط، وفي كل مكان وربع وأي مجلس انبساط - حيث عرف الناس فقيدنا المنعم وعرفوه - مأتم متوقد تصطلي في

تضرمه نفوس ملتاعة وزفرات متدافعة، وعبرات متدفقة وأنات شاهقة، وأسى فياض وألم هياض.

لهفي عليه، فقد سكن حبه كل القلوب، إذ فتحها برهافة حسه ولطف معشره، وبسحر منطقه وتبسم ثغره، وببهج محياه وكرم نداه، وبنبيل ترفعه ومهيب تواضعه، في رأي ثاقب وحزم، وإصرار على الحق وعزم، وفي إقدام على المعضلات الدهم يحلها، متفائلا على الدوام يتأبى على كل ملمة أو رزية، ولا يعبأ بأية كريهة أو بلية.

كان – أجزل الله رضوانه – يرى الحياة كالحلم اللذيذ الجميل، أو كالمسير في متنزه نسيم عليل. عرف الدنيا على حقيقتها: أنها جماع قضايا ومشكلات، وصراعات وتناقضات، وأدرك أسرارها وما تبطن من مخبآت واضطرابات، وما تخفي من مفاجآت ومتغيرات، وما يكتنفها من خيبات وصدمات، وما يموه على رائيها من خداع وأطماع، فلم يبتع بالنعيم شقاءها، ولم يستبدل بالمسرات أحزانها، بل تحداها فاتخذها له لقبا، وقد غدت في قبضته ملكا ومكسبا. ومن ثم لم يكن ليأسى على ما فاته منها أو يأسف، فأحرى أن يتمسك به ويكلف.

هو في أبناء جيله ولداته من مراكش الفيحاء نموذج متفرد شكلت تكوينه عوامل من بيئته وثقافته وشخصيته، فجاء يجمع بين الموروث من قديم جامع ابن يوسف بتقاليده العريقة وأصالته السامقة، والمكتسب من جديد العصر بشتى منطلقاته ومختلف مطرفاته. جاء عطرا فواحا بطيب متميز جعله الطيب الذي يكفي أن يقرن إلى سمة التشريف ليعرف أنه «مولاي الطيب» كما يسميه جميع أهله وأصدقائه وأحبائه؛ أولئك الذين ودعهم وألزمهم أن يودعوه، فودعوا برحيله ما كان يشدهم إليه من مكارم وفضائل وشيم وشمائل.

أما أنا فأودع فيه كل هذا الذي حببه للناس كافة، وأودع فيه ميزة

جمعت ما تفرق في سائر تلك السمات، أودع فيه جمال الفن وسحر الأناقة.

ما لقيته إلا ووجدته يتشمم رائحة الأدب الجيد البديع وفوحُ كل طيب متضوع رفيع، ويمج كل قول رديئ وماهو قبيح وضيع. إذا أنشد لي شيئا من شعره أو شعر غيره – وكثيرا ماكان يردد أبياتا لأدباء مراكش المرموقين – أخذني معه إلى عالم قدسي يقودني فيه بخطى متأنقة تحث على الإحساس به والاندماج معه، والتجاوب مع صادق معاناته، ومعايشة آماله وآلامه، وخيالاته وأحلامه.

ولا أخفي أني حين بلغني نعيه عدت إلى بعض ما بين يدي من قصائده فقرأتها وأعدت قراءتها؛ وفي كل مرة كنت – ومن أعماقي – أشعر بفيض من الطرب يهز المشاعر ويحرك الأحاسيس، وأشعر كذلك بهالة تستنفر بقوة لمحراب الخشية والتهيب؛ وما ذاك إلا لما في هذه القصائد من صدق النفس وصفاء النفس، وما فيها من قبسات منداحة وهمسات منزاحة.

كان – تغمده الله بواسع مغفرته – فنانا في شعره وفي مختلف مظاهر حياته، وكان يتميز في فنه بأنه متأنق فيه. يظهر هذا التأنق في مظهره ولباسه، وفي عادي خطابه وطريف ظرفه ولطيف نكاته؛ ويظهر إذا حكى أو قص، وإذا أنشد أو مازح بدعاباته. يتمهل ويبسم، ويشير ويومئ ولو برفة عين، ويوقع الحروف، يضغط عليها بلثغته الحلوة الساحرة، وكأنه يتلمظها؛ بل لا يشعر مجالسه إلا وهو يتلمظها معه. كل ما ينطق به يبدو كالنغم يردده ويترنم به ويغري بإعادة ترنيمه، أو هو كالعطر يفركه ليفوح طيبه داعيا إلى شمه وتنسمه.

نعم أيها الإخوة الأحباب، هكذا هو فقيدنا العزيز، وكذلك عرفته وعرفتموه. لقد رأيته – آخر العهد به – قبل نحو من نصف عام رفقة بعض أصحابه وأصهاره. كان ذلك ذات جمعة إثر صلاتها بمسجد للاسكينة في الرباط، حيث كان يستعد لرحلته مع المرض يحاول علاجه، ولكنه لم يبد لي

أي شيء من دائه الوجيع، إذ كان مرحا ضحوكا مستبشرا كالعادة به، غير ظان أنه سيرحل إلى حيث يقاد للاختطاف ونهاية المطاف، وأنه هناك سيبلغ ميقاته ويستوفي مدته؛ وتلكم مشيئة الله الذي اختاره إلى دار كرامته، واصطفاه ليكون إلى جواره مع الأصفياء من عباده الذين عوجلوا إلى رحمته.

وإني لألوذ بهذا المكان المقدس الذي كتب الله أن يكون فيه ملتقانا الأخير، فإن ما ينبعث منه في النفوس المومنة ليتجاوز كل رأي سديد قويم وأي قول بليغ حكيم، ويتعدى ذرف الدمع ليحث على تحمل كل بأس أليم. فقد ذكرني في تلك اللحظة العابرة السريعة بما كان تلا علي من مواعظ بالغات يوم ابتليت في أعزة لي كانوا أعزة له كذلك، فكان لي فيها ما أمدني بجميل التأسي والعزاء، وما علمني كيف الرضى بالقدر والقضاء. وذكرني كذلك بما يصفيني من محض وده وحبه، وبما قال يوم تكريمي في مراكش برائع أدبه، فرفع من قدري على سامي مقداره وعالي مكانته. وإنه لدين ثقيل طوقني به لا أستطيع له عدا ولا ردا، فليتقبل مني هذه الكلمة نفثة أحزان وزفرة أشجان، سكبتها سبكا يحاذي أنيق فنه وجميل بيانه. وما إخالها إلا واصلة إليه في قبره، ولكأني أراه وأسمعه يتلقاها وغيرها مما جادت به قرائح الأصدقاء والخلان، فيتجاوب معها جميعا في رضى عنها واطمئنان، يبديهما بالمعهود فيه من الأنق والمألوف من التأنق، وما عود عليه من طيبه الزكي وعطره العبق. ولا بدع فكما كان في حياته، هو الآن في مماته، ومثلما طاب اسمه وفعله وذكره، يطيب ترابه متأرجا بأنفاس الرياحين الزكية، معطرا بفوح الخزامى والأقاحي الندية، يهب على قبره نسيم عليل رقيق، وتحيط به رياض موشية، ويتضوع منه مسك ذكي فتيق، وتغطيه رحمة من الله واسعة لا تضيق، وتسقيه دلاء من الصلوات بغزارة وإسبال، في العشي والآصال، محملة بإحسان الله والإجمال، تبشره أن يتأهب مطيبا

للقاء العفو والرضوان والجزاء والغفران، فسيخصه الله بمكان صدق عنده، ينادى فيه عليه مع المتقين، كي يساقوا إلى الجنة فائزين، «سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين».

وسلام الله تعالى ورحمته وبركاته عليكم أجمعين.

تـابيـن الشيـخ محمد المكي الناصري

* * *

نص الكلمة التي ألقيت في افتتاح الحفل التأبيني الذي أقامه المجلس العلمي لولاية الرباط وسلا والأقاليم المجاورة للشيخ الناصري، بعد ظهر الخميس 18 صفر 1415هـ الموافق 28 يوليوز 1994م، بقاعة ولاية الرباط.
وكان قد توفي - رحمه الله - يوم الثلاثاء 28 من ذي القعدة 1414هـ الموافق 10 مايو 1994م، وتم دفنه يوم الأربعاء بضريح سيدي علي بورحي المجاور للمسجد الأعظم حيث صلي عليه.

صاحبي المعالي مستشاري صاحب الجلالة
معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
سعادة والي صاحب الجلالة
أصحاب الفضيلة العلماء والأساتذة
حضرات السادة

باسم الله نفتتح هذا الحفل الذي ينتظم بحضوركم الوفي الكريم، لتأبين فقيد الدين والعلم والوطنية، رئيس المجلس العلمي للعدوتين، والأمين العام لرابطة علماء المغرب، وعضو أكاديمية المملكة المغربية، العلامة المرحوم الشيخ محمد المكي الناصري الذي أفضى إلى ربه ووورى مرقده الأخير بعد عصر يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي القعدة عام أربعة عشر وأربعمائة وألف، الموافق حادي عشر مايو سنة أربع وتسعين وتسعمائة وألف.

وإن المجلس العلمي للعدوتين - وهو يدعو إلى هذه المناسبة - ليود أن ينتهزها للإعراب بكل امتنان عن جزيل شكره لسيد البلاد راعي العلم والعلماء ومكرم المخلصين الأوفياء، مولانا أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني أدام الله عزه ونصره، للعناية المولوية السامية التي أولاها للراحل المنعم، والتي كان أكبر مظهر لها تكليف فلذة كبده وولي عهده سمو الأمير سيدي محمد بحضور مراسيم الجنازة.

فإلى سدته العلية بالله نرفع أصدق آيات التعلق والولاء وأخلص عبارات المحبة والوفاء، لما أسداه ويسديه إكراما وتقديرا لحاملي الأمانة الإسلامية والناهضين بالرسالة الوطنية، داعين أن يكلأه الله بعنايته ويحفظه برعايته، وأن يمد في عهده ويطيل في حياته، ممتعا بالصحة الكاملة والعافية الشاملة، وأن يديم عليه سوابغ نعمه وأفضاله، ويشد أزره بإجماع الأمة من حوله، ويقر عينه بولي عهده الأمجد سمو الأمير سيدي محمد وصنوه سمو

الأمير مولاي رشيد وجميع آل بيته الكرام المطهرين.

فعلى بركة الله نبدأ حفلنا راجين توفيقه والسداد.

* * *

الحمد لله الذي تفرد بالبقاء، وكتب على خلقه الفناء. وهو القائل عز وجل: «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام».

والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله القائل: «من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض».

أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة

حضرات السادة

ها نحن نلتقي في هذا الحفل التأبيني الكبير، المفعم بعبق روحاني طاهر؛ يلتئم فيه جمع كريم من علماء المملكة ودعاتها والوعاظ، تحذوهم مشاعر الود والوفاء، وتحثهم أحاسيس الإخاء والصفاء. جاءوا ليكونوا إلى جانب أعضاء المجلس العلمي لعاصمة المملكة وسائر الأساتذة والفقهاء القائمين بالرسالة الدينية فيها وأبنائها كافة، وليشاركوهم ما يعانونه إثر فقد رئيس مجلسهم وشيخ جماعتهم، وقد طواه الثرى، وتركهم يجترون مرائر الشجى، ويتجرعون كؤوس الأسى، يضرم الألم قلوبهم ويقض الحزن مضاجعهم.

لقد رزئ المجلس العلمي للعدوتين والأقاليم المجاورة، بل رزئت المجالس كلها والمغرب جميعه والعالم الإسلامي في أقطاره عامة، بمصاب عظيم وخطب جسيم، حين اختلست يد المنون من بيننا وأمام أعيننا، أحد أعلام الأمة وروادها المكافحين، وعلمائها العاملين، الشيخ المرحوم محمد المكي الناصري الذي كان بالإضافة إلى رئاسته للمجلس، أمينا عاما لرابطة علماء المغرب، وعضوا في أكاديمية المملكة المغربية. فالقلوب عليه مكوية

والنفوس صواد، والجفون دامية ملتاعة بحرقة الأكباد، والدموع تنساب هطالة لا يكفكفها جلد ولا صبر، لهول التفجع وشدة التوجع. وماذا تجدي قطراتها ؟ بل ماذا تجدي لو جادت كلها وأهرقت، واستمر صبيبها واستنفدت؟ فليس عن قضاء الله من ملجأ أو مهرب، ولا عن قدره من مفر أو مذهب.

لقد كان الفقيد العزيز في مقدمة طلائع المجاهدين الأبرار والمومنين الأخيار، أولئك الذين أدوا حق دينهم ووطنهم، وفق بين أداء الرسالة الثقافية والسياسية، فكان انطلاقا من نشأته في بوتقة الدعوة السلفية الإصلاحية، مساهما في تأسيس الحركة الوطنية، بدءا من الرابطة المغربية التي انبثقت منها هيئة أنصار الحقيقة التي استمدت تسميتها من كتاب صغير الحجم عظيم الأهمية نشره المرحوم الناصري في فورة شبابه، هو «إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة». واضطر بعد مشاركته في تشكيل الكتلة الوطنية إلى الانتقال للمنطقة الشمالية، حيث كون حزب الوحدة المغربية، يدعو فيه إلى التمسك بالعرش والسيادة المغربية والوحدة الترابية؛ وينادي بأن الشعب للعرش، والعرش للشعب، وأن المغرب قطر واحد لا يتجزأ، وأن المغرب للمغاربة. وتسنى له بذلك - وبما يتوافر عليه من مؤهلات وقدرات - أن يخدم القضية المغربية، ليس في الداخل وحده، ولكن في الخارج كذلك، فشارك في لجنة تحرير المغرب العربي، وكان قد أسسها المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي في العاصمة المصرية؛ وحضر بعض دورات عصبة الأمم والأمم المتحدة والجامعة العربية؛ وقام برحلات متعددة إلى أقطار الشرق والبلدان الأسيوية، معرفا بالقضية المغربية وما كانت تجتازه من محنة إثر نفي الملك المقدس أكرم الله مثواه مولانا محمد الخامس وأسرته الشريفة العلوية.

وما أن استعاد المغرب استقلاله والحرية، حتى دعي الشيخ رحمه الله

لحمل المسؤولية، فعين في المجلس الوطني الاستشاري، وسفيرا في ليبيا، وعاملا على أكادير، ثم وزيرا للأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، فعضوا في الغرفة الدستورية، قبل أن يسند إليه ما سلف ذكره من مهمات علمية.

وماكان الراحل المنعم - وهو يجمع بين الثقافة والسياسة ويحكم التوفيق بينهما - ليهمل أداة التوعية الأولى، ألا وهي التعليم. فعمل أول الأمر معلما بمدرسة الحياة في الرباط، ثم أسس معهد تطوان وطنجة، وتحمل مسؤولية بيت المغرب في القاهرة. وحين أنشئت جامعة محمد الخامس، كان من أوائل المدرسين فيها بكلية الحقوق، مثلما كان من أوائل شيوخ دار الحديث الحسنية. وختم هذه المهام التعليمية بدرس التفسير الذي أسند إليه كرسيه منذ أن أقيم في الرباط نظام الكراسي العلمية.

في كل هذه المجالات، وموازاة لها، كان يسعى إلى التوسل بشتى الأدوات، بالشعر يلقيه في نفس سلفي إصلاحي عبر قصائد دينية ووطنيات؛ وبالخطابة التي كان فارس حلبتها، إذ انقاد له التعبير فيها سهلا يسيرا، وارتفع بها قدره وأدرك شأنا كبيرا. فكم هدى بها من ضالين وأرشد من حائرين. وفي الصحافة كانت له جولات، بما حبر من مقالات، وبما أصدر من صحف ومجلات، يومية وأسبوعية، بالعربية والفرنسية والإسبانية، بدءا من مجلة «الوحدة المغربية» إلى «منبر الرابطة» التي كانت لسان رابطة العلماء، كمجلة «الإحياء» العلمية.

أما بحوثه ودراساته، فكان فيها وبها مجليا دور المؤلف المتمكن القدير والعالم المسؤول الخبير. وإنه لتكفي الإشارة منها إلى كتابه «فرنسا وسياستها البربرية في المغرب» وكان قد نشره عقب أحداث الظهير البربري، وكذا إلى كتابه «الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية» المطبوع إثر ذلك.

وإنه لتتوج أعماله العلمية كلها تلكم الدروس الرمضانية التي ألقاها رائعة عميقة بحضرة مولانا أمير المومنين أيده الله ونصره، وكذا أحاديث

التفسير التي أذاعها على الأثير، وجمعها في كتاب «التيسير».

أصحاب المعالي والسعادة

حضرات السادة

هذا هو فقيدنا العزيز العلامة المرحوم الشيخ محمد المكي الناصري، كما عرفته وعرفتموه: عالم عامل، ومفكر مناضل، طاهر الذيل، صافي السيرة، نقي السريرة، حلى حياته بغر المناقب، وخلاها من السفاسف والمعايب، غير منقاد لتقلبات الزمان الذي كان يروعه تارة ويهيج، ويروقه أخرى ويبهج.

وهذه وغيرها خصال ستبقي ذكره ثناء مخلدا يسامي النيرات ويعلو الكواكب، ومسكا ذكيا يفوح عطره ويتضوع نشره. وحسبه أن يدوم صيته ملء الأسماع، عبر آيات كتاب الله يبث شرحها في الصدور، ويتوسل بهذا الشرح ليكون خير ما يقدم بين يدي الباري عز وجل.

أما نحن - زملاءه وأصدقاءه وأسرته والأحباء - فإن مصيبتنا في فقده ليس لها عزاء، طالما أن الصدور عليه في صعداء، والمآقي في بكاء. إنه لا ملجأ بعد فجع موته إلا في الصبر والاحتساب، إذ لا مقدور أن نحمل الأذى ونرد المصاب.

وإننا لنستسقي لقبره الغمام من كل جانب، ونفيض عليه من دموعنا السواكب، ونلقي عليه باقة من الدعاء الصالح ينتشر عبيره بالعبق الفائح، راجين له ما عند العلي العظيم من جزاء أوفى، وماهو عنده تعالى خير وأبقى، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الفهرس

صدر من منشورات النادي الجراري

1- التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين
للمرحوم عبد الله الجراري
2- كتابة تاريخ العدوتين
(الحلقة الأولى من ندوة عبد الله الجراري)
3- الثقافة من الهوية إلى الحوار
لعباس الجراري
4- عبد الله بن العباس الجراري الأديب
للأستاذ مصطفى الجوهري
5- العناية بالقرآن الكريم وعلومه في المغرب
(الحلقة الثانية من ندوة عبد الله الجراري)
6- Essai de typologie des causes d'échec des petites et moyennes entreprises
Feu **OLA JIRARI**
7- مع المعاصرين (هذا الكتاب)

الهلال العربية للطباعة والنشر
ARABIAN AL HILAL Imprimerie et Édition
الرباط، 21 زنقة ديكارت حي الليمون تلفون: 99-60-70 فاكس: 707751